سلسلة اعلام الفكر العالمي



مدام كوري

تأليف : إيف كوري

تعريب : أحمد الصاوي محمد

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

سلسلة اعلام الفكر العالمي

مدام كوري

التلميذة الخالدة

تأليف : ايف كوري
تعريب : احمد الصاوي محمد

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية صمدي وصالحة - ص.ب: ١١/٥٤٦٠
بناية برج شهاب - تلة الخياط - ص.ب : ١٩٥١١٩
برقيا : موكيالي - بيروت

الطبعة الاولى

نيسان (ابريل) ١٩٧٨

للذكرى

ذكرى امرأة : تزوجت فى الرابعة عشرة وترملت فى العشرين ، وماتت فى الخمسين

***

والان لم يعد لى الا الحبر والورق ، لانك ترفعت عن دارنا، أماه .. كنت أناديك بلسانى ، من صميم وجدانى .. وسئمت جوارنا ، وآثرت جوار الله .

سأعود الى البيت فأجد الظلام سائدا ، لان عينيك العزيزتين لاتضيئانه .. وأجد السكون شاملا ، لأن قلبك الذى كان يخفق بحبى غائبا وحاضرا ، قد كف عن الخفقان

سأمرض ، فلا أجد يدك تربت على خيرا من الدواء ، ولا احس قبلاتك وعبراتك التى فيها البرء والشفاء .. وقد أسعد ، فلا ألفاك تشتركين فى سعادتى التى هيهات أن تتم من دونك ، أو تكون بغير حضورك .. وسأشقى اياما طوالا ، شقاء لا عهد لى به ، لأنك لست معى تحملين أعباء شقائى ، كما فعلت مدى ثلاثين عاما ونيف ...

ان الايدى الغريبة ستحضر لى طعامى ، فلا أجد له بعدك طعما ولا مذاقا .. فقد كان ما تقدمين لى من الطيبات من صنع روحك لا من صنع يدك ! ..

سأسافر الى بلاد بعيدة ، فلا أحمل فى فؤادى دموعك الطاهرة ، زاد التقوى .. وسأعود ، فلا يتفتح قلبى لضحكاتك الساحرة .. لن أجد بعدك لوعة الذهاب ، ولن

اذوق بعدك متعة الاياب ! ..

يا حبيبتى اننى كلما ذكرت ، ايام مرضك وأنت تبكين وتقبلين يدى «لاغفرلك!» ، صياحك من هول الالم ،وشكواك .. أكاد افقد رشدى او افقد ايمانى ، وكلا الأمرين شر .. فأذكر قول أناتول فرانس : « انى أغفر لله كل شيء الا الالم » .. ثم أعود فأجد أنك أنت الشهيدة فى كل حياتك من المهد الى اللحد .. ربما اردت أن تتممى رسالتك .. فتعذبت هذا العذاب الاليم كله ، حتى اذا نزل قضاء الله. استروحت قلوبنا بعض العزاء والسلوى .. لان الله ، آخر الامر ، قد لطف بك ، فكف الداء الذى لا دراء له عن قتالك البطيء الفظيع ، وعن قتلنا معك .. فكأنك من وراء القبر قد احسنت الينا ، احسن الله اليك ...

يا صديقتى .. لقد علمتنى ما هو الحب وما هو الخير ، فصرت فى حياتى أمزج الخير بالحب ، وامزج الحب بالخير .. وأعيش بهما ، وأعيش لهما ، ولا أفرق بينهما .. وانى اعاهدك على ان أحيا واموت بالحب والخير على لسانى جزءا من جنانى ..

لقد كنت يا أماه تدعين الله أن احملك على يدى .. فلما حان الفراق لم أحملك بيدى ، بل وقفت مسلوب العقل ، انظر بجمود الى أذرع أخرى قوية ، أجنبية ، تحمل شخصا لا اصدق انه هو الذى كان كل حياتى !.. لانك انت فى قلبى منذ مولدى .. وانت فى قلبى تلميذا يتيما فى القاهرة ، وطالبا فقيرا فى باريس ، وشابا معذبا بخياله ، ورجلا شقيا بآماله .. وأنت أنت فى قلبى يا أماه ما حييت وبعد الحياة نفسها .. واننى لاعلم أننى أعيش فى فؤادك الحى ابدا ، لان قلوب المؤمنين جزء من الله الحى الذى لا يموت ..

يا بنيتى .. انك كنت فى السنوات الاخيرة كالبنت

الصغيرة ·· كنت صغيرتى ، وأصبحت لك أما وابا ·· كنت طفلتي العزيزة المدللة ، ورددت اليك بعض حنانك وأنا طفل .. أما حنانك وانا فتى ، وأما حنانك وانا شاب ، واما حنانك وأنا رجل .. فهيهات ان يتسع له فى الدنيا غير قلب الام ...

يا حبيبتى .. لقد عاش الموت بيننا فى هـــذه السنين الثلاث كأنه فرد من أسرتنا يسكن بيننا ، ويمد يده الى الطعام والشراب معنا ، ويستمع الى الحـــديث ويتدخل فيه ! .. وكنت كلما شكوت أو توهمت أضحك كاذبا حتى تطمئن نفسك ، ونفسى تتمزق ، لأن الموت كان نزيلا مقيما واقفا بالمرصاد .. لا يشفق ولا يحيل ، بل يسخر ، ويقهقه بفظاعة ، ويسقيك السم قطرة قطرة ، ثم جرعة جرعة ·· ويسقينى ··

يا صديقتى .. قد آن لى أن أختم هذه المناجاة ... وأنت تعرفين السبب ، لان اجمل ما كان يدور بيننـــا ، كان همسا لا يسمعه أحد ، ولا يفهمه أحد ...

سأناديك صادعا يا أماه ، وانا واثق من أنك من وراء الابدية ستلبين النداء ، وتجيبين الدعاء ·· فأقول لك : « والآن اماه الى اللقاء ... »

« ما قل ودل »

(الاهرام) فى ٢ نوفمبر ١٩٣٨

مقدمه ..

ان فى حياة مارى كورى من الآيات البينات ما يجعل قصتها كأسطورة من أساطير الاولين .

فهى امراة .. وهى تنتسب الى أمة مغلـــوبة على أمرها .. وهى فقيرة .. وهى جميلة .

وان نداء قويا دعاها الى مغادرة وطنها « بولونيا » ، لتدرس فى باريس ، حيث عاشت سنين فى وحدة واملاق

وهناك تلقى رجلا عبقريا مثلها ، فتتزوجه ، فيصبح هناؤهما فذا فريدا ..

ويبذلان جهدا ، أشد الجهود اضناء وجدبا ، الى ان وفقت مارى وبيير كورى لاكتشاف عنصر سحرى ، هو الراديوم . ولم يهيىء اكتشافهما لمولد علم جديد وفلسفة جديدة فحسب ، بل هيـــأ للجنس البشرى سبيل علاج داء فظيع .

وفى اللحظة التى يشرق فيها مجد هـــذين العالمين الخيرين على العالم ، يخطف الموت من مارى زوجها ، رفيقها العظيم ، فى طرفة عين .

وعلى الرغم من جزع القلب واوجاع البدن ، تمضى وحدها فى العمل الذى بداته واياه ، وتتقدم بالعلم الذى خلقاه معا .

وليست بقية حياتها الا هبة سخية ، وعطاء متصلا .

فهى تكرس لجرحى الحرب كيانها ، وتقف عليهم صحتها .. ثم تعطى ، فيما بعد ، نصائحها ، ومعرفتها ، وكل ساعة من وقتها لتلاميذها . علمـــاء المستقبل الذين قصدوها من كل بقاع الارض .

وما كنت لأغتفر لنفسى ذنبهــا لو اننى حاولت أن اضيف أقل الزينة الى هذه القصة ، الشبيهة بالاسطورة .. فلم ارو حكاية واحدة الا وانا واثقة منها ... ولـم احور أو ابدل جملة واحــــدة أصيلة ، أو ابتكر لون فستان .. فالوقائع حدثت ، والاقوال فعلا قيلت .

ولما أتمت رسالتها ، وابلغتها ، ماتت ، وقد اضنتها العلل ، بعد ما أبت المال والثراء ، واستكبرت التكريم ، ولم تعبأ بالنعم والآلاء ..

وانى ارجو أن يشعر قارىء هذا الـكتاب ، شـعورا متصلا خلال صفحاته ، بأن شيئا فى مارى كورى كان اندر من عملها ، ومن ذات حياتها ، وهو بناء خلقهـا المتين المكين ، وجهد ذكائها الملح العنيد ، والقربان الخالص من مخلوقة تستطيع أن تعطى كل شىء ، ولا تأخـذ او تتقبل شيئا .. وفوق هذا كله : نوع هذه النفس التى ما كان للشهرة الذائعة ، ولا للشدة القارعة ، أن تغير ذرة من جوهرها النقى ، وصفائها النادر .

ولما كانت لمارى كورى هذه النفس العلوية ، رفضت اعراض الدنيا وأموالهـا ، والمزايا التى يحصل عليهـا امثالها ، من النابغين والعظماء ، الذين دانت لهم شهرة لا حد لها

ولقد تألمت من الدور الذى ارادتها الدنيـا على أن تلعبه . وكانت طبيعتها من دقة الحس وكرامة الحرص بحيث ظلت عاجزة ، الى النهاية ، عن اتخاذ الموقف الذى

يقترحه عليها المجد ، أو الشكل الذى يقتضيه ذيوع الصيت ، فلم تعرف الوقوف فى المعارض ، ولم تحسن المشى فى المواكب !

ولم تدر كيف تكون شهيرة !

***

كانت أمى فى السابعة والثلاثين عندما ولدت . ولما كبرت الى حد أن عرفتها حق المعرفة ، كانت قد صارت امرأة مسنة ، بلغت ذروة الشهرة . ومع ذلك فان « العالمة المشهورة » هى هى التى اجهلها ، ولعل ذلك راجع الى أن فكرة علمها وشهرتها لم تكن تشغل بالها . . بيد أنه يخيل الى اننى عشت دائما مع الطالبة الفقيرة ، المسحورة بالأحلام ، التى كانت تدعى « مانيا » أو « ماريا سكلودوفسكى » قبل أن اجىء الى الدنيا بزمن طويل .

وكانت مارى كورى ، فى يوم موتها ، لا تزال تشبه تلك الفتاة . ولم تستطع مهمتها الطويلة المدى ، العظيمة الأثر ، الجليلة الخطر ، أن تكبرها أو تصغرها .. ولم تستطع ان ترفع ، ولا أن تخفض ، من قدرها .

فقد كانت ، فى ذلك اليوم الأخير ، لطيفة ، عنيدة ، حيية ، متطلعة الى جميع الأشياء ، كما كانت فى أيامها الخاملة الأولى . . .

ولقدسية سرها كان من المستحيل أن تفرض عليها ، فى يوم موتها ، دون تجديف ، الجنائز الرسمية الحافلة التى تقدمها الحكومات لعظمائها . .

فدفنت ، فى هدوء شامل ، وبساطة مطلقة ، فى مقبرة ريفية ، بين زهور الصيف ، حتى كأن تلك الحياة التى انتهت ان هى الا مثل الوف غيرها .

الا ليت لى موهبة كاتب ، لأتحدث عن « التلميذة

الخالدة » التى قال عنها آينشتين : « ان مارى كورى ، من بين جميع المشهورين ، هى وحدها التى لم يفسدها المجد » . . .

فمرت ، فى ذات حياتها ، كأنها أجنبية عنها ، ماثلة ، على سجيتها ، لا تكاد تتبين مصيرها المدهش ، الذى يحير الألباب . . .

ايف كورى

الجزء الأول

مانيا ...

يسود السكون شوارع فارسوفيا أيام الآحاد ، ولا سيما شارع نوفولبيكى ، حيث كانت مدرسة الصبيان المحفور اسمها على الحجر ، بحروف روسية ، فوق الباب الكبير الموصد بالرتاج .. وكانت هذه الردهة ذات الأعمدة أقرب ما تكون الى معبد مهجور . لقد غابت الحياة عن هذا البناء الواطى المتد ذى الطابق الواحد ، المنتشرة فيه ادراج التلاميذ الخشبية التى خدشتها ضربات المطاوى واسنان الأقلام بالأحرف الأولى من الاسماء .. ولم يعد يسمع الا جرس كنيسة « العذراء » المجاورة ، أو دوى دولاب عربة ، من حين الى حين ، أو وقع حوافر جواد يقطع الطريق .. ووراء الباب الحديدى أينعت فى حوش المدرسة أربع شجيرات زنبق يتضوع شذاها على المارة ، فيلتفتون الى ندائها الصامت الزكى ، معجبين .

وكان الجو حارا ، ولم يبق من شهر مايو الا أقله .. فمدينة فارسوفيا شمسها شواظ من نار ، كما ان ثلجها زمهرير ..

ومع ذلك كان هناك شىء يعكر ذلك الهدوء الشامل . فقد كان الجناح الايسر من البناء هو مسكن المسيو « فلاديسلاو سكلودوفسكى » Wladyslaw Sklodowski

استاذ الطبيعة ووكيل المدرسة .. وكانت تصـدر منه صيحات حادة ثاقبة ، وضربات كأنها من وقع مطرقة .. ثم صوت انهيار قصر من قصور الأطفال .. فقد كانت « مانيا » تلاعب « جوزيف » بالمكعبات الخشبية ، وكانت ساحة المعركة حجرة واسعة مربعة تشرف نوافذها على حـوش المدرسة الداخلى ، وفى اركانهـا اربعـة اسرة صغيرة .. وكان اربعة أطفـال بين الخامسة والتاسعة كانهم فى معركة حامية : « جـوزيف » و « برونيـا » و « هيلا » و « مانيا » .. ولا عجب اذا فاز الاول ، فسدد اليهن مدافعه ، وربح منهن أرضا ، وزحزحهن عن مواقعهن .. فهو الأقوى ، وهو الأكبر ، وهو الأعلم : وهو أيضا الرجل الوحيـد بينهن ، حـوله بنات ، وليس الا بنات ، كلهن فى زى واحد ، وقد وضعن ، على ثياب يوم الأحد مريلات صغيرة قاتمة اللون ذوات جيوب .

والحق ان أولئك البنات كن يحسن النضال ، يناضلن بقوة .. فكانت عينا « هيلا » تشعان بحماسة وحشية كانت « هيلا » ناقمة على أن ليس لها من العمر الا ست سنوات ونصف سنة ، كانت تريد أن تسبق فى اللعب وتنتصر ، كانت تحسـد السنين الثمانى التى لأختهـا « برونا » ، تلك العبلة الشائقة ذات الشعر الأشقر المنطلق غدائر كأنها أسواط تضرب الهواء .. والى جانب «برونيا» مساعدتها الصغيرة التى تجمع لها ، من الأرض ، ذخيرتها لمعركة المكعبات الخشبية ...

ـ ماذا جرى ؟ ..

قالت ذلك « زوسيا » ، كبيرة أولاد سكلودوفسكى الخمسة ، وهى تدخل ، وقد بدت ، بين اخوتها ، كبيرة، ولو لم تكن قد بلغت بعد سنتها الثانية عشرة .. وكان شعرها البلاتينى طليقا ، متهدلا على كتفيها .. وكان

وجهها جميــلا مشرقا ، وعينـــاها حالمتين ، فيهما لون الرماد الحار ...

ـ أمى تقول انكم تلعبون من أمد طويل ، فكفى ..

فحاولت مانيا البقاء بقولها :

ـ ولكن برونيا فى حاجة الى ... فاننى أنا التى تحمل اليها المكعبات .

ان أمى تدعوك اليها .

فبعد لحظة تردد ، أخذت مانيا يد أختها وخرجت فى كبرياء .. وكان فى الحجرة المجاورة صوت رقيق ، يدعوها ويدللها بالأسماء المصغرة ، المنوعة حنانا وحبا :

ـ مانيا .. مانيوزيا ...

ففى بولونيـــا يهيمون بهـــذه المصـــغرات ، وفى أسرة سكلودوفسكى هذه يطلقون « زوسيا » Zosia على « صوفى » Sophie ، البنت الكبرى . و « برونيا » Bronia عندهم بدل « برونيسلافا » Bronislawa وقد أصبحت « هيلانه » Helana : « هيلا » Hela .. أما « جوزيف » فهو « جوزيو » Gozio . بيد ان أحدا ممن فى البيت لم يحظ بمثل ما حظيت به « ماريا » ـ الصغرى ـ من المحببات المدللة ، فهى آخر العنقود ، وهى عزيزة البيت .. فهى « ماريا » Marya و « مانيا » Mania و « مانيوزيا » Maniusia .. الخ !

وعطفت عليها أمها تصلح من زينتها ، بيدين شاحبتين، نحيلتين ، وتنظم شعرها ، وترفع دوائره المسدلة على الوجه العنيد ، وجه عالمة عظيمة ، من علماء المستقبل .. فخضعت الصغيرة ، واستسلمت ، وسرى عنها ...

ان حب « مانيا » لأمها لا حد له .. فقد خيل اليها انه ما من مخلوقة على ظهر الأرض تعادلها رقة وطيبة قلب ، أو تعادلها حكمة ...

وكانت أم هذه الأم كريمة المنبت ، قليلة المال . وقد فتن بها زوجها ، فاقترن بها خفية ، رغم احتجاج والدى الفتاة الجميلة ومعارضتهما .. ثم مرت السنون والايام .. وانجبا ستة أولاد ، كانت بينهن بلا شك ، مدام سكلودوفسكى ، والدة مارى بطلة هذا الكتاب ، أوفرهن اتزانا وأشدهن ذكاء .. فليس فيها ذلك الشذوذ ، أو القلق ، أو التهور الذى نراه فى الجنس السلاف ألوانا .. وقد تربت تربية فنية فى احدى مدارس فارسوفيا ، واصبحت معلمة فى المدرسة نفسها التى تخرجت منها ، ثم ناظرة لها . فعندما طلب يدها الأستاذ فيلاديسلاو سكلودوفسكى كان قد اختار بلا شك زوجة فاضلة . لم تكن ذات مال ، ولكنها كانت كريمة العنصر ، تقية، عاملة، ولها مهنة ثابتة .. وكانت كذلك موسيقية ، تعزف على البيانو ، وتغنى بصوت شجى أغانى ذلك العهد ..

ثم هى جميلة جدا .. ففى صورة زواجها نرى محياها الفاتن ، وشعرها السخى الغزير الناعم ، واهدابها الهلالية المدهشة ، ونظرتها المطمئنة من عينيها الرماديتين النجلاوين ، كالعيون المصرية ..

وفى ٧ نوفمبر ١٨٦٧ ولدت من هذا الزواج الموفق ، فى هذا البيت السعيد ، مانيا الصغيرة (مارى كورى) ..

— والآن ، هل نمت ياحبيبتى مانيوزيا !

ومرت مدام سكلودوفسكى بأصابعها الرقيقة على جبين صغرى بناتها ، بتلك الحركة الحنون التى تعهدها البنت من أمها ... فلم تكن مانيا تذكر سواها ... فأمها لم تعانقها قط ، ولم تقبلها ·· وكانت لا تتصور هناء مثل هناء الالتصاق بهذه المراة الساهمة ، ولا تدرك بعد السبب القاسى لهذا الحرمان الذى قضت به أمها .. فقد كانت الأم مريضة مرضا خطيرا ، اذ ظهرت عليها اعراض

الـ ـل حين مولد مانيا ، وظلت خمس سنوات ، برغم الاستشارة والاستشفاء ، والداء يسرى .. وكانت دائما نظيفة الملبس ، قوية الايمان ، متظاهرة بالصحة .. وفرضت على نفسها قواعد دقيقة : فلا تتناول طعامها الا فى آنية خاصة بها ، ولا تقبل ولدها وبناتها . ولم يكن هؤلاء الصغار يعرفون عن ذلك الداء الا قليلا .. فكانوا يسمعون نوبات السعال الجاف فى الحجرة المجاورة ، ويرون قناعا من الأسى على وجه أبيهم ، ويرددون جملة ، أضافوها الى صلوات المساء : « يا الهى أسبغ على والدتنا ثوب الصحة والعافية »

وكان من سوء الطالع ، فى عام ١٨٧٢ ، ان يكون المرء بولونيا ــ من رعايا روسيا ــ وينتسب الى تلك الطبقة الذكية المرهفة الاعصاب ، التى تختمر الثورة فى احشائها، والتى تشكو ، اكثر من اية طبقة سواها فى المجتمع ، من العبودية المفروضة عليها بحكم القياصرة .

ومنذ قرن كامل قبل ذلك ، كان الملوك الشرهون ، الجيران الأقوياء لدولة مستضعفة ، قد قرروا القضاء على بولونيا .. فتنازعوها ثلاث مرات متتابعة ، وقطعوا أوصالها قطعا ، اصبحت رسميا : المانية ، وروسية ، ونمساوية . وفى مناسبات عدة هب البولونيون ضد المحتلين الذين غلبوهم على امرهم .. فلم يوفقوا الا الى زيادة ضغط قيودهم واغلالهم .. وبعد فشل ثورتهم الجريئة فى ١٨٣١ امر القيصر نيقولا بأعمال انتقامية صارمة فى بولونيا الروسية .. فكان الوطنيون يعتقلون ، ويبعدون جماعات ، وتصادر ممتلكاتهم .

وفى ١٨٦٣ وقعت محاولة أخرى وكارثة أخرى .. فلم يكن لدى الثوار الا الفؤوس ومناجل الحصاد والنبابيت ، ليواجهوا بها بنادق القيصر . وانقضت ثمانية عشر شهرا

فى نضال مونس ، وفى النهاية تدلت جثث زعماء الثوار من خمس مشانق على أسوار فارسوفيا ..

ومن ذلك الحين ، وقد عمل كل شيء لارغام بولونيا على الطاعة ، وهى تأبى ان تموت .. وبينما كانت قوافل الثوار المقيدين بالأصفاد فى طريقها الى ثلوج سيبيريا المتجمدة ، تدفق سيل من رجال البوليس والأساتذة وصغار الموظفين على البلاد .. فماذا كانت مهمتهم ؟ ان يراقبوا البولونيين ، وأن يضعفوا ايمانهم ، وأن يصادروا الكتب والصحف المشتبه فيها ، وأن يبطلوا استعمال اللغة القومية شيئا فشيئا . وقصارى القول : أن يقتلوا روح أمة .

ولكن سرعان ما نظم المعسكر الثانى المقاومة . وقد دلت البولونيين تجاربهم على أنه لا أمل لهم فى الحرية عن طريق القوة ، وفى تلك الآونة على الأقل .. فكان واجبهم اذن أن ينتظروا ، وأن يحولوا بينهم وبين الأخطار التى يتعرض لها المنتظرون ، وأن يحاربوا فيهم الجبن وفتور الهمة ..

وبذلك بدلت المعركة ارضها .. ولم يعد أبطالها أولئك المحاربين المسلحين بالمعاول الذين يهاجمون القوزاق ، ويموتون قائلين : « ما أسعد أن نموت فى سبيل الوطن ! » .. لقد أصبح الأبطال الجدد هم المفكرين والفنانين ورجال الدين والمعلمين .. اولئك الذين تتوقف عليهم عقلية الجيل الجديد .. وكانت شجاعتهم تقضى بالتظاهر والمراءاة باحتمال أى مذلة ، عوضا عن أن يفقدوا المراكز التى ما زال القيصر يسمح لهم بها .. وبذلك يؤثرون سرا فى الشبيبة البولونية ، ويوجهون مواطنيهم ...

وهكذا كانت تحت مظاهر الأدب تقوم العداوة اللدود ، بين المستعمرين المستبدين والمستعمرين المجاهدين ، فى

المدارس البولونية ، بين الاساتذة البولونيين المحنقين ، والنظار الجواسيس الروسيين .. بين أمثال أسرة سكلودوفسكى ـ بطلة هذا الكتاب ـ وأتباع القيصر نيقولا ...

وكان يطرق سمع مانيا من كلام الكبار : « البوليس .. القيصر .. الابعاد .. مؤامرة .. سيبيريا » .. وظلت هكذا ، تسمع عبارات غامضة ، تبعث فيها الخوف ، دون أن تعرف ما مغزاها .. وكانت بفطرتها تتجنبها ، ولا تتعجل الساعة التى تدرك فيها معناها ..

ولم يكن يلفت نظر مانيا الصغيرة ، اللوحات الزيتية ، التى تزخرف الجدران باطاراتها الذهبية ، لا ، ولا الوان التحف القديمة ، من مرمر ، أو خزف صينى من صنع سيفر .. بل ذلك الجهاز الموضوع فى اناء زجاجى ، مغلق ، ذى أنابيب بلورية ، وموازين صغيرة ، وأشياء معدنية ، وأوراق ذهبية ، وعوينة مكبرة ...

فلم تتصور مانيا ماذا يمكن أن يكون هذا كله .. فشبت ذات مرة على أخمصى قدميها تتأمل مبهوتة .. فدخل أبوها ، وعرفها به بقوله : « جهاز الطبيعة

Phy-Sics app-a-ra-tus»

اسم عجيب ! ..

فلم تنسه ، وهى لا تنسى شيئا أبدا .. وكانت ، حين ما تكون مرحة ، تترنم باسم جهاز الطبيعة السحرى :

« **فيزيكس آباراتوس** » !

أيام كئيبة

ـ ماريا سكلودوفسكى !

ـ افندم !

ـ حدثينا عن ستانيسلاس أوجست .

ـ ستانيسلاس أوجست انتخب ملكا على بولونيا فى ١٧٦٤ .. وكان ذكيا ومثقفا جدا ، وصديقـا للفنانين والكتاب .. وقد عرف الأدواء التى كانت تضعف المملكة، وحاول ان يجد لها علاجا .. ولكنه ، اسوء الحظ ، كان رجلا تنقصه الشجاعة .

كانت متفوقة بين أترابها ، تلك التلميذة التى تنهض من درجها ، فى الصف الثالث ، الى جانب احدى النوافذ العالية ، المشرفة على العشب المغطى بالثلج ، فى حديقة غناء .. والتى تردد درسها بصوت رخيم رزين وهى فى ثوب المدرسة ، الأزرق القاتم ، ذى الأزرار الصلب ، تزينه ياقة بيضاء ، منشاة جيدا ، تكاد تبتلع محيا تلك البنية ، ذات السنوات العشر .. والى جانبها شقيقتها هيلا ، فى مثل الثوب المحتشم ، والشعر المقوص ، طبقا للقواعد الصارمة فى مدرسة مدموازيل سيكورسكا !

ولم تكن المعلمة الجالسة الى مقعد التدريس بأجمل بزة ، أو أتم اناقة . .كانت فى مسوح سوداء ، عتيقة النمط .. ولم تكن من الجمال على كثير أو قليل ..

وكانت معلمة و « ضابطة » فى وقت معا .. وهذا مازادها شدة وحدة . وان كان لم يحل دون نظرتها حنانا وحبا الى الصغيرة مانيا .. كيف لا تكون المعلمة فخورة بمثل هذه التلميذة النجيبة . وهى دون صغرى رفيقاتها بعامين ، لا يكاد يصعب عليها شىء .. دائما الاولى فى الحساب ، والاولى فى التاريخ . والأولى فى الأدب . وفى اللغة الألمانية ، وفى اللغة الفرنسية ، وفى الديانة ؟ ...

وساد الفصل السكوت . بل ساده شىء أكثر من السكوت .. فان درس التاريخ يخلق جوا حارا .. ان عيون اثنتى عشرة صبية وطنية متحمسة تتجه الى وجه معلمتهن ، فيقرأن عليه خطورة الحديث وجلال الوطن .. وها هى ذى مانيا تتكلم عن ملك من ملوك بولونيا ، مات من زمن طويل ، ولا ترحمه فتقول :

ــ ... لسوء الحظ ، كان رجلا تنقصه الشجاعة ..

وكأن السكون ، والاصغاء ، والالقاء ، أشبه بمؤامرة خفية ، بين المعلمة وتلميذاتها ، فى الدرس البولونى ، عن تاريخ بولونيا .

وفجأة ، ارتجفت هؤلاء المؤتمرات لسماع جرس كهربائى سرى ..

دقتان طويلتان .. ثم دقتان صغيرتان .. فكانت علامة منذرة سببت اضطرابا شديدا وصمتا عميقا .. وأسرعت المعلمة فأخفت أوراقها .. وأسرعت الأيدى النحيلة فألقت الكراسات والكتب المدرسية البولونية فى مرايل خمس تلميذات ، خفيفات ، رشيقات ، مكلفات بهذه المهمة ، فأسرعن واختفين بالكتب من باب يؤدى الى عنابر القسم الداخلى ، وألقين بحمولتهن فى مكان خفى أمين ، وعدن ، يلهثن ، الى مقاعدهن ..

ثم فتح باب الفصل ! وظهر « هورنبرج » ، مفتش

المدارس الحرة بمدينة فارسوفيا ، فى سترته الوجيهة ، سمينا ، المانى الزينة ، ثاقب العينين من وراء منظاره الذهبى .. فنظر الى الطالبات دون أن يفوه بكلمة ... ووقفت بالقرب منه ، فى ثبات ظاهرى ، الناظرة ، مدموازيل سيكورسكا ، التى كانت تصحبه ، وتنظر الى الطالبات مثله .. ولكن بأى قلق مستكن ! .. ان الفرصة اليوم كانت قصيرة ، بحيث لم يكد البواب يمد يده الى الجرس المصطلح عليه حتى كان هورنبرج ، قد تقدم دليله ، ودخل القاعة .. فهل كل شىء كما يجب ان يكون ؟! .. يا رباه ! ..

كل شىء على ما يرام .. فان خمسا وعشرين صبية صغيرة ، منحنيات على مناسجهن ، يشتغلن بالابرة ، وعلى ادراجهن المقصات ، وبكر الخيط .. وقالت الناظرة ، فى ثبات ، باللغة الروسية :

ــ ان هؤلاء الصغيرات يعملن ، ياسيدى المفتش ، ساعتين كل أسبوع فى التطريز .

فتقدم هورنبرج نحو المعلمة :

ــ ماذا تقرأين يا آنسة ؟

فردت المعلمة بكل هدوء ، وقد استردت وجنتاها شيئا فشيئا لونهما الطبيعى :

ــ هذه قصص « كريلوف » .. وقد بدأناها اليوم ..

ورفع هورنبرج غطاء أقرب درج اليه ، فلم يجد كراسة ولا كتابا !

وكانت التلميذات قد وصلن فى نسيجهن الى «الفرزة» التى يحسن الوقوف عندها .. وشككن الابرة فى النسيج ، وتوقفن ، وشبكن أذرعهن على صدورهن ، ولبثن ، بلا حراك ، متشابهات ، فى أثوابهن القاتمة ، وياقاتهن البيضاء .. وبدت هذه الوجوه الخمسة

والعشرون ، كأنها شاخت بغتة ، وعبرت تعبيرا حازما ، بليغا ، أخرس ، عما تنطوى عليه من الخوف ، والمقاومة ، والحقد .

وتقبل المفتش الكرسى الذى قدمته اليه المعلمة .. وسألها أن تنادى احدى الطالبات ..

فالتفتت ماريا سكلودوفسكى ، فى الصف الثالث ، نحو النافذة ، وقد تقطب جبينها الصغير .. وتضرعت فى سرها : « الهى لا تجعل الدور دورى ! . دعهم يتجهون الى غيرى يا الهى .. الى سواى ! .. »

ولكنها كانت تعلم حق العلم انها هى المختارة .. كانت تعلم انها المكلفة دائما بالرد على استجواب مفتش الحكومة ، لأنها أوفر أترابها معرفة ، ولأنها تتقن الروسية اتقانا تاما .

ولما سمعت النداء باسمها وقفت .. وخيل اليها أنها تحس بحرارة ، بل تحس ببرودة .. وكأن حلقها قد غص بالكراهية ، وهى تسمع صوت هورنبرج يأمرها بتلاوة الصلاة ، تلك الصلاة التى كانت ضريبة المذلة التى فرضها قياصرة الروس على الأطفال البولونيين ، يرددونها كل يوم باللغة الروسية ، ليجعلوهم يوقرون معتقدات المستعمرين ، ويفكرون بما يقدسون ..

وعاد السكون فساد .. ثم قال المفتش :

ـ من هم القياصرة الذين حكموا ، منذ كاترين الثانية ، روسيا المقدسة ؟!

ـ كاترين الثانية ، بولس الأول ، الكسندر الأول ، نيقولا الأول ، الكسندر الثانى ..

فأبدى المفتش ارتياحه ، فذاكرة البنت جيدة .. ويا للهجتها من روسية عريقة ! فكأنها ولدت فى سان بطرسبرج ! ..

ـ قولى لى اسماء والقاب اعضاء الأسرة الملكية الامبراطورية ..

ـ جلالة الأمبراطورة ، صاحب السمو الامبراطورى الاروفتش الكسندر ، صاحب السمو الجراندوق ...

وبعد انتهائها من التعداد . الذى كان طويلا ، ابتسم هورنبرج .. فقد أحسنت الاحسان كله ! ولم ير الرجل، او لم يرد ان يرى ، اضطراب مانيا ، وملامحها التى تجمدت من الجهد الذى تبذله لاخفاء ثائرتها ..

ومضى يسألها عن طبقات رجال القيصر ، ومكانته شخصيا من هذه الطبقات ! .. فقد كانت تلك التفاصيل اجدى عنده من الرياضة والنحو .. ثم سأل :

ـ من هو حاكمنا ؟ ..

فاخفت الناظرة والمعلمة نار نظراتهما فى السجلات التى امامهما .. ولم يجىء الرد سريعا .. فتضايق هورنبرج ، وردد سؤاله بحدة :

ـ من هو حاكمنا ؟

فردت مانيا ، وقد غشى بصرها ، وتحشرج صوتها ، وشحب محياها :

ـ صاحب الجلالة الكسندر الثانى ، قيصر روسيا العظمى .

وانتهى الاستجواب ، وانفض المشهد ، وغادر المفتش كرسيه ، وحيا تحية سريعة ، واتجه الى القاعة المجاورة ، تتبعه الناظرة .

وعندئذ رفعت المعلمة راسها ، وصاحت :

ـ تعالى ، يا روحى الصغيرة ! ..

وخرجت مانيا من صفها ، وتقدمت الى مربيتها ، التى قبلتها فى جبينها صامتة .. وفجاة ، وقد عادت مياه الفصل الى مجراها ، اجهشت الصبية البولونية بالبكاء ،

من فرط ما اصاب أعصابها ..

خرج البنات من المدرسة مسرعات الى أمهاتهن اللواتى ينتظرنهن على الباب ، يحملن اليهن الخبر المثير : « جاء المفتش ! .. جاء المفتش ! .. » . وقالت هيلا لعمتها التى جاءت فى طلب الأختين : « لقد سأل هورنبرج مانيا فردت ردا حسنا جدا .. ثم بعد ذلك انتحبت » .

اما مانيا فكانت تسير صامتة الى جانب عمتهـــا .. فانها ، رغم مضى الساعات على ســؤال المفتش لهـــا ، ما زالت مضطربة .. فهى تمقت تلك المظاهرات المفاجئة المذلة التى لابد فيها من الكذب ، من الكذب دائمـــا .. وأحست اليوم خاصة بأحزان الحيـــاة .. فقد تتابعت المصـــائب على أسرة ســـكلودوفسكى ، وبدت السنوات الأربع الأخيرة لمانيا كحلم مرعب .. فأمها اضطرت الى السفر الى نيس ، فى جنوب فرنسا ، مع بنتها زوسيا .. فقالوا لمانيا فى تفسير ذلك الغياب : « ان أمك بعد هـــذا الاستشفاء ستعود فى صحة جيدة » .. فلما عادت بعد عام رأت البنت أمها قد شـــاخت ، وطبعها داء الصدر بطابعه المخيف ..

ثم كان خريف ١٨٧٣ ، يوم عادت الأسرة الى المدرسة لتتولى مهام افتتاح الفصول ، فى ذلك اليوم المفجع الذى وجد فيه المسيو سكلودوفسكى على مكتبه مظروفا رسميا بتخفيض مرتبه ، وحرمانه من مسكنه المجانى مع أسرته فى مدرسة شارع نوفولبيكى ، وانزال درجته .. اذ وشى به مدير المعهد ، ونال منه .

فبعدما ظلت أسرة سكلودوفسكى تنتقل من بيت الى بيت ، ألقت عصاها واستقر بها المطـــاف فى شـــقة على ناصية شارع نوفولبيكى وشارع الكرمليت .. وبدأ كيانها يتطور طبقا لمـــا يفرضـــه البؤس من ضرائب .. فأخـــذ

الأستاذ بادىء ذى بدء صبيانا مختارين من بين تلاميذه للسكنى عنده ، وتناول الطعام ، والمذاكرة والدروس الخصوصية .. فبدأ باثنين ، أو ثلاثة .. ثم خمسة ، ثم ثمانية ، ثم عشرة .. فتحول البيت الى « بنسيون » أقرب الى ضجيج الطاحون ، واختفت منه الراحة ، وتقلص ظل الهدوء .

واذا كان الأستاذ سكلودوفسكى قد لجأ الى جعل بيته نزلا للطلاب ، فلم يكن ذلك راجعا الى خفض مرتبه فقط ، او اضطراره الى التضحيات التى تستلزمها اقامة زوجته فى الريفييرا للاستشفاء فحسب ، بل أيضا لأن رجلا احمق ، هو أخو زوجه ، قد ورطه فى مغامرة تجارية لا علم له بها ولا عهد .. فاذا به ، وهو الرجل الحصيف الحذر ، قد اضاع الثلاثين الف روبل (نحو الثلاثة آلاف جنيه) ، كل ما ادخره مدى الحياة من عرق الجبين . وظل بعد يعض أصابع الندم ، شديد القلق والتمرمر والتبرم بما فعل ، يتهم نفسه بلا انقطاع بأنه جلب الفقر على اهله ، وحرم بناته مهورهن .

وفى يناير ١٨٧٦ عرفت مانيا على حين فجأة ما هو الشقاء .. فان احد الطلبة النزلاء عندهم أصيب بالتيفوس ، ولحقت العدوى ببرونيا ، ثم زوسيا . فيالها من أسابيع مروعة ! .. ففى احدى الغرف ، ترى الأم تحاول أن تخمد نوبات السعال .. وفى غرفة أخرى ترى الفتاتين تتأوهان ، وتنتفضان من رعشة الحمى ..

وفى ذات أربعاء ، جاء الأستاذ فاستدعى أولاده جوزيف ، وهيلا ، ومانيا ، ليودعوا أختهم الكبرى ، زوسيا ، التى كانت مسجاة على فراش الموت ، فى كفنها الأبيض الناصع ، آية فى الجمال ، رغم شعرها المحلوق ، وقد شبكت ذراعيها على صدرها ، وأضاءت وجهها

الشاحب ابتسامة أخيرة .

وكان ذلك أول لقاء بين مانيا وبين الموت .. وكانت تلك أول جنازة تشيعها فى معطفها القصير الأسود .. حين كانت برونيا ، الناقهة ، تزفر على سريرها .. وكانت الأم اضعف من أن تخرج ، فظلت تتحامل من نافذة الى نافذة ، تتبع بعينها ، نعش بنتها ، وهو ينزل الهوينا فى شارع الكرمليت ...

رفع خدم البنسيون المائدة ، وأضاءوا مصباح الغاز ، فقد دقت ساعة المذاكرة ، وتجمع الطلبة النزلاء فى الغرف التى يسكنونها ، كل اثنين او ثلاثة منهم معا ، وظل أولاد الأستاذ وبناته فى قاعة الطعام ، التى تحول مساء الى قاعة للدرس .. وفتحوا كراساتهم وكتبهم ، وارتفع دوى الاستذكار من أنحاء البيت ، ذلك الدوى الذى سيلازمه سنين طويلة .. فهذا يستذكر اللاتينية بصوت عال ، وآخر يستذكر التاريخ والأيام ، وغيره يحار ويضج ويشكو من نظريات تسهل عليه بلغته البولونية، وتستحيل عليه بالروسية .. والأستاذ بين هؤلاء وهؤلاء يساعد ، ويشجع ويستمع ، ويعتب ..

أما مانيا الصغيرة فلم تكن تعرف هذا القلق .. كانت ذاكرتها من القوة بحيث لو قرأت امام اترابها قصيدة مرتين لرددتها من فورها عن ظهر قلب ، ثم لاتهموها بأنها تحفظ الشعر فى السر ! .. وكانت تتم واجباتها قبلهم ، ثم تساعد ، بطبيعتها الخيرة ، على انقاذ رفقائها من ورطتهم ..

بيد أن ما كانت تؤثره هو أن تجلس ، كما كانت فى ذلك المساء ، ومعها كتابها ، الى المنضدة الكبيرة ، معتمدة على مرفقيها ، ويداها على جبينها ، وقد سدت أذنيها ، لتحمي نفسها من صوت أختها هيلا ، التى كانت

لا تستطيع ان تردد درسا الا بصوت يخرج من يافوخها !
ولا تلبث المطالعة ان تستغرق مانيا ، فتعزلها عن كل ما يجرى حولها .

ولا تستطيع برونيا ، وهيلا ، متواطئتين مع جميع التلاميذ النزلاء عندهم ، أن يخرجوا مانيا من تفكيرها ، او يلفتوا نظرها بصياح أو ضجيج أو ضحك او عويل ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ..

وهم اليوم .. وقد ضاقوا بهذا التفانى منها فى الدرس ، وهذا الاستغراق فى التأمل ، وهذا الحصر العجيب للفكر ، قد ابتدعوا قلعة حول مانيا من كراسى البيت ، وضعوها واقاموها ، ورفعوها فوق رأسها .. ثم انسحبوا فى سكون ، وتظاهروا بالعمل ، وانتظروا ..

وانتظروا طويلا .. ان البنت لم تلحظ شيئا !! ..
لا الهمس ، ولا الوسوسة ، ولا الضحكات المكتومة ، ولا ظل الكراسى الملقى على شعرها .. وظلت هكذا نصف ساعة ، مهددة بهذا الهرم الخشبى المزعزع .. ولما انهت الفصل ، طوت كتابها ، ورفعت رأسها .. فانهارت تلك القلعة ، من حولها .. فضجت هيلا ضاحكة ، وهربت برونيا وبنت عمتهم هنريتا ، التى كانت حاضرة ، خشية ان تثور مانيا .

ولكن مانيا ظلت ثابتة ، غير مكترثة .. فهى لا تعرف كيف تغضب ، وهى لا تعرف كذلك كيف تمزح مثل هذا المزاح المخيف .. وعبرت عيناها ، الرماديتان ، عن دهشة من كان مستغرقا فى نومه ، فأوقظ فجأة من حلمه ، ودعكت كتفها من اثر كرسى أصابها ، وحملت كتابها الى غرفة مجاورة .. ولما مرت أمام « الكبيرات » لم تفه بغير كلمتين : « هذه سخافة ! .. »

وكان هذا الهدوء الحاسم الذى لا يعجب « الكبيرات »

هو الذى يحميها ، فتقرأ كل ما يقع لها من كتب مدرسية، وادبية ، ودواوين شعر ، ومغـــامرات ، وقصص ، ومؤلفات فنية ، فى مكتبة أبيها .. وهكذا تبعد عن نفسها، لساعات قصيرة ، الأشباح الكئيبة .. تنسى جواسيس الروس ، وزيارات المفتش هورنبرج ، وتنسى وجه أبيها الذى أضنته حاجات العيش والعوز .. وتنسى الضجيج المتوالى فى البيت ، والنهوض فى الفجر المظلم عندما تكون نصف نائمة ، فترتب سريرها ، وتعكف على درســـها ، قبل أن ينهض النزلاء ويتناولوا فطورهم فى قاعة الطعام ، التى هى أيضا قاعة المذاكرة ..

تنسى ضروب الارهاب ، ارهاب الذين يحتلون بلادها ، والاضطهاد الدينى ، وارهاب المرض والموت .. كانت مندفعة بغريزتها الى النجاة من جو مؤلم مرهق .

غير أنها ، مهما هربت ، لا تلبث الحقيقة أن تعود الى ضميرها ، فيشتد قلقها على أمها .. فهذه المريضة التى كانت يوما جميلة جدا ، لم تعد اليوم الا ظلا .. ومع كل ما تسمع من أقوال مطمئنة عن صـــحتها ، فهى تعرف تماما ، على رغم اعجابها وانجذابها اليها ، وعلى حبهـــا العظيم ، وحرارة صلاتها ، أن ليس هـــذا كله بالذى سيحول دون وقوع الأمر المروع الذى لابد من وقوعه ..

وكذلك كانت الأم ، من جانبها ، تفكر فى القدر المحتوم .. وهى تريد أن يلقاها مصيرها مستعدة ، فلا يقلب كيان البيت .

وفى ٩ مايو ١٨٧٨ ، خضع لهـــا الطبيب ، وأفســح للقسيس مكانه .. وسيعرف القسيس وحـــده ما كان يدور بنفس هذه المسيحية المتدينة من اسى ، لتركهـــا عبء أربعة أولاد ، الى زوج عزيز عليها ، ومن عـــذاب لتفكيرها فى مستقبل هؤلاء الأحداث الأعزة الذين تتخلى

عنهم ، وصغيرتها مانيا التى ليس لها من العمر الا عشر سنوات .

وتجلدت أمام آلها .. وزادتها الساعات الاخيرة نورا .. وماتت كما تمنت أن تموت ، دون غيبوبة ولا عذاب احتضار .. وجاء زوجها ، وولدها ، وبناتها ، ووقفوا ساكنين حول فراشها ، فى الغرفة الناصعة .. وعيناها الرماديتان ، تتنقلان فى حنان ، وقد كادت تطفئهما المنون، بين تلك الوجوه الخمسة الكاسفة ، كما لو كانت المحتضرة تريد أن تسألهم صفحا وغفرانا ، لانها كانت السبب فى ذلك الحزن الشديد .

ثم وجدت من القوة ماودعت به كل واحد منهم .. ثم أخذ الضعف يغشاها شيئا فشيئا .. ولم تعد شرارة الحياة التى تتنقل فيها لتسمح لها بأكثر من كلمة أو اشارة ..

وكانت الاشارة علامة الصليب ، التى ارتعشت بها يدها وهى ترسمها لتبارك بها آلها .. وكانت الكلمة الاخيرة ، همسة خافتة ، وهى تتأمل رجلها وأولادها ، مستأذنة فى الرحيل : « أحبكم .. »

وهاهى ذى مانيا قد عادت الى لبس السواد ، تهيم بائسة ، فى شقة شارع الكرمليت ، لا تكاد تتعود الحرمان من الامومة ، ولا تكاد تسيغ أن يحل الرجل محل المرأة ، او الوالد محل الوالدة ...

لقد عرفت مانيا من ساعة مبكرة أن الحياة قاسية .. قاسية على الشعوب ، وقاسية على الافراد .

لقد ماتت أختها زوسيا ، وماتت أمها .. وحرمت حنان امها ، ورعاية أختها الكبرى ، وشبت فى نحو من الاهمال ، ولم تكن تشكو قط ..

وليست أنفتها استسلاما أو خضوعا .. فقد أحست

وهى تجثو فى الكنيسة الكاثوليكية التى كانت أمها تصحبها اليها ، أحست الان بالتمرد الاصم .. وكادت لاتدعو الله بحرارة الحب الاولى ، لان الله قد أنزل عليها ضربات مهولة ، بعضها فوق بعض ، جردتها مما كان حولها من المرح واللهو والحنان .

مراهقة

فى حياة كل أسرة لحظات ازدهار .. فان أسبابا خفية تهىء لذرية ما ، تفوقا وبروزا على الذريات التى سبقتها ، والتى لحقتها ، بالمواهب والصفات .. وتفدق عليها فيضا رائعا من الحيوية ، والجمال ، والتوفيق .

وقد جاءت لحظة من هذه اللحظات لاسرةسكلودوفسكى على الرغم من الضربة التى دفعتها وقتئذ للشفاء .. وكأن الموت قد اختار زوسيا من بين الاولاد الخمسة ،الموفورى الذكاء والغيرة ، فداء لهم .. ولكن الباقين ، الاربعة ، المراهقين ، المولودين من امرأة مصدورة ورجل اضـــناه الدرس والكد ، كانوا يحملون فى أنفسهم قوة لاتقاوم .. وسيفوزون على الضراء ،ويذللون كل العقبات ، ويصبح اربعتهم ، جميعا ، مخلوقات ممتازة .

لله ما اجملهم ، فى ذلك الصباح المشرق من ربيع ١٨٨٢، وقد تجمعوا حول مائدة الفطور !.. هذه هيلا فى السادسة عشرة ، طويلة ، رشيقة ، وهى « فتاة البيت الجميلة » غير منازعة .. وهذه برونيا نضرة المحيا ، بلون الزهر ، وشعر من ذهب .. وهذا جوزيف أكبرهم سنا ، فى سترة الطلبة ، كأنه من رياضى الشمال ..

واما مانيا .. ففى صحة جيدة كذلك !.. ولنسلم بأنها زادت وزنا ، وأن ثوبها المحبوك عليها لايدل على قـــوام

نحيل .. ولانها كانت الصغرى « فى الرابعة عشرة » كانت تبدو دون أخواتها جمالا ، ولكن كان لها مالهن من وجه يترقرق حياة ولطفا ، مما خص به الله بنات بولونيا .

ولم تعد برونيا طالبة ، بل « آنسة » .. فقد تخرجت العام الماضي بعد مافازت بالمدالية الذهبية ، وانقطعت لخدمة البيت ، تمسك الحساب وتشرف على نزلاء البنسيون ، أولئك النزلاء الدائمين ، وان تغيرت وجوههم وأسماؤهم .. ونال جوزيف ،مثل اخته برونيا ، المدالية الذهبية ، عندما غادر المدرسة الثانوية ليلتحق بكليةالطب .. وأخواته يعجبن به ويغبطنه ، فان المطامح الذهنية تتنازع بنات سكلودوفسكى الثلاث ، وهن يلعن لائحة جامعة فارسوفيا التى لاتسمح بقبول الفتيات .

غير أن الحديث لم يكن يحول دون التهامهم الخبز والزبد والقشدة والمربى التى تختفى وكأن اختفاءها كان بسحر ساحر ! ثم يهرعون الى معاهدهم .

ولم يكن شباب مارياسكلودوفسكى مفتونا الا بثلاث كلمات : « مدارس .. معاهد .. مذاكرة » .. ولم يكن البيت نفسه عندها الا مدرسة ! .. فلعل مانيا كانت تتخيل الكون مدرسة هائلة ليس فيها الا أساتذة وطلاب ، وليس فيها الا مثل أعلى واحد : « التعليم » ! ..

وقد خفت بلوى نزلاء البنسيون منذ غادرت الاسرة مسكن شارع الكرمليت الكئيب ، وانتقلت الى شارع « لسكنو » فى شقة واسعة اختصت نفسها فيها بأربع غرف .

وعطفت مانيا على « القصر الازرق » ، لتأخذ رفيقتها وصديقتها « كازيا » كريمة أمين مكتبة الكونت زاموفسكى .. والتفت ذراعاهما ، وبدأتا ترويان لبعضهما مئات الاشياء التى مرت بهما منذ قصر الامس !.. ولم

يكن الفرق بينهما يخفى .. فما أرشق كازيا في هندامها الانيق ، وشعرها الذى يسرح كل صباح ، ويعقد بشرائط من حرير ، بجانب مانيا اليتيمة ، التى تشب فى بيت ليس عند أحد فيه من الوقت مايقفه على العناية بها ...

وكان فصل مانيا يغص بالبولونيات ، واليهـــوديات ، والروسيات ، والالمانيات ، لا يفرق بينهن اختلاف جدى . فان شبابهن المشترك ، والتنافس الدراسى المثير ، كلاهما كان كفيلا بأن يمحو مؤقتا اختلاف الاجناس والافكار .. ومن يراهن يتعاون فى العمل ، ويلعبن معا خلال الفسحة ، يكاد يخيل اليه أن بينهن وفاقا تاما .

ولكنهن لا يكدن يخرجن من المدرسة ، حتى تسترد كل واحدة منهن لغتها ، وقوميتها ، ودينها .. وكانت البولونيات من بينهن ، أشدهن أنفة وترفعا ، لانهن أشدهن تعرضا للاضطهاد ، فكن يسرن فى جماعات ، متساندات ، ليلتقين بعد ذلك على موائد الشاى ، التى لا تباح دعوة فتاة روسية أو المانية اليها .

وحدث عن تحرج أولئك الفتيات البولونيات اللــواتى يؤاخذن انفسهن ، اذا شعرن بالصداقة نحو أجنبية عنهن ، او احسسن نشوة العلم أو الحكمة ، وهن يصغين الى اصوات الذين يحتلون بلادهن !.

قالت مانيا تخاطب كازيا ، وهما فى طريق العودة :

ـ أنهن سيرقصن عندنا هذا المســـاء ، فهل تجيئين لتتفرجى ؟

ـ أجل ! .. آه .. متى يامانيا يكون لنا نحن أيضــا الحق فى الرقص ؟!.. انى أموت شوقا الى الفالس !..

متى ؟. عندما يتركن المدرسة ، و « يدخلن الدنيا » ... وليس لهن الان من حق الا أن يتمرن على الرقص فيما بينهن ، على يد معلم المدرسة .. وأن يشهدن الحفلة

الراقصة التى تقام كل اسبوع فى دار سكلودوفسكى ، وتجمع شباب بعض العائلات الصديقة ..

ولابد من شهور أخرى قبل أن يجيء دورهما ، ويدعوهما الفتيان .. كان ذلك فى حفلة راقصة كبرى أقامتهاالكونتس فلورى ، السيدة البولونية المتزوجة بفرنسى ..

وخفت مانيا وهيلا تهيئان ثيابهما لهذه السهرة الفريدة

ما أصعب أن تكون المرأة جذابة ، عندما تكون فقيرة !.. وعندما تستأجر خياطة تافهة ، باليومية ، لتفصل ثوبين فى السنة ، واحدا لسهر الليل ، واخر لكدح النهار .. وضربت الاختان أخماسا لاسداس وحسبتا ثروتهما ، واتخذتا قرارا : لابد من نزع الدنتلة القديمة عن ثوب مانيا « الستان » الازرق ، وابدالها بدنتلة جديدة ، تنعشه وتحييه .. ثم يضاف شريط هنا ، وعقدة هناك ، وتقطف من الحديقة زهور للصدر وزهور للشعر !

وجاءت الليلة الموعودة .. وعزف الموسيقيون الحانا شجية ، ودارت هيلا ، مدهشة الحسن ، فى الجو الراقص الحار كحلم من الاحلام .. ونظرت مانيا نظرة أخيرة الى المرآة .. حقا ، ان كل شيء على مايرام .. فقد زادت الزهور الناضرة ، المحيا الناضر ، ضياء وسحرا

وهذا حذاء جديد .. حذاء سترميه مانيا عند الفجر ، فى ركن من البيت ، لانها رقصت ، ثم رقصت ، وظلت ترقص حتى بلى نعله !..

وبعد سنين عدة ، كانت امى ترضى أحيانا أن تروى لى بصوت حنون ، حكاية تلك الايام السعيدة .. فانظر الى وجهها الذابل ، الذى نال منه نصف قرن من الشواغل المرهقة والاعمال المجيدة .. ثم اشكر القدر الذى أتاح لها، قبل أن يملى عليها أحكامه الصارمة ويوليها مهمتها المضنية السامية ، ان تبلى حذاءها فى ليلة ، واحدة ، راقصة !..

مواهب

لقد حاولت أن أصور مانيا سكلودوفسكى ، طفلة ومراهقة ، فى دراستها وفى لعبها .. فهى سليمة البنية ، مستقيمة السيرة ، حساسة ، مرحة .. وان لها لقلبا يحب .. وهى ، كما يقول أساتذتها : « موهوبة للغاية » .. وهى تلميذة نجيبة .. ولكنها مع ذلك لم تبذ الاطفال الذين شبوا معها بمواهب خارقة .. لا شىء بعد يدل على عبقريتها ..

وهاهى ذى صورة أخرى .. صورة الفتاة .. وهى أشد وقارا : ففى حياة مانيا وجوه محبوبة قد اختفت وامحت ، ولم يبق منها الا ذكرى حنون حتى اليوم الاخير .. وكذلك الصداقات تتحول قليلا قليلا .. فالبنسيون ، والمدرسة، لم يعد لهما وجود ، وصلات الزمالة ، التى مهما بدت قوية فى الظاهر ، سرعان ماتنحل ، مادامت لم تدعمها الالفة اليومية « وقد تركز مصير مانيا بين مخلوقين ممتلئين طيبة ، وادراكا ، وشرفا .. وكانا أقرب المقربين اليها ، وهما : أبوها واختها برونيا .

ولو أننا راجعنا آمال مانيا ـ مارى كورى فيما بعد ـ لوجدناها ابسط الآمال ، واشد الاحلام تواضعا !

وكان أبوها لايكاد يوازن ميزانيته الا بالجهد الجهيد .. وكان مع ذلك لا ينقطع عن القراءة والاطلاع ، الى حد انه كان يعرف اليونانية واللاتينية والبولونية والروسية ،

ويتكلم الفرنسية والانجليزية والالمانية ، ويعرف آخر مستحدثات المعرفة فى الكيمياء والطبيعة .

وكان المسيو سكلودوفسكى يقضى مساء الاحد مع ولده وبناته الثلاث ، فى سهرة مخصصة للادب .. فيتناقشون حول ابريق الشاى « السيمافور » الذى يتصاعد منه البخار .. ويطالع لهم الرجل الشيخ من النثر ومن الشعر ويستمع اليه أولاده مأخوذين ..

وكان هذا الارمل المسكين يندب ، أحيانا ، ماهم فيه من ضيق ، ويندم على ماكان من أمر تلك المضاربة التى اضاع فيها ماجمع :

ـ كيف خسرت هذا المال !.. أنا الذى كنت أمنى النفس بتعليمكم أرقى التعليم ، وارسالكم الى الخارج لاتمام دراساتكم فى الجامعات الاجنبية ؟.. فهأنذا اليوم أرانى ملوما محسورا ، مقترا على نفسى وعليكم فى الرزق، لا أجد الى معونتكم سبيلا ، ولن ألبث أن أصير عالة عليكم .. فماذا يكون حالكم ؟

ويتنهد الاستاذ قلقا .. ويتلقى ، شارد الذهن ، احتجاجاتهم المرحة التى يطمئنونه بها ويسرون عنه مابه، وهم مجتمعون حول مصباح الغاز ، فى المكتب الصغير ، الذى تزينه اصص من النبات .. أربعة رؤوس عنيدة ، ذات ابتسامات تنم عن الشجاعة .. وفى كل تلك العيون اللامعة ، التى تتموج الوانها من الزرقة الى لون الرماد ، كانت تبدو الحماسة نفسها ، والامل نفسه :

ـ نحن شباب ، ونحن اقوياء

ولا عجب اذا كان المسيو سكلودوفسكى يشعربالارتياع على مستقبل أولاده الناجحين .. فان مرتبه سيتحول هذه السنة الى معاش ضئيل ، لايكاد يكفى أجرة البيت وتكاليف الطعام والخادم .. فلابد اذن ، منذ الان ، من

أن يحاول جوزيف وبرونيا وهيلا ومانيا أن يكسبوا عيشهم

وان أول ماخطر لابناء هذا المربى بالطبع أن يعطـــوا دروسا .. فأعلنوا فى الصحف :

« طالب طب يعطى دروسا خصوصية » . « دروس حساب ، وجبر ، ولغة فرنسية ، تعطيها آنسة حـائزة لدبلوم ، بأسعار زهيدة » ..

صنعة جاحدة ! .. فقد عرفت مانيا فى منتصف عامها السابع عشر معنى التعب والذل اللذين يصيبان المعلمة .. فهنالك السير الطويل فى شوارع المدينة ، تحت المطـــر المنهمر ، وفى البرد القارس .. والتلاميذ المدللون الكسالى وآباء التلاميذ الذين يتركون المعلمة تنتظر الى مالانهاية ، أو الذين ينسون اخر الشهر ، ويسهون عن دفع بضعة الروبلات التى هم بها مدينون ، والتى تنتظرها المعلمـــة بفارغ الصبر ، وقد حسبت لقبضها فى ذلك الصباح نفسه الف حساب !..

وتقدم الشتاء ، وجرت الايام فى شقة شارع نوفولبيكى ، بعضها فى أعقاب بعض ، تافهة ، متشابهة ...

وكتبت مانيا :

« لا شيء فى البيت جديد .. النبات مزدهر .. والكلب « لانسيه » نائم على السجادة .. و « جوســـيا » ــ الخياطة العاملة باليومية ــ تحول ثوبى ، الذى سأصبغه .. سيكون ولا بأس به ، بل سيكون جميلا جدا !.. فان ثوب برونيا الذى تم تحويله هكذا قد جاء بديعا !.. ولم أكتب لاحد ، فان وقتى ضيق جدا ، ونقودى أقـــل من وقتى .. وقد جاءت سيدة من معارفنا تســـأل عن الدروس ، فأخبرتها برونيا أن الســـاعة بنصـــف روبل « ربع ريال » ، فولت الادبار ، وكأننا قد أشـــعلنا فيها النار ! .. »

افليست مانيا اذن الا آنسة بلا مهر ، عاملة ، عاقلة ، كل همها أن تزيد دروسها ؟.. كلا !.. فان الحاجة قد اضطرتها الى قبول حياة الدروس الخصوصية الشاقة ، ولكن لها حياة أخرى ، شائقة ، خفيـــة .. وهي ككل بولونية فى ذلك الوسط ، وفى ذلك الزمن ، تجتذبها الاحلام

ان للشبان حلما مشتركا : هو الحلم الوطنى .. فارادة خدمة بولونيا وانقاذ بلادهم المضطهدة ، هى عندهم قبـل طموحهم الشخصى ، فوق الزواج والحب .

ومع أن مانيا كانت تعد بين صديقاتها من الوطنيـات الثوريات ، وقد تهورت باعارة جواز سفرها لاحداهن ، فهى لم تكن تميل الى الاشتراك فى حوادث الاعتداء ، والقاء القنابل على مركبة القيصر ، أو عربة محافظ المدينة .. كانت ترى شيئا واحدا له قدره : العمل ، ومواصـــلة العمل ، لتكون لبولونيا العظيمة راس مال ثقافى ، وتقدم تعليم الشعب ، الذى تحاول سلطات الاحتلال قصـدا بقاءه فى غياهب الظلمات ..

غير أن تيار الافكار لا يمكن أن يسرى ويقوى وينتشر الا فى البلاد الحرة ، فى وضح النهار .. ولم يكن لبولونيا من ذلك شىء .. فاكتفت مانيا مع رفيقاتها بأدوار فى تلك الجامعة المتنقلة لاتمام دروس المراهقين ، ولاعطاء دروس لنساء الشعب من العاملات .

فلم تكن مانيا تعمل لنفسها بقدر ما كانت تعمل لوطنها، ما أكثر ماتحملت سنوها السبع عشرة من أعباء وأرزاء!. فهى تريد ان تتثقف ، وأن تعيش ، وأن تثقف ، لتجمل حياة الجماهير !.. نفس كريمة ، هى فى صريح الوصف ، نفس اشتراكية .. بيد أنها على هذا لاتنتسب الى حزب الطلبة الاشتراكيين فى فارسوفيا .. فقد كانت حـرية حكمها تجعلها تخشى روح الحزبية ، وكانت محبتهـا

لبولونيا تجعلها فى مأمن بعيد من الماركسية ، والدولية الشيوعية .. كانت تريد قبل كل شيء ، وفوق كل شيء ان تخدم بلادها .

ولم تكن تعلم بعد ، أنه ، بين هذه الاحلام ، لا مندوحة لها عن الاختيار .. كانت تخلط ، فى حماسة واحدة ، شعورها القومى ، وأفكارها الانسانية ، وأمانيها الفكرية

وما اعجب أن تظل ، بين هذه المبادىء والنزعات والاضطرابات ، فاتنة .. فالتربية الصارمة الراقية التى تلقتها ، والمثل الطيب الذى رأته فى الناس الذين سهروا على صباها وشبابها ، كلاهما قد حماها من الاندفاع .. ففى طبيعتها تلك الكرامة الابية ، وتلك الدماثة التى تصحب دائما حماستها ، وعاطفتها .. فلم تمر فى حياتها لحظة نراها فيها تمثل الثائرة ، أو تقوم بدور المتمردة .. ان مانيا المتحررة لن تنطق أبدا بكلمة نابية .. انها لن يخطر لها أبدا أن تشعل سيجارة .

ان الاختين المثاليتين ، برونيا ومانيا ، تقضيان الساعات والساعات معا ، تحاولان رسم خطة للمستقبل ، فى بلد مغلقة فيه أبواب الجامعة فى وجوه النساء .. وليست الدروس الخصوصية ، وساعتها بنصف روبل ، بالتى تكون لهما ثراء عاجلا !

ومانيا الكريمة آسفة .. فهذه الصبية ، صغرى العائلة ، تحس أنها مسئولة عن مستقبل الذين يكبرونها . اما جوزيف وهيلا فلم يعودا لحسن الطالع مصدر قلق لها .. فان الشاب لايلبث أن يتخرج طبيبا ، وهيلا الجميلة الصافية التى تتردد بين حرفة التعليم وصناعة الغناء ، تغنى بملء حنجرتها وتحصل على دبلومات ، فى الوقت الذى ترفض فيه طلبات الزواج !...

أما برونيا !.. كيف يمكن أن تساعد برونيا ؟.. فهى

منذ غادرت المدرسة قد سقطت على كاهلها مشاغل البيت تشترى المؤن ، وترتب ألوان الطعام ، وتراقب صنع المربى .. فأصبحت ربة بيت ممتازة .. وهى حزينة من انها ربة بيت فحسب .. ومانيا تعرف عذاب أختها التى تنحصر امنيتها الكبرى فى السفر الى باريس لتدرس الطب ثم لتعود الى بولونيا لتزاول المهنة فى الريف .. وقد ادخرت المسكينة كنزا لهذه الحرب .. ولكن المقام فى الخارج كثير النفقة .. فكم من الشهور ، وكم من السنين لابد لها من الانتظار ؟!..

ومانيا تنسى ذات مطمعها لتفكر فى شقيقتها . انها تنسى .. وهى المفتونة أيضا بأرض الموعد ، قد طال تحنانها الى قطع الوف الكيلومترات التى تفرقها عن « السوربون » ، لتروى من معينه غليلها .. ثم تحمل بضاعتها الغالية من المعرفة ، لتصبح المعلمة المتواضعة فى فارسوفيا ، بين أبناء وطنها الاعزاء .

وكان التفاهم بين الاختين الكبرى والصغرى على أتمه .. اختارت كلتاهما الاخرى وآثرتها . فيوما ، اذ كانت برونيا على عادتها تسود أرقاما ، وتحسب ، للمرة الالف ، حساب مالديها من نقود ، أو بالاحرى حساب ماليس لديها هاجمتها مانيا بقولها :

ــ اننى فكرت طويلا منذ حين ، وخاطبت فى الامر أبى ، وأظن اننى وجدت وسيلة ..

ــ وسيلة ؟!..

واقتربت مانيا من أختها ، اذ كان ماتعرضه ، وتريد من أختها قبوله ، دقيقا يتطلب وزن الكلمات بفطنة :

ــ اليك .. كم من الاشهر يكفيك ماادخرته للعيش فى باريس ؟..

ــ خمس سنين ..

ـ نعم يابرونيا .. ولكننا باعطاء دروس بخمسة قروش لن نجد أبدا لنا مخرجا .

ـ وماذا اذن ؟.

ـ نستطيع أن نتحالف ، فلو ظلت كل واحدة منـا تناضل لحسابها فلن نفلح ولن نوفق للرحيل .. فى حين اننا اذا طبقنا طريقتى استطعت ان تسافرى فى الخريف ، بعد بضعة اشهر .

ـ مانيا !.. انت مجنونة !

ـ كلا .. فأنت ستبدأين بانفاق نقودك .. ثم اتولى انا بعد ذلك الارسال ، وكذلك أبى . وفى الوقت نفسه اجمع مايكفى لدراستى المقبلة .. وبعد أن تصيرى طبيبة أسافر بدورى ، وعندئذ تبدأ مساعدتك لى ..

فاغرورقت عينا برونيا بالدموع .. فقد شعرت بعظمة ماتعرضه عليها أختها الصغرى . ولكن فى البرنامج نقطة ظلت غامضة .. فتساءلت :

ـ كيف ؟.. انك لاتطمعين فى كسب مبالغ كافية لعيشك ولجانب من عيشى ، افبعد ذلك ايضا توفرين ؟!

ـ نعم !.. اشتغل مربية فى احدى الاسر . أعيش عندها ، وآخذ اربعمائة روبل فى السنة ، وربما كان أكثر من ذلك .. وهذا يكفى لتيسير أمرنا .

ـ مانيا .. ياصغيرتى مانيا !..

ولم يكن ما أثر فى برونيا اختيار أختها مهنة التابعة ، انها « مثالية » كأختها ، تحتقر الاحكام الاجتماعيةالمبتسرة .. كلا ، بل ان ما أثر فيها هو الفكرة التى تمكنها من بدء دراستها فى الحال ، فى حين تحكم مانيا على نفسها بالعمل المضنى ، والانتظار الاليم .. فتحاول ان تعارض :

ـ ولماذا أسافر انا أولا ؟ .. انك موهوبة أكثر منى .. وسيكون نجاحك سريعا جدا .

ـ لا تكونى حمقاء يابرونيا !.. لانك فى العشرين ، وانا فى السابعة عشرة ، فأمامى المجال فسيح .. وهذا أيضا راى أبينا .. ومن الطبيعى أن تتقدم الكبرى . وعندما يصبح لك أيتها الطبيبة زبائن تغرقيننى بالذهب .. وهذا رجائى ! .. وبذلك نؤدى شيئا عمليا ذكيا .

وفى ذات صباح من شهر سبتمبر ١٨٨٥ ، كانت فتاة صامتة تنتظر دورها فى مدخل مكتب تخديم ، وقد لبست من الثوبين اللذين تملكهما أشدهما تقشفا ، وتحت قبعتها البالية دبابيس تمسك خصل شعرها الذهبى ، فلا يجوز لمربية أن تدع شعرها يبدو ، بل ينبغى ان تكون المربيــة مؤدبة ، بسيطة ، شبيهة بكل الناس !

وفتح الباب ، ودعيت مانيا .. فأصابها الخجل .. ودعكت فى يدها حزمة ضئيلة من الاوراق والخطابات ، وكانت امراة ضخمة جالسة وراء المكتب الصغير :

ـ ماذا تريدين أيتها الانسة ؟

ـ أطلب وظيفة مربية .

ـ وهل لديك شهادات ؟

ـ نعم . فقد اعطيت دروسا .. وهذه شــهادات آباء التلاميذ ، وهذه دبلومى .

فنظرت مديرة مكتب التخديم ، بعين فاحصة خبيرة ، فى وثائق مانيا .. وبدا عليها الاهتمام بها .. وسالتها :

ـ اتعرفين حق المعرفة الالمانية والروسية والفرنسـية والبولونية والانجليزية ؟.

ـ أجل ياسيدتى .. ومعرفتى بالانجليزية اقــــل .. ولكننى أستطيع تدريس مواد البرامج الرسمية .. وقد تخرجت فى المدرسة الثانوية بالمدالية الذهبية ..

ـ آه !.. وما طلباتك ؟

ـ اربعمائة روبل فى السنة ، والتكفل بى .

ـ ومن هم أهلك ؟

ـ أبى أستاذ فى المدارس التجهيزية .

ـ حسنا .. ربما وجدت لك عملا .. ولكن كم عمرك ؟

ـ سبع عشرة .. ثمانى عشرة عما قريب !..

فكتبت السيدة ، بلغة انجليزية سليمة ، بطاقة المرشحة:

« مارى سكلودوفسكى . شهادات طيبة . طلباتها : مربية . مرتب : أربعمائة روبل فى السنة »

وردت الى مانيا أوراقها :

ـ شكرا أيتها الآنسة .. سأكتب اليك عند اللزوم .

مربية

دخلت مانيا سجن الحياة ، وبدأت معرفتها بالناس ، فنزلت مربية عند أسرة محام :

« اننى لا أتمنى لالد أعدائى أن يعيش فى مثل هـذا الجحيم ! انه بيت من بيوت أولئك الاغنياء حيث يتكلمون الفرنسية الركيكة حينما يكون عندهم ضيوف !.. وحيث لا يدفعون المطلوب منهم مدى ستة أشهر ، وبينما هم يلقون بالنقود من النافذة ، اذ يقترون أشد التقتير فى غاز الاستصباح !.. ولديهم خمسة من الخدم !. « فخفخة » كاذبة ، هى نتيجة غباوة كثيفة .. وحيث يدور حديثهم على الخوض فى الاعراض بغير حساب .. لقد بدات أعرف الجنس البشرى أحسن من ذى قبل ، وتعلمت أن الاشخاص الذين تصفهم القصص والروايات كائنون فعلا . وأنه يحسن البعد عن الذين أبطرهم الغنى ، وأفسدهم الثراء ... »

ان هذه اللوحة التى لارحمة فيها ، تصورها لنا مخلوقة رقيقة لاتعرف الشر .. ولكنها تدل على مبلغ مافى مانيا من السذاجة ، وعلى حظها من الاوهام .. فقد توهمت ، اذ اشتغلت عند أسرة بولونية ميسورة الحال ، أن ستجد فيهم آباء كراما ، وابناء لطافا .. وكانت على استعداد لان تتعلق وتحب ، فكانت الخيبة مرة .. ولم تطق صبرا

على البقاء فى ذلك الوسط : الوجيه مظهـــره ، الدنىء مخبره ، اذ لم يسبق لها عهد بنفوس وضيعة ، مادية .. نفوس مجردة من معانى الشرف .

كانت تعيش من قبل فى وسط تقى نقى .. كانت محوطة بمخلوقات متحابة ، تتزاحم على العلم ، وتتنـافس فى الفضيلة .. كانت تعيش فى جو متحمس للعمل والدرس والطموح ، فلذلك لم تبد فيه مواهب مانيا ؛ « ماري كوري » فيما بعد ، كما بدا قدرها ، وقدر اخوتها ، رائعـا بعد ان تحولت الى جو موبوء لم تكن تتخيل له وجودا . قارنت اهلا بأهل ، واخوة باخوة ، وأبناء بأبناء .. وهاهى الفتاة التى لم يحبها الزمان بأرومة عالية الحسب والنسب ، أو ثروة طائلة ، قد صارت أشد ما تكون زهـــوا وكبرياء بمولدها المتواضع ، وبالتربية التى لقيتها .

ولم تخرج مانيا من تجربتها ألاولى ، وهى « مربية » ، بهذه الاحكام القاسية على « الناس الذين أفسدهم المال » وحسب .. بل ادركت أيضا أن الخطة التى سبق لهـا ان بسطتها لاختها برونيا ، تتطلب تعديلات جوهرية .

فقد قبلت العمل فى فارسوفيا على أمل أن تربح مبالغ كافية ، دون أن تحكم على نفسها بالنفى الاليم .. فكان بقاء المربية المبتدئة فى المدينة مخففا لعذابها ، اذ ستظل على مقربة من بيت اهلها ، فتستطيع أن تتحدث كل يوم الى ابيها لحظات .. فضلا عن متابعة التثقف والدرس ليلا .

ولكن التضحية تجر التضحية .. فهى لاتكسب القدر الكافى من النقود .. وهى ، خاصة ، تنفـــق الكثير . فمشترياتها اليومية الصغيرة لا تترك لها آخر الشــهر الا فضلات لا تذكر ، فى حين ينبغى عليها ان تستعد لمعـونة برونيا التى سافرت مع صديقتها ماريا راكوفسكا الى باريس ، وتعيش الان فى الحى اللاتينى عيشة املاق ..

وكذلك لن يلبث الوالد سكلودوفسكى ان يحال الى المعاش فيصبح فى حاجة ايضا الى العون .. فما العمل ؟..

انها لا تفكر طويلا ، بل تقبل ماسبق ان عرض عليها من مركز مربية فى اقليم بعيد .. تثب الى جوف المجهول .. ستكون سنوات فراق لأعزائها ، ووحدة مطلقة .. ليكن مايكون !.. فالمرتب حسن ، والنفقة معدومة .

وفى اول يناير ١٨٨٦ استقلت القاطرة فى يوم برد قارس .. وهو يوم من أشد ايام مانيا ايلاما .. لقد اقدمت وودعت والدها بابتسامة .. وحملها القطار سريعا ... فأحست فجأة بوطأة الوحشة . وحدها ! .. انها وحدها لاول مرة فى حياتها .. جزعت تلك الصبية التى كانت فى الثامنة عشرة ، وراحت ترتعش من الخجل ، ومن التهيب ، وهى فى طريقها الى بيت أجنبى بعيد .. ترى ماذا يكون حالها اذا كان أصحاب البيت اللاحق كأصحاب البيت السابق ؟! ثم اذا ما أصيب أبوها بمرض فى غيابها ؟.. أتعود فتراه ؟!.. أو لم ترتكب حماقة ؟.. ان عشرة ، بل عشرين سؤالا ، تزاحمت وعذبت الفتاة الملتصقة بنافذة القطار تنظر ، فى المغيب ، الى مر السهول الشاسعة التى غطتها الثلوج من خلال دموعها المنهمرة ، وهى تكفكفها بيدها ، فتعود الدموع تنهمر .

ثلاث ساعات فى سكة الحديد .. ثم أربع ساعات فى العربة الزاحفة على الجليد ، فى جلال الصمت ، فى ذات مساء ، فى قلب الشتاء ...

كان السيد « ز » وزوجته وأسرته قوما كراما ، يديرون عزبة على نحو مائة كيلو متر من شمال فارسوفيا .. فلما وصلت مانيا ، قدموا اليها شايا ساخنا ، وآنسوا وحشتها بكلمات عذبة ، ودلتها سيدة البيت على غرفتها .. ولم تلبث ان تركتها وحدها مع حقائبها البائسة .

ومضى شهر وهى طيبة النفس بالمقام .. توثقت علاقة الود والتفاهم بينها وبين بنت البيت « برونكا » ... واخذت بالرفق أختها « أندسيا » وكانت فى العاشرة ، وكانت مطيعة ، وان كانت مدللة لا تعرف النظام ، ولاتخرج من فراشها الا بالقوة ، فتضنى مربيتها الرقيقة .

وكانت العزبة مائتى فدان تزرع « بنجرا » ، والىجانبها مصنع السكر .. فالاسرة غنية ، ولكنها ليست طائلة الغنى ، فان مائتى فدان ليست ضيعة تذكر بين هـــده الاقطاعيات الكبيرة . وليس بيتهم قصرا ، وان كان أجمل مما حوله ، تزينه حديقة تتحول فى الصيف جنة فيحاء .

ومرت الاسابيع ، ومرت الشهور .. وليست تربيـة الاطفال مهنة هينة ، ان لها ثمنها الفادح ، تنال من فؤادها

وهى فى هذا كله لا تنسى أبناء وطنها الذين من حولها ، تعرف لهم حقهم عليها فى التعليم . تريد أن تجدد جهـاد فارسوفيا ، تحيط تلميذتها برونكا برغبتها ، فتوافقهـا من فورها .. ولكن مانيا تنذرها وتحذرها : « فـكرى جيدا فى انهاذا كشف أمرنا كانمصيرنا النفى الىسيبيريا »

تحرم نفسها من الانتقال فى اجازة الصيف لتوفر بعض المال لنفسها ولاختها ، وتزيد فى جهدها لتعليم أبناء عمال مصنع السكر . لا يكفيها ماتجد من متاعب تربية ثلاثة أولاد ، فتتخذ عشرين ولدا فقيرا آخر تلاميذ لها .. وهم من حولها ، بنين وبنات ، لا يطيب لهم منظر ولا رائحة . ومع ذلك ، فحين يبداون فى فك الخط ، ويعرفون الالف من الياء ، يبهر آباءهم فوز أبنائهم المبين ، وكأن مانيا قد اكتشفت قارة جديدة من الخير والسعادة . فهاهى تفكر فى كل تلك القوى المهملة والمواهب الضائعة .. وتحس أنها ازاء هذا الاوقيانوس الهائل من الجهل ، اشـد ما تكون ضعفا ، واشد ماتكون عجزا !..

صبر جميل ..

هيهات ان يخطر ببال أولئك الفلاحين الصـــغار أن « مدموازيل ماريا » تفكر بأسى فى جهلهـــا .. وما كانوا ليتوهموا أن معلمتهم تحلم بأن تعود تلميذة ، وأنها تريد بدلا من أن تعلم ، أن تتعلم ! ..

هذا ، وفى اللحظة التى كانت فيها مانيا تتأمل من نافذتها العربات المحملة بالبنجر فى طريقها الى مصنع السكر ، كان هناك فى برلين ، وفيينا ، وبطرسبورج ، ولندن ، ألوف وألوف من الشبان يستمعون الى الدروس والمحاضرات ، ويشتغلون فى المعامل والمتاحف والمستشفيات ! وأذكر خاصة ، ان فى داخل « السوربون » الشهير يعلمون علم الحياة ، والرياضيات ، وعلم الاجتماع ، والكيميـــاء ، والطبيعة ! .

ان مانيا سكلودوفسكى تتمنى الذهاب للدرس فى فرنسا اكثر من اى بلد آخر ، فنفوذ فرنسا يبهر عقلها .. أما فى برلين وفى بطرسبوج فيسيطر الذين يضطهدون بولونيا ويحكمونها على رغمها .. وأما فى فرنسا فيعزون الحرية، ويحترمون كل المشاعر وكل المعتقدات ، ويرحبون بالتعساء والمضطهدين ، من اى مكان جاءوا .. أحقا ، أو فى الامكان، أن تأخذ مانيا القطار يوما ما الى باريس ؟.. وهل يتـــاح لها أو يباح كل هذا الهناء العظيم ؟

لقد اضاعت كل امل فى ذلك . والاثنا عشر شهرا الاولى ، التى قضتها فى حياة ريفية خاملة خانقة ، قد بددت خيالات فتاة : مهما تكن أهواؤها الفكرية وأحلامها، فهى ليست فريسة للاشباح والاوهام .

وعندما تحاول مانيا وضع الامور فى نصابها ، ترى أمامها مأزقا جليا ، ليس له فى الظاهر مخرج .. ففى فارسوفيا ، أبوها الذى لن يلبث أن يحتاج اليها .. وفى باريس ، برونيا التى لابد من معاونتها خلال سنوات وسنوات قبل أن تستطيع كسب مليم .. وهنا ، فى هذه العزبة النائية ، ماريا سكلودوفسكى ، مربية .. ومشروع جمعها راس مال ، وهو الذى بدا لها من قبل ممكنا ، هو الان يحملها على الابتسام .. فقد كانت خطة رسمتها طفلة وها هى فى صميم الريف البولونى ، ولا سبيل الى الفرار من مثل هذه الديار !

وجميل أن نرى أن هذه المخلوقة النابغة ليست فى عداد المعصومين ، فهى ، عوضا عن أن تحتفظ بثقة فوق الطاقة البشرية ، تتألم وتقنط كأى فتاة مثلها فى التاسعة عشرة . وجميل أيضا أن نراها تناقض نفسها . ففى اللحظة التى تدعى فيها نبذ كل شىء ، تناضل ببطولة ضارية ضد دفنها . انها يقينا الفطرة القوية التى تحملها على السهر كل مساء امام مكتبها ، تقرأ مجلدات فى الاجتماع والطبيعة استعارتها من مكتبة مصنع السكر ، وتزيد فى محصولها الرياضى بمكاتبات نشيطة مع أبيها .

انه لجهد جاهد ، وعبء باهظ لاندرى كيف لم ينقض ظهرها . فهى مبعدة فى هذا المنفى الريفى ، محرومة من التوجيه والنصح .. وهى تتلمس طريقها ، خبط عشواء ، فى تيه المعرفة ، تنشد التحصيل من كتب

مدرسية عتيقة . وفى ساعات اللوعة ، كانت تشبه فلاحيها الصغار الذين يلقون بعيدا كتب الهجاء فى حال يأسهم من معرفة القراءة . ومع ذلك كله ظلت تتابع مجهودها كفلاحة عنيدة .

وكتبت بعد ذلك بأربعين عاما تقول :

« ان الأدب كان يشوقنى بقدر ما يشوقنى الاجتماع والعلوم البحتة . بيد انى عندما حاولت شيئا فشيئا ان اكتشف ميولى الحقيقية ، خلال تلك السنين العاملة ، وجدتنى آخر الامر اتجه نحو الرياضيات والطبيعة ..

وكانت دراساتى المنفردة متشعبة العقبات . وكانت تربيتى العلمية التى تلقيتها فى المدرسة أبعد ماتكون عن التمام ، وأقل بكثير من برنامج البكالوريا فى فرنسا . فحاولت أن أكملها على طريقتى ، بمساعدة الكتب المختلفة التى جمعتها يد الصدف . ولم تكن تلك الوسيلة بالناجعة ، غير انها عودتنى العمل المستقل .. وتعلمت بها أشياء نفعتنى فيما بعد ... »

وهى تعمل من الصبح الى المساء . فاذا خلت من العمل .. وجب أن تتعلم على شيخ من أقارب أهل البيت لعبة الشطرنج! لتلاعبه وتسليه! .. وهو ما ينزعها عن كتبها ، ويدعوها الى الشكوى الى بنت عمتها « هنريتا » :

(... وكتبت الى برونيا العزيزة من باريس ، تشكو صعوبات الامتحان ، وانها تعمل كثيرا ، وأن صحتها تدعو الى القلق .

تسألينني عن خطط المستقبل ؟ .. ليس لدى منها شيء ، أو هى من البساطة بحيث لا أجد حاجة الى الكلام عنها . سأجاهد ما استطعت ، ويوم لا استطيع ،

سأقول : وداعا لهذا العالم السفلى ! وتكون الخسارة طفيفة ، ويكون الاسف هينا ...

وبعض الناس يزعمون أنه لابد لى من تذوق تلك الحمى التي يسمونها الحب . وهو لايدخل فى برنامجى على الاطلاق . واذا كانت لى قبل الآن هواجس فقد تبخرت ، وقد دفنتها وختمت عليها ، ونسيتها ..)

ان هذه اللهجة اليائسة ، والاشارة الى الانتحار ، والتشكك فى الحب ، تتطلب تفسيرا .

والتفسير بسيط تافه .. يمكن أن يسمى « قصة فتاة فقيرة » .. كالذى نراه فى قصص العواطف التى لا حصر لها .

وقصة مانيا سكلودوفسكى تبدأ بأنها كانت قد اصبحت جميلة ، تتلألأ بشرتها نضرة ، وينثر شعرها تبرا .. كان محياها يلفت النظر بما فيه من فم يدل على العزم ، وعينين رماديتين ، عميقتين تحت أهدابهما ، كبيرتين من اتساع نظرتهما ..

فلما عاد ابن الاسرة البكر « كازيمير » من جامعة فارسوفيا ليقضى فى العزبة أيام العيد ، ثم عطلة الصيف الطويلة .. وجد فى البيت مربية ترقص رقصا مدهشا ، وتجذف ، وتزحف على الثلج .. وهى روحية مهذبة تحفظ الشعر ، كما انها تركب الخيل ، وتقود المركبة .. فتاة تختلف كل الاختلاف عن كل من عرفهن من الفتيات ! .. فوقع فى حبها . ومانيا ، مانيا التى تخفى تحت مبادئها الثورية قلبا جريحا ، قد فتنت بهذا الطالب الموفور الجمال ، الدمث الاخلاق ! .. ولم تكن قد بلغت التاسعة عشرة ، ولم يكن يكبرها الا بقليل . فتعاهدا على الزواج .

وكأن ليس شىء يعترض هذا الزواج .. حقا ، ان

مانيا ليست فى العزبة الا « مدموازيل ماريا » المربية .. ولكن الجميع يحبونها . فوالده يتنزه معها فى الحقول نزهات خلوية طويلة ، والوالدة تحميها وترعاها ، وأخته برونكا تعبدها .. وقد قدروا فضائلها .. فدعوا غير مرة أباها وأخاها وأختها للنزول عندهم .. وفى عيد ميلاد مانيا يقدمون اليها الهدايا والزهور .

لذلك تقدم « كازيمير ز ... » الى والديه تحدوه الثقة ، بطلب الموافقة على الخطبة .. فجاء الجواب خاطفا . غضب أبوه وثارت ثائرته ، وكادت امه يغمى عليها .. أيمكن ، وهو كازيمير ، ولدهما الاثير ، ان يختار مخلوقة لاتملك دانقا ، وهى مضطرة الى « الخدمة عند الناس » ؟! هو ، الذى يستطيع غدا ان يتزوج من هذا الاقليم أعز الفتيات جاها ، وأوفرهن مالا ؟! هل اصابه مس ، فجن جنونه ؟!

وفى لحظة واحدة ، قامت الحواجز الاجتماعية وارتفعت ، ولا سبيل الى اجتيازها ، فى بيت كانت مانيا تعامل فيه معاملة الند ، كأنها صديقة . اما ان الفتاة من أسرة طيبة ، وانها مثقفة ، وانها مستقيمة ولا غبار على سمعتها .. أما أن أباها رجل شريف معروف فى فارسوفيا ، فليس شىء منه له وزن أمام هذه الكلمات الخمس الصغيرة : « المرء لايقترن بمربية أولاد » .

وكان الطالب ضعيف الخلق ، وخشى غضب أهله ، فانهار عزمه . وحبست مانيا نفسها فى جو من الصمت المطبق المثلج ، استصغارا لشأن أولئك الذين هم دونها .. وقد اعتزمت امرا : الا تفكر بعد فى هذا الخيال .

ولكن الحب ، كالطموح ، لايكفى مجرد الحكم بالموت ، للقضاء عليه .

لم يكن فى وسعها الا البقاء .. فالى اين تذهب ؟ ومن اين لها مثل هذا : مكان طيب ومرتب حسن ؟.. وكيف تزعج اباها برحيل مفاجىء ؟ ولم يعد ما ادخرته برونيا الا أثرا بعد عين .. فهى وأبوها اللذان يدفعان لها تكاليف الدراسة بكلية الطب فى باريس . فترسل كل شهر الى أختها خمسة عشر روبلا ، واحيانا عشرين روبلا ، اى نحو نصف مرتبها . فخير لها ان تتجرع كاس المهانة وتبقى ، وكأن شيئا لم يحدث البتة ! ..

شقية فى الحب ، يائسة من تحقيق أحلام عقلها ، عسر مادى شديد ، لا يبقى لها من أجرها شىء بعد الذى تساعد به هؤلاء وهؤلاء من أهلها ... وهى تتجه الى اسرتها ، لا لتشكو او تطلب العون ، ولا لتبدى مرارتها بل لتمحض النصح ، وتقدم يد المساعدة ، كيما تكون لهم حياة موفورة .

تشير على اخيها جوزيف ان يبقى فى فارسوفيا ليزاول الطب ، ولو استدان بضع مئات من الروبلات ، لئلا يقبر نفسه فى الريف ، ويحرم من جو البحث العلمى : بلا صيدلية ، ولا مستشفى ، ولا كتب ولا مجلات .. وبذلك تؤثر استمرار تضحيتها بدلا من أن يحمل عنها اخوها بعض أثقالها . وتهاجمه من ناحية العاطفة : برونيا فى باريس ، وهيلا قد تتزوج المسيو «ب» وهو سيبعد عن فارسوفيا ، فماذا يصيب اباهم المسكين وحده ؟

لم تسمع ان اختها هيلا لم توفق الى الزواج :

(انى لأتصور الجرح الذى اصاب هيلا فى كرامتها .. لماذا كان هؤلاء الناس لا يريدون الزواج بالفتيات الفقيرات ، فليذهبوا الى الشيطان ! .. فليس احد

يسألهم زواجا .. فلماذا يزيدون الطين بلة ، ويعكرون صفو مخلوق برىء ؟ ..)

واقرأ خطابها الى جوزيف فى ١٨ مارس ١٨٨٨ :

(ياعزيزى جوزيو الصغير ! سألصق علىهذا الخطاب آخر طابع املكه ، وليس لدى مليم واحد فعلا ، فلن أكتب اليك قبل العيد ... فتقبل اذن من الآن تهانى ، واعلم ، اذا قصرت فى الكتابة ، أن الذنب ذنب نقود وطوابع لا أثر لها عندى ، وهو ما يحز فى صدرى . أما الطلب فشىء لم أتعوده بعد ...

لشد ما أتمنى ان لو اقضى بضعة ايام فى فارسوفيا !. ولست أذكر ثيابى التى لم تعد تحتمل ، ولكننى اذكر أيضا روحى التى لم تعد تستطيع صبرا ... ليت لى الخلاص أياما من هذا الجو البارد ، المبرد ، الناقد ، الذى فيه رقابة مستمرة على اقوالى ، وتعبير نظراتى ، ومعنى حركاتى ! ..

لقد مضى وقت طويل لم تكتب الى فيه مانيا . فهى بلا شك مثلى ، ليس لديها طابع بريد ! .. فاذا استطعت أن تضحى طابعا ، فرجائى أن تكتب الى ! .. فانى فى قلق على هيلا بعد خيبة أملها فى الزواج ، وعلى أبى .. ولست اسعد حظا ، فلولا تفكيرى فى برونيا لاستقلت من هذا البيت ، ورحلت .. ولكن مبدئى الاول : ألا اقع صريعة الحوادث ، ولا فريسة الناس ... »

الفرار

مرت ثلاث سنوات منذ أصبحت « مدموازيل ماريا » مربية .. ثلاث سنوات متشابهة مملة: كثير من الاعمال، ولا مال .. وبعض المسرات ، ثم حزن شديد . والآن ، ستجيء حركات عرضية فتحول كيان الفتاة الجامد الكئيب . ان بعض الحوادث فى باريس ، وفى فارسوفيا ، وفى هذه الضيعة البولونية السحيقة ، ستقع .. ومهما تكن ضئيلة فى ظاهرها ، فهى ستغير اللعبة الخفية التى يلعبها قدر مانيا ، فيتقرر المصير .

فالمسيو سكلودوفسكى بعد ما أحيل الى المعاش ، طفق يبحث عن عمل يدر عليه رزقا ليعين بناته . ففى ابريل ١٨٨٨ قبل وظيفة من شر الوظائف ارهاقا وازعاجا ، لانها ادارة مدرسة للأحداث غير بعيدة عن فارسوفيا .. وكان جوها ووسطها وكل مافيها لايطاق ، ماخلا مرتبها الكبير نسبيا .. فأرصد منه الرجل الكريم من فوره مبلغا شهريا لدراسات برونيا .

وكان أول مافعلته برونيا : أن طلبت الى مانيا ان تكف عن ارسال نقود لها ، وان طلبت من ابيها أن يحجز من الاربعين روبلا التى يعطيها اياها شهريا ثمانية روبلات تدفع لأختها الصغرى مانيا ، لتعوضها شيئا فشيئا عما تلقته منها . ومنذ تلك اللحظة ورأس مال مانيا ، الذى بدأ يصفر ، قد أخذ يزيد ...

وحملت رسائل طالبة الطب فى باريس انباء طريفة اخرى .. فهى تعمل ، وهى تجتاز امتحاناتها بنجاح .. وهى تحب ! تحب بولونيا مثلها ، يدعى « كازيمير دلوسكى » رفيقها فى الدرس ، وهو ممتاز بجاذبيته وصفاته ، ولا غبار عليه الا أنه ممنوع من الاقامة فى بولونيا الروسية ، ومهدد بالابعاد الى سيبريا اذا وطئتها قدمه !

وكنا فى الضيعة سنة ١٨٨٩ . لقد انهت مانيا مهمتها ، وآن لها الرحيل .. وقد وجدت المربية الشابة مكانا عند أسرة « ف » من كبار رجال الصناعة .. فهو تغيير ماكان اشد حاجة مانيا اليه ، وتلهفها عليه !

وداعا اذن ياحقول البنجر ويا مصنع السكر ! .. ابتسامات لطيفة متبادلة من الجانبين .. ثم استئذان .. لقد اعتقت ! . واستقلت القاطرة .. وأخذت تأكل فى الطريق خبزا وحلوى .. ثم وجدت السيد « ف » وزوجته فى انتظارها فى المحطة .. وهما فى غاية اللطف.. ولم تلبث أن تعلقت بالاطفال ...

وستكون السنة القادمة للفتاة سنة دعة وراحة نسبيا .. فالسيدة « ف .. » جميلة جدا ، وانيقة جدا ، وغنية جدا .. ولديها فراء وجواهر .. واثوابها من عند « ورث » الشهير فى باريس .. وستعرف مانيا وتشهد الاشياء الشائقة الطائشة التى يمكن للمال أن يغدقها على المراة المدللة ــ وهى الاشياء التى لن تحظى بها ابدا ــ فكان هذا أول لقاء وآخر لقاء بينهما وبين الترف ! .. وكانت ربة البيت تفيض لطفا وعطفا على « مدموازيل سكلودوفسكى الفاتنة » .. تسرف فى مدحها ، وتصر على حضورها جميع حفلات الشاى والسهرات الراقصة التى تقيمها ! ..

وفجأة ، رعد الرعد ، وبرق البرق ! .. فقد حمل ساعى البريد ، ذات صباح ، رسالة من باريس : رسالة رخيصة على ورق بالمربعات ، سودتها برونيا بين محاضرتين فى مدرج الجامعة ، تعرض فيها الفتاة النبيلة على مانيا ضيافتها ، فى العام القادم ، فى بيتها الجديد !

من برونيا الى مانيا – باريس ، مارس ١٨٩٠ :

(اذا سار كل شيء على مانرجو ، فانى سأستطيع الزواج حتما عند بدء العطلة . وسيكون خطيبى قد صار طبيبا ، ولا يبقى أمامى الا اجتياز آخر امتحاناتى . وسنبقى سنة اخرى فى باريس أنال فيها أجازتى ، ثم نعود الى بولونيا . ولست أرى شيئا غير معقول فى هذا البرنامج . الست على حق ؟ .. تذكرى أنى فى سن الرابعة والعشرين ، وهو ما لا يستحق الذكر ، أما هو ففى الرابعة والثلاثين ، ولهذا خطره . ومن العبث الانتظار أطول من ذلك !

... والآن ، أنت ، ياصغيرتى مانيا ، لابد لك من أن تعملى يوما ما فى حياتك عملا . فاذا جمعت بضع مئات من الروبلات هذه السنة ، استطعت فى العام القادم ، الحضور الى باريس والسكنى عندنا ، حيث تجدين الغذاء والمأوى . ولا مندوحة لك مطلقا عن ان يكون معك بضع مئات من الروبلات للالتحاق بالسوربون . وستعيشين السنة الاولى معنا . أما السنة الثانية والثالثة ، اذ نكون قد رحلنا ، فأنا اقسم لك اننا ، أبى وأنا ، سنهب جميعا لمعاونتك . فاحزمى أمرك واتخذى قرارك ، فقد طال بك الانتظار ! وانى الكفيلة لك بفوزك بالليسانس فى سنتين . فكرى اذن ، واجمعى المال ، وضعيه فى مكان أمين ، ولا تسلفيه ! وربما كانت الخيرة فى تحويله من فورك الى فرنكات ، فان سعر القطع حسن

فى هذه الايام ، وربما هبط بعد ذلك ...)

فهل تظن مانيا ستتحمس وتتهافت على هذا الهناء معلنة وصـولها ؟ كلا ، اطلاقا ! .. فان سنى النفى والوحدة ، بدل أن تحد من طبع هذه الفتاة العجيبة ، قد جعلتها تتردد وتتحرج .. وجعلها شيطان التضحية قديرة على أن تضيع حظها ، وتفلت ، عن قصـد ، نصيبها .. ذلك لانها قد وعدت اباها العيش معـه ، ولأنها تريد مسـاعدة أختهـا هيلا ، ومعاونة أخيهـا جوزيف .. لم تعد مانيا راغبة فى السفر ! ..

وعادت برونيا فألحت .. ولكنها كانت ، مع الاسف ، تنقصها الحجة القاطعة ، التى بها تستطيع أن تضعها فى القطار على رغمها ، اذ كانت افقر من أن تستطيع دفع نفقات رحيل أختها الصغرى .

وكان الأب لايتمنى فراق صغيرته مانيا ، الاثيرة عنده المفضلة ، فيدعها تسافر مغامرة فى الدنيا الواسعة .. كان يرجو لو أن شيئا حدث فاستبقاها فى بولونيا ، مثل زواجها بالشاب « كازيمير ز .. » مثلا ، فيكون له صهران باسم كازيمير ! ..

ولكن مانيا كانت قد قطعت آخر أوصال تلكالعاطفة ، عندما تقابلت والفتى صـيفا فى الجبل ، ورات تردده وجزعه على أهله .. فثارت وقالت :

ــ اذا كنت لاتعرف كيف تفسر الموقف ، فليس لى انا أن اعلمك ذلك ؟ ..

وانتهى كل مابينهما . وحسبت السنوات القاسية التى قضتها تربى أولادا وتعانى ذلا وتشقى فقرا وحرمانا من باريس وعلوم باريس .. فاذا هى قد تخرجت من المدرسـة منذ ثمانى سـنوات ، وعملت مربيـة ست سنوات .. ولم تعد الصبية المراهقة التى ترى امامها

كل حياتها . ففى بضعة اسابيع ستبلغ الرابعة والعشرين ! ..

وفجأة ، تصرخ ، وتطلب من برونيا الغوث :

من مانيا الى برونيا ـ فارسوفيا فى ٢٣ سبتمبر ١٨٩١ :

(... والآن يابرونيا ، أسألك ردا نهائيا . فقررى ان كنت تستطيعين حقا أن تأخذينى عندك ، لأننى ، من جانبى ، قد قررت الحضور ، ولدى نفقاتى . فاذا كنت اذا ، بغير ضيق كثير ، تستطيعين اعطائى لقمة العيش ، فاكتبى الى ، فذلك هو الهناء العظيم ، لانه ينقذنى روحيا بعد المحن القاسية التى مررت بها هذا الصيف ، والتى ستؤثر على طول حياتى .. ولكننى من جانب آخر لا أريد ان أفرض نفسى عليك .

« ومادمت تنتظرين ولدا ، فانى قد أكون نافعة عندك . فاذا كان حضورى أمرا ممكنا ، فاكتبى الى ، واى امتحانات للدخول على اجتيازها ؟ وما آخر موعد للالتحاق بالجامعة ؟

ان فكرة السفر تشغلنى الى حد لا استطيع معه ان احدثك عن شىء آخر قبل وصول ردك . فأتوسل اليك ان تكتبى الى حالا ، وانى أرسل اليكما ارق عواطفى .

تستطيعين ان تضعينى حيث شئت ، فلن ازحمك ، واعدك ألا أضايقك فى شىء ، أو اخل بنظام ... أضرع اليك أن تردى على ، ولكن بصراحة تامة ! ..)

واذا كانت برونيا لم ترد بالتلغراف ، فلأن التلغرافات ترف متلف لا قبل لها به . واذا كانت مانيا لم تلق بنفسها فى اول قطار ، فلأنها كان ينبغى لها أولا ، بدقة وتقتير ، أن تنظم الرحيل العتيد . فصفت على منضدة كل ماالديها من الروبلات التى أضاف اليها ابوها فى آخر

لحظة مبلغا زهيدا ، وهو بالنسبة له شيء كبير .. وبدات احصائياتها :

كذا لجواز السفر . وكذا لتذكرة سكة الحديد .. ويكون من نزوة الطيش ركوب القطار رأسا من فارسوفيا الى باريس فى الدرجة الثالثة ، وهو أرخص ما فى روسيا وفرنسا .. اذ توجد فى المانيا ولله الحمد ، درجة رابعة فى عربات بغير دواوين ، مكشوفة ، أشبه بعربات البضائع ، وفى كل جانب من جوانبها الاربعة دكة خشبية ، وفى الوسط فراغ اذا جلس فيه المرء على كرسى يطوى يحمله معه ، فلن يسوء مقاما ! ..

ولم تنس نصائح برونيا العملية : أن تأخذ معها كل مايلزمها لحياتها ، بحيث لاتفاجأ فى باريس بنفقات .. وسيرسل سرير مانيا والمراتب والبياضات والفوط قبل سفرها بزمن طويل ، بقطار البضاعة غير المستعجل .. أما ثيابها ، المصنوعة من صوف متين ، واحذيتها ، وقبعتاها ، فقد جمعتها حولها الى جانب حقيبة خشبية كبيرة بنية اللون ، خشنة جدا ، ومتينة جدا ، رسمت عليها الفتاة بشغف الحرفين الاولين الكبيرين الاسودين من اسمها ! ..

وسافرت المراتب ، وسجل الصندوق الخشبى ، وبقى للمسافرة أنواع من اللفائف والصرر التى لايروق العين منظرها ، والتى ستكون رفيقتها فى رحلتها .. وأعدت زادها من الطعام والشراب لأيام السفر الثلاثة فى القطار ، وكتبا ، وكيسا من « الكراملة » ، وبطانية ..

وفى الليل ، الذى تمزقه صفارات القاطرة ودوى العجلات ، اجتازت عربة الدرجة الرابعة المانيا .. وانطوت مانيا فوق كرسيها وقد غطت ساقيها ، وهى تضم اليها صررها ، وتعنى الفينة بعد الفينة بتعدادها ! ..

وهى فى هذا كله تتذوق فرحها الالهى .. تفكر فى الماضى ، وفى هذا السفر الخيالى الذى طال انتظاره .. وتحاول أن تتصور المستقبل .. وتزعم انها لن تلبث ان تعود الى مسقط راسها ، معلمة متواضعة .

ثما كان ابعدها ، وما كان أقصاها ، اذ صعدت هذا القطار ، عن التفكير فى أنها قد اختارت حدا يفصل بين الظلمة والشعلة : بين حقارة الايام المتشــابهة ، وبين حياة حافلة لا حد لها ...

باريس

لم يكن فى باريس يومئذ اوتوبيس ، بل امنيبوس ، بثلاثة خيول ودورين ! . ولم يكن الطـريق من حى لافيليت ـ السلخانة ! ـ الى السوربون ، بالطـريق المريح او السريع .. ولم يكن يمر بأجمل احياء باريس ... فمن شارع المانيا (شارع جان جوريس الآن) حيث كانت تقطن برونيا وزوجها ، أومنيبوس الى محطة الشرق (جاردى لست) ومن محطة الشرق الى شارع المدارس (رو ديزيكول) اومنيبوس آخر .

وكان الدور الثـــانى من الامنيبـوس ـ ويدعى « الامبريال ! » ـ وهو المعرض لكل الادواء ، والذى يسبب الدوار ، هو الذى تسرع اليه مانيا لانه كان أيضا الارخص والاظرف ! .. وتحت ابطها حقيبة قديمة من الجلد كانت تصاحبها فى فارسوفيا . ومن قمة هذا المرصد المتحرك تمد عنقها ، وتلتهم ماحولها .. ماذا عليها ان كان شارع لافاييت لاينتهى ؟ أو كانت حوانيت بولفار سيباستبول متزاحمة ، متراصة ، متشابهة ؟.. فهذه الحوانيت الصغيرة ، وهذه الاشجار المتجردة من أوراقها ، وهذا الزحام ، وهذه الرائحة : رائحة أديم الارض ، كل هذا كان باريس .. فها أنت ياباريس .. بعد أن طال السـفر ! ..

ما اشد شعور الانسان بالشباب فى باريس ، ما أشد احساسه بأنه فتى ، قوى ، يتحفز حيوية ، ويتوثب املا ! .. وياله من شعور مدهش ، فى فتاة بولونية ، شعور بالخلاص والتحرر ! ..

وعندما نزلت الى رصيف محطة الشمال « جاردى نور » ... وقد اضنتها رحلة القطار الطويلة ، انفصمت عنها فجأة قيود العبودية ، واعتدلت قامتها ، وتنهدت مرتاحة القلب والرئتين . لقد كانت هذه أول مرة تستنشق فيها مانيا هواء بلد حر . وبدا لها ، فى تحمسها ، كل شىء معجزا : من أولئك المارة يتنزهون فى الطرقات ، يتخاطبون باللسان الذى يفهمونه ، الى باعة الكتب الذين يبيعون دون حرج مؤلفات العالم أجمع .. حتى بدت لها المعجزات فى تلك الشوارع الفسيحة الرأسية التى تتجه فى انحناء لطيف نحو قلب المدينة ، وتقودها هى ـ مانيا سكلودوفسكى ـ الى ابواب الجامعة المفتوحة على مصراعيها ! .. واية جامعة ! أشهر الجامعات .. تلك التى وصفت منذ أجيال بأنها : « مختصر الكون » .. تلك التى قال فيها لوثر : « فى باريس نجد أشهر المدارس طرا وأفضلها : وتسمى السوربون » ! ..

ان المغامرة جديرة بقصة من ألف ليلة وليلة ! .. فهذا الامنيبوس البطىء ، المختل ، المثلج ، هو عربة سحرية تقود الاميرة الفقيرة الشقراء من مسكنها المتواضع الى قصر أحلامها ! ..

وعبرت المركبة نهر السين ، فبدا كل ماحول مانيا يفتن اللب : الذراعان اللتان يمدهما النهر ذو الضباب ، والجزر الرائعة بجلالها وجمالها ، والتماثيل ، والميادين .. وهناك ، الى اليسار ، ابراج « نوتردام » .. ولما

بدأت الخيول تصعد بولفارسان ميشل ، خففت الوطء وسارت خطوة خطوة .. انه هناك ! .. هناك ! .. انها وصلت اذا ! .. فأمسكت الطالبة حقيبتها ، ولمت طيات ثوبها الصوفى الثقيل . وفى تسرعها دفعت ، غير منتبهة ، احدى جاراتها ، فاعتذرت فى خجل بلسان فرنسى متردد .. ولم تلبث ان نزلت درجات الطبقة العليا « الامبريال ! » من الاومنيبوس ، وصارت فى الطريق ، فهرعت بوجه مشرق نحو « عصر المعرفة » .. فقرأت اعلانا أبيض ملصقا على الحائط بجانب مسكن البواب :

الجمهورية الفرنسية
كلية العلوم ـ الثلاثة اشهر الاولى
تفتح فصول السوربون يوم ٣ نوفمبر ١٨٩١

كلمات ساحرة ! بهرت عينى الفتاة التى جمعت قليل مال : قرشا قرشا ، فصار لها حق الاستماع الى ماتحب وتختار من الدروس المعلن عنها ، والتى لا عد لها . مانيا الآن ـ وافرحتاه ـ طالبة فى كلية العلوم !

وهى لم تعد تدعى « مانيا » ولا « ماريا » .. فقد سجلت اسمها فى طلب الالتحاق ، بالفرنسية هكذا : « مارى سكلودوفسكى » . وهو اسم لم يستطع رفاقها ان ينطقوا مقاطعه البربرية « سكلو ـ دوفسـ..كى » ولم تسمح البولونية لأحد منهم برفع الكلفة فيناديها : « مارى » ، فظلت مجهولة محوطة بالخفاء . وكثيرا ماكانت تمر تلك الفتاة ذات الثوب المحتشم البائس ، ذات المحيا النافر ، والشعر الناعم الصافى ، فى أبهاء السوربون الرنانة ، فيدهش الشبان ويتلفتون متسائلين : « من تكون ؟ .. » . ويجىء الجواب غامضا غالبا ان هو جاء : « انها أجنبية .. اسمها لاينطق ! .. وهى

دائما فى الصـــف الاول من دروس علم الطبيعيات .. ليست ثرثارة ! .. » . ويتبع الشبان بعيونهم القوام العادل حتى يختفى ثم يقولون : « شعر جميل ! .. »

وظل الشعر الذهبى والرأس السلافى زمنا ، عنـد طلبة السوربون ، هما كل مايحقق شخصية زميلتهم المتوحشة !

ولكن هؤلاء الشبان كانوا ، يومئذ ، آخر مايهم تلك الفتاة . كانت مفتونة ببعض الســادة الوقورين الذين تريد أن تنتزع سرهم من صدورهم ، والذين يسمون : « أساتذة التعليم العالى .. » . وكانوا طبقا لتقـــاليد المعهد المحترمة ــ يضعون عند القاء محاضراتهم ربطة عنق بيضاء ، ويرتدون الثوب الجامعى الاسود الملطخ دائما بالطباشير . فعاشت مارى منجـذبة الى هــذه المسوح المهيبة ، وهذه اللحى الرمادية .

أول أمس كان فصـــل البروفســور ليبمان المنطقى وامس استمعت الى البروفسور بوتى الذى يطبق راسه على كنوز من العلم . وودت مارى أن لو سمعت كل الدروس ، وعرفت الثلاثة والعشرين أستاذا المســجلة أسماؤهم على اعلان الحائط . وعرضت لها صعوبات جمة خلال الاسابيع الاولى ، اذ زعمت معرفتها التامة باللغة الفرنسية ، فوجدت أنها يفوتها منهــا الكثير . وزعمت أنها على ثقافة علمية كافية لتتبع دروس الجامعة ، فوجدت ان كل ما تعلمته لا يمكن ان يحل محل البكالوريا فى مدارس باريس . فوجدت أمامها عمـــــلا متواصلا قبل أن تحصـــــل على ليســـــانس العلوم .. وكان اليوم درس « بول آبل .. » : صفاء فى العرض ، وتنوع فى الاسلوب . فما كان اهدأ صوته ، وأرق اشاراته ، وانقى عبارته ، حتى ليخيل لسامعيه أن الدنيا فى يده !

.. وهو يغامر فى أقاليم المعرفة النائية فاذا بها دانية ، ويلعب ماطاب له بالارقام ، بالنجوم .. ولما كان لايتهيب صورة من الصور ، فهو يقول بلهجة طبيعية للغاية ، وهو يقرن الكلمات باشارة السيد المالك :

ـ انى آخذ الشمس ، والقى بها ..

والبولونية ، على المقعد الاول أمامه ، تسمع ، وتبتسم فى نشوة وانجذاب .. وتحت جبينها الواسع المستدير ، تلمع عيناها الرماديتان بالهناء .. كيف يكون العلم جافا ؟! هل هناك شىء الذ وامتع من القواعد الثابتة التى تحكم الكون ؟ أو أروع وابدع من الذكاء الانسانى القدير على اكتشافها ؟! لشد ما تبدو الروايات فارغة ، والقصص الخيالية ينقصها الخيال ، اذا هى قورنت بالظواهر الخارقة للعادة ، المرتبطة فيما بينها بقواعد منسجمة ! هذا النظام الذى يبدو فى اللانظام ! .. ان اندفاعا ، لايمكن تشبيهه الا بالحب ، قد تولد فى نفس الفتاة للانهائية المعرفة ، للاشياء وقوانين الاشياء ..

ـ انى آخذ الشمس ، والقى بها ..

حقا ، ان سماع هذه العبارة وحدها من فم عالم مطمئن جليل ليجزى الجزاء الاوفى عن النضال والالم بعيدا كل تلك السنين ! .. هنيئا لك ياماری !

من كازيمير دلوسكى (زوج برونيا) الى حميه المسيو سكلودوفسكى

٩٢ شارع المانيا

الاستشارة من ١ ـ ٣

العيادة المجانية يومى الاثنين والخميس من ٧ ـ ٨

سيدى المحترم العزيز

(كل شىء عندنا على مايرام . الآنسة مارى تداب فى عملها ، وتكاد تقضى كل أوقاتها فى السوربون ، فلا نلتقى

الا عند طعام العشاء . انها فتاة مستقلة جـدا ، وبرغم السلطات الرسـمية التى خولتنى اياها بوضـعها تحت رعايتى ، فهى لاتكتفى بعدم اظهار أى احترام لى أو أية طاعة فحسب ، بل تسخر منى ومن سلطتى ونفوذى ، حتى كأنهما فردتا حذاء مثقوب ...

وانى لأرجو أن أردها الى جادة الصواب وان كانت مواهبى فى التربية لم تؤثر فيها حتى اليوم . ونحن مع ذلك على تفاهم تام ، ونعيش فى غاية الوئام .

انتظر بفارغ الصبر وصـول برونيا ، فالظـاهر أن الشابة زوجتى لاتتعجل العودة الى البيت ، فى حين أن وجودها فيه نافع جدا ، ونحن نتمناها كل التمنى .

وأضيف الى هذا أن الآنسة مارى تتلألأ صحة ونضارة

وتقبلوا عظيم احترامى)

تلك كانت الانباء الاولى التى أرسلها الدكتور دلوسكى عن أخت زوجه التى كلف بانزالها عنده .. فى غيـاب برونيا ، وكانت تقضى فى بولونيا بضعة أسابيع .. وقد لقيت مارى من هذا الشاب ترحيبا عظيما ، رات لاول وهلة أن أختها العزيزة برونيا قد أخذت لنفسها ، من بين جميع شباب بولونيا فى باريس ، اجملهم صورة ، واذكاهم عقـلا ، واخفهم روحا ، ثم اى نشـاط وأية همة ! .. لقد كان كازيمير دلوسكى طالبا فى بطرسبورج ، ثم فى أودسا ، ثم فى فارسوفيا .. واضطر الى الهرب من روسيا لشبهة حامت حوله فى محاولة الاعتداء على القيصر اسـكندر الثانى ، فأصبح صـحفيا ثوريا فى جنيف ، ثم جاء الى باريس فالتحق بمدرسة العلوم السياسية ، وبكلية الطب ، ثم صار طبيبا .. وله فى مكان ما من بولونيا اسرة غنية ، وله فى ملفات وزارة الخارجية بفرنسـا ، دوسيه أشد سـوادا من تقارير

بوليس القيصر : وهو مايحول دائما دون تمتعه بالجنسية الفرنسية ، والاستقرار فى باريس .

وعادت برونيا الى بيتها فاستقبلت بالهتاف من زوجها واختها ، فهى ربة البيت التى تعرف كيف تدير دفته .. ولم يلبث أن دبت فيه بدخولها الحياة ، ففاحت رائحة المطبخ الشهية ، ونظفت الشرفة المطلة على أشجار شارع المانيا ، وملأت الزهور البيت ..

وكانا فى المســـاء ينسيان متاعبهما فى وســـط حى القصابين هذا ، وهم زبائنهما من الرجال والنساء .. وبعد تنقل الطبيبين ـ الشاب وزوجته ـ من بيت الى بيت ، يأويان مساء الى جانب مصابيح البترول ، ويلقيان عن كاهليهما أعباء كسب العيش .. وتعود مارى من الحى اللاتينى لتسمع زوج أختها يعزف البيانو عزفا بديعا ! .. ويقبل من ابناء بلدهم من تحلو له زيارتهم .. فالكل يعرفون أن الزيارة دائما مباحة .. فيجتمعون حول ابريق الشاى الذى لايرتفع عن النار ، وشراب الفاكهة ، والفطائر التى تصنعها الدكتورة برونيا عادة بعد الظهر ، بين استشارتين ! ..

وفى ذات مساء ، وبينما كانت مارى منحنية على كتابها فى غرفتها الصــغيرة فى آخر الشـــقة ، اذ دخل زوج أختها وصاح :

ـ أسرعى ، والبسي معطفك وقبعتك ! .. عنـدى تذاكر مخفضة فى حفلة موسيقية .

فلما حاولت الاعتراض بما وراءها من مذاكرة ، ابى .. وقال :

ـ ان بولونيا عازفا على البيانو هو الذى يقيم الحفلة ، ولم يبع من التذاكر الا دون القليل ، والصداقة تقضى « بتعمير » الصالة ! .. وقد اختـــار بعض المتطوعين

الذين سيذهبون معهم للتصفيق حتى تتقطع أيديهم ، ليخلقوا جوا للنجاح .
وكان ذلك العازف « الخامل » يومئذ تجرى تحت أصابعه نغمات ليست وشومان وشوبان فترتد اليها الحياة ، وكان يجيء عندهم فى شقة شارع ألمانيا .. وسيصير هذا الموسيقار العبقرى ، يوما ما ، رئيس وزارة بولونيا الحرة !.
وكان يدعى اينياس بادرفسكى ...
وراحت مارى تعمل بحرارة وهمة .. واكتشفت مسرات الزمالة والتعاون التي يخلقها الجو الجامعى .. ولكنها كانت ماتزال من حيائها الشديد بحيث لم توثق صلتها بالفرنسيين ، فلجأت الى مواطنيها .. الذين لن يلبث احدهم أن يدخل أسرة سكلودوفسكى بزواجه من هيلا !.
وكان بينهم دكاترة وأساتذة ورئيس ، فيما بعد ، لجمهورية بولونيا ! .. فكونوا لأنفسهم جزيرة لبولونيا الحرة فى قلب الحى اللاتينى .. وكان هؤلاء الطلاب الفقراء يعقدون الاجتماعات ، وينظمون حفلات عشاء عيد الميلاد : يتطوع الطهاة فيها بطهى الوانهم الوطنية ، وتقام حفلات تمثيلية من الهواة بينهم .. وفى احدى الحفلات التى أقامها المثال البولونى المشهور « وزانكوفسكى » وقع الاختيار على مارى لتمثل فى اللوحات الحية دور « بولونيا تحطم أغلالها » ..
وبالطبع روت مارى لابيها قصة هذه السهرة وفوزها فيها ، لكن الاستاذ كان دونها تحمسا :
« من مسيو سكلودوفسكى الى مارى . ٣١ يناير ١٨٩٢
ان رسالتك الاخيرة يا عزيزتى مانيا قد أحزنتنى . فانى أنكر اشتراكك فى دور عملى مسرحى .. فمهما يكن بريئا ، فهو يعد كفيلا بأن يلفت الانظار اليك ، وفى باريس

قوم يحصون كل صغيرة وكبيرة من سيرك وسلوكك ، ويدونون اسماء الذين يبرزون فى أمثال هذه المظاهرات للوقت المناسب ...

وهذا ماقد ينشأ عنه متاعب جمة ، ويحول دون العمل فى مهن معينـــة . وعلى ذلك ، فان الذين يريدون كسب عيشهم فيما بعد فى فارسوفيا فى ستر وسلام ، ومأمن من الخطر والاضطهاد ، لايسعهم الا ملازمة الهدوء ، والاحتجاب فى ركن خفى أمين .. أما الحفلات والمراقص وما اليها فتنشر الصحف أخبارها وأسماء أهلها

وسيكون من اشد أسباب حزنى ذكر اسمك يوما ما .. لذلك قلت ، واعيد عليك القول ، ناصحا لك بالبقاء فى معزل ماإستطعت .. »

فهل هى سلطة الاب أو هى فطنة البنت التى حالت دونها ودون الاندفاع فى طريق لايجدى ؟.. لذلك لم تلبث مارى أن تبينت أن ماحولها من الاسباب يلهيها ويحول دون عملها فى سلام ، فابتعدت . انها لم تجىء الى فرنســا لتكون صورة ماثلة فى لوحة حية .. وكل دقيقة لا تقفها على الدرس هى دقيقة ضائعة لاتعوض .

زد على هذا أن التركيز الفكرى كان ينقص مارى ، على رغم الراحة التى كانت تجدها فى بيت أختها . انه لايمكنها أن تحول بين كازيمير وبين العزف على البيانو ، أواستقبال الاصدقاء ، أو دخول غرفتها ، حين تكون هى تعانى حل مسألة عويصة . ولا يمكنها ايضا أن تمنع المرضى منعملاء الطبيبين الشابين من دخول المسكن . وفى الليل ، تهب من رقادها على صوت دقات الجرس ، ثم خطوات المبعوثين الى برونيا لان امراة جزار تكاد تلد ..

وفوق هذا كله ، فان سكنى حى المذبح « لافيليت »

لا تطاق : ساعة الى السوربون ، ثم اجر مركبتي الامنيبوس الفادح ..

فعقد مجلس حربى عائلى قرر أن تسكن مارى الحى اللاتينى ، بالقرب من الجامعة والمعامل والمكتبات . واصر الزوجان الشابان على اقراض الفتاة بضعة الفرنكات التى يتكلفها النقل . وجردت مارى فى الغد حملتها ، لزيارة غرف الاسطح الخالية !..

ولم تترك ، الا على أسف ، شقة حى المذبح ، التى يسكنها الحنان والشجاعة والدماثة واللطف . فقدارتبطت مارى بزوج أختها برباط من المحبة الاخوية سيبقى مدى حياتهما . اما بين مارى وبرونيا فانه تجرى منذ سنوات قصة رائعة : قصة التضحية والتعاون والتفانى .

وكانت برونيا حاملا ، فوقفت تشرف على عفش أختها الصغيرة الرث وهو يربط ويحزم ، ويوضع لقرب المسافة على عربة يد ... ثم أخذوا ثلاثتهم الامنيبوس « الامبريال» الشهير ، وانتقلوا من « أمبريال » الى « أمبريال » ، وصحب كازيمير وزوجته الطالبة حتى مسكنها .. واستودعاها الله ...

أربعون روبلا في الشهر...

اجل ، ان عيش مارى سيظل أيضا ملبدا بالاكفهرار ، وسيبقى الخبز القفار نصيبها أمدا طويلا !.. فكانت الاشهر القلائل التى قضتها عند اختها ، بشارع ألمانيا ، مرحلة تأقلمت فيها . وهاهى الفتاةتغرق ببطء فى أمواج الوحدة . فالمخلوقات التى تحتك بها كتفاها لم يعد لها عندها وجود أكثر من الجدران التى تلمسها فى مرورها . وقلما يجىء حديث يقطع عليها الصمت الذى غلفت فيه أيامها ولياليها ، وستخصص منذ الان من حياتها أكثر من ثلاث سنوات للدرس ، وللدرس وحده حياة تتفق وحلمها ، حياة « كاملة » بالمعنى الذى يكون عليه كمال حياة الرهبان والمرسلين ..

ولابد اذن من أن تكون لهذه الحياة بساطة حياة النساك . فمنذ ماحرمت مارى نفسها ، اختيارا ، من مسكن أختها ومطعمها ، تحملت وحدها كافة نفقاتها . وكان دخلها ــ المكون من ادخارها على أجزاء ومن مبالغ صغيرة مما قد يرسله اليها والدها ــ لايزيد عن أربعين روبلا فى الشهر .

كيف يمكن أن تعيش امراة ، اجنبية ، عيشة مناسبة فى باريس ، فى ١٨٩٢ ، بأربعين روبلا فى الشهر ، بثلاثة فرنكات (اثنى عشر قرشا) فى اليوم ؟! عليها أن تدفع منها

(*) الاربعون روبلا يومئذ تساوى نحو ٢٠ ريالا مصريا

اجر غرفتها ، ووجبات طعامهـا ، وثمن ملابسـها ، وكراريسها ، وكتبها ، ومصاريف الجامعة ؟.. هـذه هى المشكله التى لابد لها من حل سريع . ولكن لم يحدث قط ان مارى لم تجد لاى مشكلة حلا !..

من مارى الى اخيها جوزيف ، فى ١٧ مارس سنة ١٨٩٣

انك بلا شك قد علمت من أبى أننى قررت السكن فى حى المدارس . وأنه ، لاسباب شتى ، كان ذلك امرا لزاما ولاسيما فى هذه المرحلة . وقد تحقق الان هذا المشروع . وانى أكتب اليك من مسكنى الجديد فى شارع فلاترس رقم ٣ . وهو غرفة صغيرة ، مناسبة جدا ، ومع ذلك رخيصة جدا . ففى ربع ساعة أستطيع أن أكون فى معمل الكيمياء ، وفى عشرين دقيقة فى السوربون . وبالطبع ، لولا معونة اختى وزوجها لما استطعت الى هذا الترتيب قط سبيلا .

وانى أشتغل خيرا الف مرة من بدء مقامى بشارع ألمانيا فقد كان من عادة زوج أختى الا يتركنى ابدا منفردة ، ولا يتصور اشتغالى بشىء غير الثرثرة الظريفة معه ! وقد اعلنت عليه حربا من أجل ذلك . ولم تمض أيام حتى اسف هو وبرونيا على فراقى ، وجاءا لزيارتى . فشربنا الشاى ، ثم نزلنـا لزيارة أصـدقائنا « س » الذين يسكنون الحى . هل تعنى زوجتك بأبينا كما وعدتنى ؟الا، فلتتق الله زوجتك من ابعادى عن البيت اطلاقا !.. فان ابى قد بدأ يحدثنى عنها بحنان قوى بحيث اخشى ان لا يلبث حتى ينسانى ...

ولم تكن مارى الطالبة الوحيـدة التى تعيش فى الحى اللاتينى بمائة فرنك فى الشهر . فان اكثر أترابها البولونيات فقيرات جهد فقرها . وبعضهن يشغل ، كل ثلاث منهن أو أربع ، مسكنا واحدا ، ويأكلن من طعام واحد . والبعض الاخر ، ممن يسكن وحدهن ، يخصصن مدة سـاعات فى

اليوم لتنظيف المسكن ، وطبخ المأكل ، وخياطة الثياب ورفوها ، ويتفنن فى سد رمقهن ، وستر أجسامهن ، بأناقة تزيد أو تقل ... وهى الطريقة التى كانت تتبعها برونيا ، وتجاوبت آفاق الحى اللاتينى بشهرتها فى طهى الطعام ..

وقد أنفت مارى من اتباع هذه المثل الحكيمة . فهى احرص على راحتها من أن تشارك صاحباتها مسكنا . وهى مأخوذة بالعمل بحيث لايمكن أن تلقى الى الراحة بالا ولو أنها مع ذلك أرادت ، لما استطاعت .. فقد كانت فى سن السابعة عشرة تعمل مربية فى أسر اجنبية ، وتعطى من الدروس الخصوصية سبع ساعات أو ثمانيا كل يوم فلم تجد فرصة تتعلم فيها كيف تدير بيتا . وكل ماتعلمته برونيا عندما كانت ربة بيت أبيها ، كانت مارى تجهله . وذاع فى الجالية البولونية : « أن المدموازيل سكلودوفسكى لا تعرف كيف يصنع المرق » !..

انها لا تعرف ، ولا تريد أن تعرف . لماذا تقضى صباحها فى دراسة خفايا اللحم المسلوق ، فى حين تستطيع أن تحفظ بضع صفحات من علم الطبيعيات ، أو تقوم فى المعمل ببعض التحليلات ؟

وكذلك محت من برنامجها الملاهى ، والمجتمعات ، والمقابلات ، والاتصال بالمخلوقات البشرية . وكذلك قررت أن الحياة المادية ليست لها أدنى أهمية ، ولاوجود لها . وتسلحت بهذا المبدأ ، فكونت لنفسها وجودا معتزلا ، متقشفا ، غريبا ، متوحشا .

شارع فلاترس ، بولفار بور رويال ، شارع دى فيانتين ... حيث سكنت على التوالى فى غرف تتشابه فى ضآلة الايجار ، والحرمان من أسباب الراحة . وكانت الاولى فى بيت فقير مفروش يقطنه الطلاب والاطباء

وضباط الثكنة المجاورة . ثم بحثت الفتاة بعد ذلك عن الهدوء المطلق ، فاستأجرت غرفة سطح «Mansarde» كغرف الخدم فى عمارة متوسطة . ففى مقابل خمسة عشر أو عشرين فرنكا فى الشهر وجدت عشا صغيرا يأتيه النور من كوة مفتوحة فى سقف البيت المنحدر .. فكانت ترى السماء من ذلك المربع الضيق المحدود . فلا دفء ، ولا نور ، ولا ماء ...

وزودت مارى هذا المسكن بكل ماتملك : من سرير حديدى يطوى ، والمرتبة التى حملتها من بولونيا !... وموقد ، ومنضدة من خشب أبيض ، وكرسى مطبخ ، وطشت غسيل ، ومصباح غاز ، عليه اباجور من الورق ثمنه قرش . وسطل كان عليها ان تملأه من الحنفية التى على السلم . ووابور سبرتو بحجم طبق الفنجان ظل ثلاث سنوات متوالية يكفيها لطهى الطعام !.. وصحنين، ومدية ، وشوكة ، وملعقة ، وفنجان ، وحلة !... ثم ابريق وثلاث كؤوس تصب فيها الطالبة الشاى ، كعادة البولونيين ، عندما تجىء أختها وزوجها لزيارتها ... وتستخدم مارى حقيبتها الخشبية الكبيرة دولاباومنضدة ومقعدا !..

ولا خدم ولا حشم !.. فان تكليف خادم بترتيب البيت ولو ساعة واحدة يخل بميزانية البيت !.. وكذلك الفيت مصاريف الانتقال ، فهى تقصد السوربون على القدمين ، واقل مايمكن من الفحم : كيس أو كيسان للشتاء كله ، تشتريه الفتاة من تاجر الركن وتحمله بنفسها ، دلوا دلوا ، الى الدور السادس ، على سلم صعب المرتقى وتقف عند كل دور تلهث ، وتسترد انفاسها . واقل مايمكن من الاضاءة : فلا يكاد يرخى الليل سدوله حتى تقصد الطالبة ذلك الملجأ السعيد الذى يدعى « مكتبة

سانت جنفياف » ، بجوار البانتيون ، حيث النـور والدفء . فتجلس ، وقد اعتمدت براسها على يديها ، الى احدى تلك المناضد الطويلة ، بولونية فقيرةتستطيع أن تعمل فى النور والدفء الى أن يغلقـوا الابواب فى العاشرة مساء . ثم تضيء مصباحها الزيتى حتى الثانية صباحا ... وعندئذ تحمر عيناها من التعب ، فتترك كتبها ، وتلقى بنفسها على فراشها .

وكل ماكانت تعرفه من شغل البيت هو الخيـاطة . فهى تعالج الثياب التى حملتها معها من فارسوفيا .. بالرفو والتنظيف وتغسلها فى الطست عندما تكون متعبة جدا من المذاكرة ، وحين تجد نفسهافى حاجة الىالتسلية والترفيه !.

ولم تكن مارى ترى مسوغا لاصابتها بالبرد أو الجوع فلكى لا تعود فتشترى فحما ـ وسهوا منها أيضـا ـ تغفل وضع الفحم فى المصطلى ، وتمضى فى كتابة الارقام، والمعادلات ، دون أن تتنبه الى أن أصابعها قد صارت عديمة الحس ، وان كتفيها ترتعشان . ولو انها تناولت حساء ساخنا أو قطعة من اللحم لاستردت قواها . ولكن مارى لا تعرف صنع الشوربة !.. ومارى لا تستطيع أن تنفق فرنكا وتضيع نصف ساعة فى تحضير الكستليتة! وقلما دخلت دكان جزار ، ويندر أن تدخل مطعما .. فهو كبير النفقة . فظلت عدة اسابيع لاتأكل غير الخبز المدهون بالزبد وتشرب الشاى . فاذا أرادت أن تقيم لنفسها وليمة دخلت حانوت لبـان فى الحى اللاتينى وتناولت بيضتين ، أو اشترت قطعة من الشوكولاتة أو شيئا من الفاكهة .

وسرعان ما تحولت الفتاة التى غادرت فارسوفيا منذ بضعة أشهر قوية ناضرة الى فتاة هزيلة سقيمة بسبب

هذه الحمية . وكانت غالبا كلما نهضت عن منضدتها اعتراها الدوار . فلا تكاد تصل الى سريرها حتى تفقد الرشد . فاذا ماتنبهت تساءلت : لماذا اغمى عليها لا فتظن نفسها مريضة ، وتستخف بمرضها كما تستخف بالقوت ولا يخطر لها انها انما سقطت اعياء ، وان داءها هو الجوع وحده .

وبالطبع لم تكن تباهى فى بيت أختها بذلك النظام المدهش لحياتها . ففى كل مرة تزورها ترد بعبارات قصيرة مبهمة عن أسئلتها الخاصة بتقدمها فى فن الطهى ، وما تتناوله كل يوم من ألوان الطعام !. فاذا قال زوج اختها ان صورتها لاتدل على صحتها ، أكدت انها مرهقة بالعمل ، فيرى أن ذلك فعلا هو السبب الوحيد لسقامها ثم تبتعد بهما عن الاشتغال بأمرها ، باشارة تدل على عدم الاكتراث ، وتبدأ تلعب مع بنت اختها الطفلة التى كانت تحبها حبا جما .

ولكن حدث يوما ان اغمى على مارى فى حضرة احدى رفيقاتها ، فهرعت هذه الى شارع المانيا . فجاء كازيمير دلوسكى بعد ساعة يقفز درجات الادوار الستة حتى غرفة السطح ، فراى الفتاة شاحبة شيئا ما ، وهى عاكفة على درس الغد !.. ففحص اخت زوجه ، وفحص الصحون النظيفة والحلة الفارغة ، والغرفة التى لم يكتشف فيها من المؤونة الا ربطة شاى صغيرة . ففهم من فوره وبدأ الاستجواب :

ــ ماذا أكلت اليوم ؟

ــ اليوم !.. لا ادرى .. فقد تغديت الساعة ..

فعاد صوت كازيمير الذى لايرحم :

ــ ماذا أكلت ؟

ــ بعض الكرز .. ثم .. أشياء كثيرة ..

وأخيرا ، لم يكن لها بد من الاعتراف ، فهى منذ مساء أمس تعيش على حزمة من الفجل ونصف رطل من الكرز وقد اشتغلت حتى الساعة الثالثة صباحا ، ونامت أربع ساعات . ثم غابت عن الصواب .

فلم يلق الطبيب خطبا . بل كان ثائرا ساخطا : ثائرا على مارى ، التى كانت عيناها الرماديتان تنظران اليه بتعب عميق وفرح برىء .. ساخطا على نفسه ، يتهم نفسه بأنه لم يسهر كما ينبغى على « الصغيرة » التى عهد بها اليه المسيو سكلودوفسكى . فلم يستمع الى احتجاجات أخت زوجه ، بل ناولها معطفها وقبعتها ، وأمرها أن تجمع كتبها وكراريسها التى قد تحتاج اليها خلال الاسبوع القادم . ثم أخذها ، وهو صامت ، ساخط ، آسف ، الى حى المذبح ، ومن عتبة الشقة ، نادى برونيا التى هرولت الى المطبخ .

وبعد عشرين دقيقة .. كانت مارى تزدرد الدواء الذى وصفه لها كازيمير : قطعة هائلة من البفتيك نصف مشوى وصحنا من البطاطس المحمر .. فاستردت وجنتاهالونهما كأن ذلك كان بمعجزة !. وفى الساعة الحادية عشرة مساء دخلت برونيا نفسها الغرفة التى وضعت فيها سريرا لاختها ، واطفأت المصباح . وهكذا ظلت مارى خلال بضعة أيام تأكل جيدا وتنام جيدا ، فتم لها « الاستشفاء » واستردت قواها . ثم عادت الى غرفة السطح ، نظرا لاشتغالها بدنو الامتحانات ، واعدة بأن تكون عاقلة فى المستقبل ..

ومن اليوم التالى ، عادت ثانية للعيش على الهواء !..

تعمل !.. تعمل !.. مندفعة بكليتها فى دراستها ، منتشية بخمر نجاحها .. تحس أنها قديرة على أن تحفظ كل ما اكتشفه البشر .. فهى تتتبع دروس الرياضيات ،

والفيزيقا ، والكيمياء . وهى تحب جو التجارب العلمية ، وتسعد اذ يعهد اليها البروفسور ليبمان ببعض البحوث التى تظهر فيها فطنتها وبراعتها . انها تحب معمل فزيولوجيا السوربون هذا ، الذى يتطلب جوه الالتفات والصمت ، وستظل متعلقة به الى يومها الاخير .. فهى واقفة ، واقفة على قدميها دائما ، أمام منضدة البلوط ، التى تحمل ميزانا دقيقا ، وقنانى وأباريق من البلور ، يشتعل تحتها لهب الغاز ، وتتصاعد منها أبخرة ملونة ، وتغلى فى جوفها التراكيب !.. فلا تكاد تفرق بين مارى فى معطفها الكتانى المجعد ، وبين أولئك الشبان الذين ينحنون الى جانبها فوق الانابيب والبواتق .. فهى مثلهم ، تقدر صفاء الذهن وتركيز الفكر فى ذلك المكان .. وهى لا تحدث ضجيجا ، ولا تنطق بكلمة لا نفع منها .

شهادة ليسانس .. ليست تكفى !.. ان مارى تقرر الحصول على شهادتى ليسانس : واحدة فى الفيزيقا (علم الطبيعة) والثانية فى الرياضيات . وقد تضخمت مشروعاتها ، التى كانت بالامس متواضعة ، بسرعة ، حتى لم تجد وقتا ، ولم تجد جراة على أن تسر بها الى أبيها المسيو سكلودوفسكى ، الذى كان ينتظر بفارغ الصبر عودتها الى بولونيا . وتراه فى قلق خفى على تلك التى أنجبها مستقلة ، وقد طفقت تحلق بأجنحتها ، بعد طول سنين من الخضوع والتضحية .

من مسيو سكلودوفسكى الى برونيا ــ ٥ مارس ١٨٩٣ :

« ... ان خطابك الاخير يشير ، لاول مرة ، الى عزم مانيا على تأدية امتحان الليسانس . وهى لم تذكر لى قط ذلك فى رسائلها مع سؤالى آياها عن هذا الامر . فاكتبى الى على وجه الدقة متى يكون ذلك الامتحان ، وفى اى تاريخ ترجو مانيا اجتيازه ، وماهى تكاليفه للحصول

على الدبلوم ؟ فلابد لى من أن أفكر فى الامر مقدما حتى أستطيع ارسال النقـود الى مانيا ، وعلى ذلك تتوقف مشروعاتى الشخصية .. فاذا ماعادت مانيـا شاركتنى مسكنى الحالى وهو مناسب جدا ، وكونت لنفسها تلاميذ شيئا فشيئا ، وقاسمتها ما لدى ، فتتغلب على العقبات »

ومهما تكن مارى نفورا ، فهى لا يمكن أن تتجنب كل يوم لقاء مخلوقات بشرية . وبعض الطلاب كانوا يبـدون نحوها اللطف والود . فالاجنبيات فى السوربون ينظر اليهن باعتبار . فهؤلاء الفتيات الفقيرات ، الموهوبات عادة ، قد جئن من أماكن سحيقة نائية الى الجامعة التى أسـماها الشقيقان جنكور : « الام مرضع الدرس » ، فيثرن ميل الشبان الفرنسيين وعطفهم . فصارت الفتاة البولونيـة أليفة ، اذ رأت أن زملاءها يريدون أن يعبروا لهـا عـن التقدير والعطف ، وعما هو أكثر من العطف أحيـانا .. ولابد أن مارى كانت جميلة جدا ، بدليـل أن صديقتها الآنسة ديدينسكا Dydynska — الشابة الفاتنة التى جعلت من نفسها على صاحبتها حارسة — قد هددت يوما بضربات مظلتها المعجبين المحتشدين حول الطالبة !..

وقد تركت الفتاة لصاحبتها ديدينسكا مهمة دفع هذه الالوان من التقرب اليها ، فلم تكن تهمها ، وتقربت هى من الرجال الذين لا يتملقونها ، والذين كانت تستطيع أن تتحدث معهم عن عملها . فبين درس فى الفيزيقا وحصة فى المعمل ، تحادث بول بانلفيه ، وجان باران ، وشـارل موران ، الذين سيصبحون أساطين العلم الفرنسى الحديث ... ذلك أن مارى لم يكن لديها وقت تمنحه للصـداقة أو للحب . فهى تحب الرياضيات والفيزيقا !..

وكان ذهنهـا من الدقـة ، وكان ذكاؤها من الصفاء العجيب ، بحيث لم يكن الهوس « السلافى » ليجيء فيعطل

مجهودها . وهى تستند الى ارادة حديدية ، والى ذوق مهووس بالكمال ، والى عناد لا يمكن تصوره . وقد وصلت الى كل أهدافها بنظام ، وصبر : فكانت الاولى فى « ليسانس الطبيعة » فى ١٨٩٣ ، وكانت الثانية فى« ليسانس الرياضيات » فى ١٨٩٤ .

وقضت بأن التعمق فى معرفة اللغة الفرنسية لابد منه . فبدلا من أن تظل تهدر أو تقرقر كالحمام ، عبارات وجملا رنانة فاسدة ، مدى شهور ، كما يفعل كثير من الاجانب ، حفظت قواعد اللغة والاملاء ، واضطهدت كل مافى لهجتها من عجمة ..

وتمكنت بروبلاتها الاربعين من العيش . وبحرمان نفسها مما ليست فى غنى عنه ، استطاعت احيانا أن تمنح نفسها بعض الترف : مثل سهرة فى المسرح ، او نزهة فى الخلاء ، حيث تقطف من الغاب زهرا .. فالفلاحة القديمة التى فيها لم تمت . لقد تاهت فى المدينة الكبرى ، ولكنها تترقب منبت ورق الشجر ، ولا تكاد تجد فى يدها قليل وقت وقليل مال حتى تخف الى الغابات والاحراج ..

وجاء شهر يوليه : الحمى ، السرعة ، الامتحانات المروعة كالمحاكمات الجنائية .. الصباحيات الساحقة .. حيث تحبس مع ثلاثين طالبا فى قاعة الامتحان ، فاذا بها ، ترى الاحرف ، من تهيج اعصابها ، ترقص امام عينيها ، فتحدق دقائق عديدة ، وهى لاتستطيع أن تقرأ الورقة المنذرة ..

ثم تجىء الساعة المشهودة التى يحتشد فيها الطلاب واهلهم فى المدرج لسماع اسماء الناجحين حسب ترتيبهم فى الفوز .. واذا بها تسمع صوت الممتحن يقطع السكون باسم هو فى راس جميع الاسماء ، اسمها : « مارى سكلودوفسكى » ! ..

ليس من الناس من يحزر تأثرها . فتنتزع نفسها من

تهانىء رفاقها ، وتتملص من الزحام ، وتبتعد ... **فقد** دقت ساعة الاجازة ، والسفر الى بولونيا ، والعودة الى البيت !..

هنالك يتناوب دعوتهـــا جميع آل سكلودوفســكى مستنكرين ما أصابها من هزال . فتأكل وتشرب وتسمن. فستكون أمامها سنة مدرسية أخرى تستطيع فيهـا أن تعمل ، وأن تتعلم ، وأن تجوز امتحانا جديدا ، وأن تضعف وتنحف !..

وفى كل مرة يعود فيها الخريف يبدأ القلــق يلح على مارى . فمن أين لها بالنقود ؟.. وكيف تعود الى باريس ؟ ان كل ماادخرته قد ذهب اربعين روبلا ، فأربعين روبلا!. وتذكر خجلة مايضربه أبوها على نفسه من الحرمان ليعينها ... وفى ١٨٩٣ بدا الموقف موئسا ، فكادت تعدل عن رحيلها ، لولا وقوع معجزة .. فتلك المدموازيل ديدينسكا التى كانت فى العام الماضى تدفع عنها ، بضربات شمسيتها، المعجبين المتهافتين عليها ، قد بسطت عليها حمايتها بأفضل من ذلك . فقد كانت واثقة من أن مارى موعودة بمستقبل عظيم ، فهزت أرض فارسوفيا وسماءها لتحصل لها على « بعثة الكسندروفيتش » : وهى جائزة مخصصة للطلاب المتفوقين الذين يريدون متابعة دراستهم فى الخارج .

ستمائة روبل !.. ما يكفيها للعيش خمسة عشر شهرا ! ومارى ، التى تعرف كيف تطلب أشياء كثيرة لسواها ، ماكانت أبدا ليخطر لها سؤال هذا العون ، ولا ما يتطلبه من مساع شاقة ..فبهرت ،وسحرت، وطارت الى فرنسا

من مارى الى أخيها جوزيف ، فى ١٥ سبتمبر ١٨٩٣ (من باريس) :

اقد استأجرت غرفتى بالدور السادس ، فى شـــارع

نظيف لطيف يناسبنى تماما . ونافذته تغلق جيدا، وارضها خشب لا بلاط .. وهى اذا قورنت بفرفة العام الماضي تعد قصرا منيفا !.. وهى تكلف ١٨٠ فرنكا فى السنة (٦٠ قرشا شهريا !) فهى أقل ستين فرنكا من الفرفة التى حدثنى عنها ابى ، والتى لم أجدها مع ذلك خالية .

افى حاجة أنا الى أن أعبر لك عن فرحى الجنونى بعودتى الى باريس ؟ لقد كان يشق على كثيرا أن افترق من جديد عن أبى ، ولكننى أطمأننت على صحته وراحته ، وادركت غناه بك عنى مادمت تسكن فارسوفيا . وأنا ، ان حياتى كلها على كف القدر ·· فأستطيع اذن أن ابقى هنا دون تأنيب ضمير .

من مارى الى جوزيف ـ ١٨ مارس ١٨٩٤

أن حياتى متشابهة ليس فيها مايستحق الذكر والرواية بيد أنى أشكو من ان الايام قصيرة جدا ، وانها تمر سريعة جدا . ولولا أن المرء يحب عمله لضاق ذرعا ، فان ماتم منه لا يكاد يبدو ، ومابقى منه لايكاد ينتهى ...

أريدك على أن تفوز بتقديم رسالة الدكتوراه .. فالحياة فيما يلوح ليست سهلة ميسرة على أحد منا .. ولكن لابد من المثابرة ، ومن الثقة بالنفس !.. ولابد من الاعتقاد بأن المرء موهوب فى شىء ، وهذا الشىء ، لابد من بلوغه مهما يكن الثمن .. فلعل الرياح تواتينا بما نشتهى فى اللحظة التى يعصف فيها اليأس بسفينتنا ..

يا لنعمة هذه البعثة : بعثة الكسندروفتش ! .. ان مارى ، فى تقتير جارح ، تحاول أن تمد فى عمر الستمائة روبل لتبقى أطول مدة فى جنات المدارج والمعامل !.. وبعد ذلك ببضع سنوات ، سوف نراها بهذا التقتير الجارح أيضا تدخر ستمائة روبل من أول ماتربحه ـ من بحث فنى كلفتها به جمعية تشجيع الصناعة الوطنية ـ وتذهب

فتحمل المال الى سكرتير المؤسسة الكسندروفتش ، الذى ذهل من رد المنحة ، وهو عمل لانظير له فى تاريخ المؤسسة!

وكانت مارى قد تقبلت هذه المنحة على أنها رمز ثقة ، ودين شرف . فرات بخلقها القوى القويم أن من الاخلال بالامانة أن تحتفظ لحظة واحدة أكثر مما يجب بهذا المال ، الذى يمكن الآن أن تعان به فتاة فقيرة أخرى .

ربما لم تفضل « التلميذة الخالدة » فى بقية حياتها اياما، مهما كانت مجيدة أو سعيدة ، على أيام البؤس والعناء فى الحى اللاتينى . وهى لاشك قد مرت بها حالات هناء وظفر بعد ذلك ، غير أنها لم تكن قط فرحة بنفسها ، أو فخورا بها ، كما كانت فى خلال جهادها فى وسط الحرمان والنيران ... أجل ، هى فخور بفقرها ، فخور بعيشها وحدها ، مستقلة ، فى بلد أجنبى ، تعمل تحت المصباح ، فى مسكنها البئيس مساء ، فيبدو لها أن قدرها ، الذى مازال ضئيلا، يلقى لقاء خفيا تلك الشخصيات العظيمة التى تعجب بها ، وأنها تصير الرفيق المتواضع المجهول لكبار العلماء فى الماضى ، العاكفين مثلها فى صوامعهم الضئيلة النور ، وقد انتزعوا أنفسهم مثلها من الزمان ، غيورين مثلها على عقولهم يحملونها الى ماوراء علوم البشر المعروفة ...

أجل ، ان هذه السنين الاربع المجاهدة ليست فقط أسعد سنى مارى كورى فحسب ، بل هى كذلك أكملها فى عينيها ، وأقربها الى قمة الرسالة الانسانية التى يتجه اليها قلبها ، ويرتفع اليها بصرها .. قد يكون المرء فتيا ، وحيدا ، يفنى فى الدرس ، ولعله لايكون لديه « ما يقيم أوده » ، وهو مع ذلك يعيش ملء الحياة .. ان حماسة لاحد لها قد منحت البولونية التى فى السادسة والعشرين قوة تجاهل ضروب الحرمان التى تصيبها ، وتمجد وجودها المعدم .. وسيجىء ، فيما بعد : الحب ، والامومة ،

ومشاغل الزوجة والام . ومشاكل الداب الساحق ، تجيء لتحل فى الحياة الحقيقية محل هده الرؤيا ... أما الآن ، فى هده اللحظة السحرية التى هى فيها اشد فقرا واملاقا مما سوف تكون أبدا ، فهى لا تكاد تحس ذلك ، كأنما هى طفلة ... فهى تحلق بخفة فى عالم آخر ، لا يرى فكرها دائما إلا أنه العالم الوحيد النقى ، والعالم الوحيد الحقيقى

ولا يمكن أن يكون كل يوم سعيدا فى مغامرة كهذه . فهناك الحوادث غير المنتظرة التى تقع فجأة وتقلب كل شيء ، وتبدو أن لا علاج لها : مثل تعب يستحيل التغلب عليه ، ومرض قصير يتطلب العناية . وكذلك مصائب أخرى مروعة : ان حذاءها الوحيد ، الذى خرقت نعله ، يتفتت قطعا ، ولابد من شراء حذاء سواه !. فهى اذن الميزانية تنقلب رأسا على عقب لعدة أسابيع ، ولابد من تحصيل هذا المبلغ الكبير وتعويضه من الطعام ، وغاز الاستصباح

ان الشتاء هذه السنة يشتد ويمتد ، ويثلج غرفة السطح ... البرد شديد جدا بحيث لا تأخذ مارى سنة من النوم ، انها ترتجف من القر ، وقد انتهى خزينها من الفحم . ولكن ماذا ؟.. أتترك فتاة فارسوفيا الشتاء البارىسى يتغلب عليها ؟ .. فهى تضيء المصباح مرة أخرى ، وتنظر حولها ، وتفتح حقيبتها الخشبية ، وتجمع ماعندها من ثياب ، وتضع أكثر مايمكن وضعه منها على جسدها ، ثم تندس فى فراشها ، وتجمع الباقى من ملابسها فوق الغطاء !.. لايزال البرد شديدا جدا . تمد مارى ذراعها وتشد الكرسى الوحيد عندها ، وترفعه ، وتضعه فوق ملابسها المكدسة عليها ، لتوهم النفس بأن فى الثقل حرارة !

ولم يعد أمامها الا انتظار النوم ، هكذا ، بلا حراك ، حتى تظل تلك «السقالة» قائمة وهى تحتها قاعدتها الحية !.

بيير كورى

محت مارى من برنامج حياتها الحب والزواج .

ليس هذا غريبا جدا . هذه هى .. فتاة فقيرة خاب املها وذلت كبرياؤها فى حلمها الاول الجميل ، فتقسم لنفسها الا تحب بعد ذلك ابدا . زد على هذا أنها طالبة سلافية ، تدفعها مطامح فكرية ، فتقرر بسهولة أن تقلع عما يفرض العبودية ، ويكون هناء أترابها وشقاءهن ، حتى تتمكن من أن تتبع استعدادها وتلبى نداء مواهبها ، وفى كل العصور نرى النســاء اللواتى يتلهفن على أن يصرن فنانات عظيمات او موسيقيات شهيرات ينبذن قاعدة : الحب والامومة .

وقد كونت مارى لنفسها عالما خفيا شـديد القوى ، لا رحمة فيه ولا تسامح ، يسيطر عليه اشتهاء العلم ويتحكم فيه . ولمحبة الاسرة ، وللتعلق بوطن مغلوب على أمره ، مكانهما أيضا فيه . وكفى ! فلا شىء بعد له حساب ، ولا شىء غير هذا له وجود . هكذا قـــررت ، تلك المخلوقة الجميلة ، التى كانت فى السادسة والعشرين ، والتى تعيش وحدها فى باريس ، والتى تلقى كل يوم شبابا فى مدارج السوربون ومعامله .

فهى مأخوذة بأحلامها ، مطاردة بالبأساء ، مضناة بعمل هائل ، لا تعرف ماالفراغ وما اخطاره ومفاسده . وانفتها

وحياؤها يحميانها ، وكذلك حذرها : فمنذ مابى السادة « ز ... » فى تلك العزبة البولونية النائية ، أن يتخذوها كنة ، وهى مقتنعة بأن الفتيات اللواتى لا مهن لهن لايجدن عند الرجال حبا ولا حنانا . فجعلتها النظريات الجميلة والتأملات المريرة تتصلب وتتشبث باستقلالها .

لا . لم يكن غريبا ولا مدهشا أن بولونية نابغة ، قد عزلها وجود ماحل ، قد حفظت نفسها لعملها . ولكن من المدهش الرائع حقا أن عالما نابغا ، فرنسيا ، قد حفظ نفسه لهذه البولونية ، وانتظرها دون وعى منه .. ومن عجب أنه ، فى الوقت الذى كانت فيه مارى بشقة شارع نوفولبيكى ، وهى تكاد تكون صبية صغيرة ، تحلم بالحضور يوما للدرس فى السوربون ، كان بيير كورى يحلم - وهو عائد الى بيته من هذا السوربون نفسه ، بعد أن قام فيه باكتشافات فيزيقية هامة - بما سجله فى يومياته ، فى هذه السطور الحزينة :

« ... ان المرأة ، أكثر منا بكثير فى حبها وتعلقها بالحياة لتحيا . والنساء النابغات نادرات . وعلى ذلك ، فعلينا ، عندما يدفعنا حب خفى ، نريد به أن نعطى كل أفكارنا لعمل يبعدنا عن الانسانية التى هى أقرب الينا ، علينا أن نكافح النســـاء ... فالام تريد قبل كل شىء أن تحب ولدها ، ولو جعل منه الحب ولدا أحمق . والخليلة تريد أيضا امتلاك عشيقها حتى لتجد أنه من الطبيعى جدا تضحية أجمل عبقريات الدنيا من أجل ساعة غرام . والكفاح يكاد يكون دائما غير متكافىء ، لان للنساء منه الجانب الاقوى فهن باسم الحياة والطبيعة يحاولن ردنا اليهن »

ومرت السنون ، ووقف بيير كورى نفسه جسما وروحا على البحث العلمى ، فلم يتزوج واحدة من الفتيات التافهات اللطيفات اللواتى عرضـن له فى طريقه . وهو الآن فى

الخامسة والثلاثين . وهو لايحب أحدا .

وعندما كان يقلب مذكراته عفوا ، وقد أهملها من زمن طويل ، يعيد قراءة تلك التعليقات التى كتبت يوما بالحبر، فشحب الحبر على مر الزمان ، استرعت بصره ثلاث كلمات ملؤها الاسف والحنين الى المجهول :

« ... النساء النابغات نادرات .. »

« حين دخلت ، كان بيير كورى واقفا بباب الشرفة . بدا لى فتيا جدا برغم بلوغه الخامسة والثلاثين . راعنى تعبير نظرته الصافية ، ومظهر خفيف لعدم الاهتمام أو للاستسلام ، فى قامته العالية . كان كلامه البطىء قليلا ، فى اتزان ، وكانت بساطته ، وابتسامته التى فيها من الشباب والوقار معا ، مما يوحى بالثقة . وبدأ بيننا حديث لم يلبث أن صار وديا : وكان الفرض منه مسائل علمية ، كنت سعيدة بأخذ رايه فيها »

بهذه العبارات البسيطة الخفرة ، وصفت مارى أول لقاء بينهما فى أوائل عام ١٨٩٤

فقد حدث أن بولونيا يدعى المسيو كوفالسكى Kouvalsky وهو أستاذ الفيزيقا فى جامعة فريبورج ، جاء الى فرنسا لقضاء شهر العسل مع عروسه ، التى سبق أن تعرفت بها مارى . وكان القصد من رحلته علميا أيضا ، لأن المسيو كوفالسكى كان سيلقى محاضرات فى باريس ، ويحضر جلسات جمعية العلوم الفيزيقية . فلم يكد يصل حتى سأل عن مارى ليطمئن على حالها . أخبرته الطالبة بما كان يشغلها فى ذلك الوقت : فان جمعية تشجيع الصناعة الوطنية قد كلفتها ببحث فى الخواص المغنطيسية لأنواع صلب مختلفة ، فبدأت بحثها فى معمل البروفسور ليبمان ، ولكن كان عليها أن تحلل معادن ، وأن تجمع عينات منها ، وذلك يتطلب استعدادا ، ومكانا لا يتسع له

معمل مزدحم بما فيه . فهى لا تدرى ماذا تصنع وأين تقوم بتجاربها .

فقال البروفسور كوفالسكى بعد ما فكـــر لحظات : « عندى فكرة . فأنا أعرف عالما عظيم القــدر يعمــل فى مدرسة الطبيعة والكيمياء بشارع لومون Lomond ، فلعل لديه مكانا خاليا . وهو على أى حال قد يشير عليك برأى . فتعالى عندنا غدا لنشرب الشاى بعد العشاء ، وسأرجو من الشاب الحضور . ولعلك تعرفين اسمه ، فهو بيير كورى » .

وفى خلال تلك السهرة الهـــادئة ، فى احــدى غرف « البنسيون » العائلى الذى نزله الزوجان الشابان ، نشأ للحال استلطاف قرب بين العـــالم الفــرنسى والطــالبة البولونية .

وكانت لبيير كورى جاذبيته الخاصة ، مزيج من الوقار والدماثة . كان طويل القامة . ثيابه الفضفاضة ، وليست من آخر زى ، يعوم فيها جسمه شيئا ما ،ومعذلككانت منسجمة عليه . وهو ، من حيث لا يدرى ذو أناقــة طبيعية . وكانت يداه طويلتين ، وأصابعه حساسة ،وكان وجهه متناسب التقاطيع ، وكانت عيناه مطمئنتين لا مثيل لنظراتهما العميقة الصافية المترفعة ..

ومع أن هذا الرجل كان شديد التحفظ لا يرفع صوته البتة ، فقد كان من المستحيل ألا يلحظ المرء آية ذكائه النادر ووجاهته . وفى حضارة كحضارتنا ، التى قل أن يكون التفوق الذهنى فيها حليفا للسمو الروحى ، يكاد يعد بيير كورى نوعا انسانيا فذا . فهو عقل عظيم وهو خلق نبيل .

والاهتمام الذى شعر به أول وهلة نحو الطالبة الأجنبية القليلة الكلام ، لم يلبث أن تضاعف بتطلع لا حد له . فهذه

الآنسة سكلودوفسكى حقا شخصية مدهشة ... هى اذن بولونية ، وقد جاءت من فارسوفيا لتحضر دروس السوربون ! وكانت فى العام الماضى الأولى فى ليسانس الطبيعة ! وهى بعد بضعة اشهر ستمتحن فى ليسانس الرياضيات !! واذا كان ، بين عينيها الرماديتين ، تلك التجعيدة الصغيرة ، فذلك لأنها لا تدرى اين تضع أجهزتها لدراسة مغنطيسية المعادن الصلبة !!

فالحديث الذى بدأ أولا عاما ، لم يلبث ان تحول الى حوار علمى بين بيير كورى ومارى سكلودوفسكى .. بدأت مارى بشىء من العناية ، توجه اسئلة ، وتصغى الى مقترحات بيير .. وهو ايضا قد بدأ يروى لها مشروعاته ، ويحدثها عن ظواهر مبحث التبلور الذى يغريه ، فهو يحقق خواصه . وفكر العالم الشاب فى انه : ما اعجب ان يتحدث الى امرأة فى الأعمال التى يحبها ، مع استخدام الاصطلاحات الفنية ، والعبارات المعقدة ، وأن يرى تلك الفتاة : جميلة وشابة ! تتأثر ، وتدرك ، وتناقش أيضا بعض التفاصيل ببعد نظر لا يخيب ! .. ما الذ هذا ، وما أمتعه ! ..

نظر الى شعر مارى ، والى جبينها المقوس العالى . والى يديها اللتين وشمتهما ، او وصمتهما ، أحماض المعمل ، وخشنتهما اشغال البيت .

بلبله ما رآه من رشاقتها التى زاد فى تأثيرها خلوها من كل دلال .. واستعادت ذاكرته ما قاله له مضيفه عن الفتاة حين دعاه واياها : انها اشتغلت مدى سنين قبل أن تتمكن من ركوب القطار الى باريس ، ليس عندها مال ، هى تعيش وحدها ، فى غرفة سطح ...

فسألها ، دون أن يعرف السبب :

ـ هل ستبقين فى فرنسا دواما ؟

فمرت سحابة على محيا ماريا ، واجابت بنغمتها الشجية:
ـ يقينا لا . فاذا وفقت فى امتحان الليسانس هذا الصيف ، عدت الى فارسوفيا . وانى لأحب العودة الى هنا فى الخريف ، ولكن لا أدرى ، فاذا ما تهيأت لى الأسباب ، فسأكون فيما بعد ، معلمة فى بولونيا ، وأحاول ان اكون نافعة . وليس للبولونيين أن يتخلوا عن بلادهم .

وتحول الحديث الذى اشترك فيه المسيو كوفالسكى وزوجته ، الى الحديث عن الضغط الروسى المؤلم . وذكر المبعدون الثلاثة ذكريات وطنهم ، وتبادلوا أنباء أهلهم وأصدقائهم .. وراح بيير كورى يسمع مارى تتحدث عن واجباتها الوطنية ، مدهوشا ، مستاء استياء غامضا لا يعلم له باعثا ...

فهو عالم طبيعى متشبع بعلمه ، لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن أن تشغل هذه الفتاة الموهوبة هبات خارقة للعادة ، فكرة واحدة تخرج عن محيط العلم !! وكيف يمكن أن تكون كل مشروعاتها للمستقبل هى : توجيه قواها للنضال ضد القيصرية !!

ود لو عاد فرآها ..

***

من هو بيير كورى ؟

هو عالم فرنسى عبقرى ، يكاد يكون مجهولا فى بلاده ، ولكنه يقدر تقديرا عظيما من زملائه الأجانب .

ولد فى باريس ، بشارع كوفييه Cuvier ، فى ١٥ مايو ١٨٥٩ ، وهو ابن طبيب يدعى الدكتور أوجين كورى ، وهو نفسه ابن طبيب أيضا . والأسرة من أصل الزاسى ، بروتستانتية المذهب ، « برجوازية » متوسطة ، تخرج جيلا بعد جيل من العلماء والمفكرين . ووالد بيير ، الذى اضطر الى مزاولة الطب لكسب عيشه ، هو من انصار

البحث العلمى . وكان محضرا فى معمل متحف التاريخ الطبيعى فى باريس ، ومؤلف بحوث فى عدوى السل .

وقد اتجه ولداه جاك وبيير منذ نعومة اظفارهما الى العلوم . أما بيير فقد كان مستقل الراى خيالى الذهن ، فلم يخضع للعمل الدراسى المنظم ، ولم يذهب الىمدرسة قط . فأدرك الدكتور كورى أن ولده الفريب الطباع هذا لن يكون تلميذا نجيبا ، فبدأ هو نفسه بتعليمه ، ثم عهد به الى الأستاذ القدير « بازيل » Basille ، فآتت التربية الحرة ثمارها . ونال بيير كورى بكالوريا العلوم فى السادسة عشرة ، والليسانس فى الثامنة عشرة ، وعين فى التاسعة عشرة محضرا للبروفسور « ديزان » Desains بكلية العلوم ، وظل خمس سنوات . وقام ببحوث مع أخيه جاك الذى كان أيضا ليسانسيه ومحضرا بالسوربون . ولم يلبث الشقيقان ان أعلنا توفيقهما الى اكتشاف ظاهرة هامة ادت الى اختراع جهاز جديد يقيس بالدقة الكميات الضعيفة من الكهرباء .

وافترق الأخوان فى ١٨٨٣ على أسف ، لأن جاك عين أستاذا فى جامعة مونبلييه ، واصبح بيير رئيسا للبحوث فى مدرسة الطبيعة والكيمياء بمدينة باريس . وعلى الرغم مما كانت تستغرقه العناية بطلاب المدرسية من وقت كثير ، فقد تابع أعماله النظرية فى مبحثالتبلورالفيزيقى. هذه الأعمال التى ادت الى اعلان « مبدأ التناسق » الذى أصبح من قواعد العلم الحديث . ثم استأنف أبحاثه فى المغنطيسية ، وحصل على نتيجة جوهرية باكتشاف قانون أساسى أطلق عليه « قانون كورى » . ولهذه الجهود التى توجت بنجاح باهر ، ولاهتمامه الشديد بتلاميذه الثلاثين ، تلقى بيير كورى من الحكومةالفرنسية، فى ١٨٩٤ ، بعد خمسة عشر عاما فى عمل متواصل ،

مرتبا شـــهريا قدره ثلاثمائة فرنك فى الشهر (تسعة جنيهات مصرية !!) أى نحو ما يكسبه عامل فى مصنع!..

ولكن عندما جاء أشهر علماء الانجليز الى باريس ، وهو اللورد كلفن Lord Kelvin ، لم يكتف بالذهاب الى جمعية علوم الطبيعيات لسماع بحوث بيير كورى ، بل كتب هذا الشيخ الجليل الى العالم الشـــاب ، وعبر له عن اعجابه بأعماله ، وسأله موعدا . وفى ٣ أكتوبر ١٨٩٣ رغب اليه أن يسمح له بزيارته فى معمله .. وتحدث الرجلان فى هــذه الزيارات مدى ســاعات فى الشـــئون العلمية ، وما كان أشد دهشة العالم الانجليزى عندما رأى بيير كورى يعمل بلا مساعدين ، فى مكان يرثى له ، وينفق جل وقته بلا مقابل تقريبا ، وأن أحدا فى باريس لا يعرف اسمه ، فى حين يعده اللورد كلفن أستاذا ! ..

وكان بيير كورى رجل اباء وترفع ، لا يرضى أن يرشح نفسه لوظيفة تحسن مركزه المادى ، عند استعفاء أحد الأساتذة أو موته .. فهو يضن بعقله أن يشغل بسفاسف الترصد للوظائف والدرجات . وهو كذلك يرفض وسام « سعف الأكاديمى » الذى اقترحه له مدير المدرسة .

وكان يمكن بيير كورى أن يكون كاتبا ، فان له من تفكيره وأسلوبه مزايا الكاتب . وكان يمكن أن يكون شاعرا ، وفنانا ، لأنه أوتى الحساسية والمخيلة وأسباب التثبيط والقلق التى لهم ، كما تدل على ذلك يومياته خلال ١٨٨١ التى يتساءل فيها عمــا سيصيب من دهره ، وينـــادى الكبرياء والطموح ليدفعاه الى الأمام ، وينقلاه من عيشه الخامل ...

وظل الشاعر ، والعـــالم ، فى شـــخص بيير كورى ، كلاهما يحرص على التقرب من الفتاة البولونية . فرآها مرتين أو ثلاثا فى اجتماعات جمعية علوم الطبيعيات ،

حيث كانت تستمع الى العلماء يبسطون بحوثهم الجديدة. وأهداها بعض بحوثه . ولمحهــا فى معمــل ليبمان ، فى معطفها التيلى ، منحنية فى صمت على أجهزتها . .

ثم سألها أن يزورها . فأعطته مارى عنوانها : « شارع الفيانتين rue des Feuillantines » .. واستقبلته بمودة ، وتحفظ ، فى غرفتها الصغيرة ، فانقبض قلب بيير من كل هذا البؤس ،ومع ذلك لم تبد له قط مارى أجمل منها فى غرفة السطح هذه ، التى تكاد تكون خالية، بثوبها البالى ، وتقاطيعهــا المتحمسة العنيــدة . وكان محياها الفتى النحيل الذى نال منه جهاد حياة نسك وتقشف ، لا يمكن أن يجد اطارا أكمل روعة من هذه الصومعة العليا الخاوية .

ومرت بضعة أشهر . وتوثقت عرى الصداقة ، وزادت المودة بقدر ما كان يزيد التقدير والاعجاب المتبادلان ، وكانت تزداد الثقة . وسرعان ما صار بيير كورى أسير البولونية المشرقة ذكاء وصفاء . وكان يطيعهــا ويسمع آراءها . فدفعته ، وهزته ، ومدته بروح منها ، فخرج عن تراخيه ، وحرر تجاربه فى المغنطيسية ، وقدم فيها رسالة رنانة نالت الدكتوراه .

وكأن مارى كانت تزعم أنها ما زالت حرة . ولاح لها كأنها غير مستعدة لسماع الكلمات النهائية التى لا يجرؤ العالم على النطق بها .

وهما ، هذا المساء ،ولعله للمرة العاشرة ، قد اجتمعا فى غرفة شارع الفيانتين . الجو جميل ، فنحن فى أصيل يوم من ايام يونيه . وعلى المنضـــــدة ، الى جنب كتب الرياضيات التى تستعين بها مارى فى اعداد امتحــانها القريب جدا ، كأس فيها بعض زهور المرجريت البيضاء ، جاءا بها من نزهة خلوية ، وصبت الفتاة الشاى ، المغلى

على « وابور السبرتو » المخلص ! ...

وبعد ما تحدث طويلا فى عمل كان يشغله ، قال لها انه يريد أن تعرف والديه • فهو يعيش معهما فى فيلا صغيرة بناحية « صو » من ضواحى باريس . والأب شيخ كبير أزرق العينين ، حادهما ، متوقد الذكاء طيب القلب ، والام امرأة اثقلتها الامراض ، وان كانت قد ظلت ربة بيت بارعة ، باسلة ، باسمة .

فاستمعت اليه مارى مدهوشة من شدة الشبه بين أسرتها وأسرته . فكلا البيتين ، على بعد المزار ، قد قام على السيرة القويمة ، واحترام الفكر والثقافة ، والشغف بالعلم ، والحنان بين الآباء والابناء ، والميل الى الطبيعة ... فابتسمت ، وروت له ما سوف تلقاه فى ربوع الريف البولونى بعد بضعة أسابيع ، فقال :

ـ ولكنك سوف تعودين فى اكتوبر . عدينى بأنك عائدة لا محالة ! .. فانك اذا بقيت فى بولونيا تعذر عليك اتمام دراستك .. ولم يعد من حقك الآن أن تهجرى العلوم !

وكانت هذه الكلمات تكاد تكشف عما فى نفس بيير كورى من القلق والاشفاق . وكانت مارى تعلم أنه عندما يقول : « وليس من حقك أن تهجرى العلوم » يريد أن يقول : « ليس من حقك أن تهجرينى » ..

ثم ظلا فترة طويلة صامتين . وبعدها رفعت مارى عينيها الرماديتين نحو بيير ، وأجابت بصوت ما زال مترددا :

ـ أعتقد أنك على حق . ولشد ما أريد أن أعود !

وتكلم بيير بعد ذلك عن المستقبل مرات عديدة . وسأل مارى أن تكون له زوجا . ولكن الرد لم يكن مسعدا ... ان تتزوج فرنسيا ، وأن تغادر اهلها الى الابد ، وان تعدل عن نشاطها الوطنى ، وأن تتخلى عن بولونيا ، كل هذا بدا للآنسة سكلودوفسكى من ضروب الخيانة الشنيعة .

فهى لا تستطيع ! وما ينبغى لهـا ! .. وقـد اجتازت امتحاناتها بتفوق ، والآن عليها أن تعود الى فارسوفيا ، لقضاء الصيف على كل حال ، بل ربما للبقاء فيها دائما . وتركت الشاب العالم مثبط العزم ، واعدة اياه بصداقة لم تعد تكفيه ، وأخذت القطار دون أن تعد بشىء .

وهو يتبعها بالفكر . يريد أن يجتمع بها فى سويسرا حيث تقضى بضعة أسابيع مع أبيها ، الذى جاء للقائها . أو حتى فى بولونيا ، بولونيا التى هو غيور منها ٠٠٠ !

اذن فقد مضى ، من بعيـد ، يدافع عن قضـيته . وحيثما ذهبت مارى ، تقضى شهور الصيف ، فى جرتياز ، أولمبرج ، أو كراكوفيـا ، أو فارسوفيا ، تتبعهـا تلك الخطابات المكتوبة بخط كخط الأطفال ، على ورق رخيص ، فى رأسه اسم مدرسة الطبيعة والـكيمياء ، تحـاول أن تقنعها ، وتعيدها ، وتذكرها بأن بيير كورى ينتظرها .

انها لرسائل جميلة مدهشة ...

من بيير كورى الى مارى سكلودوفسكى ـ ١٠ أغسطس ١٨٩٤

لا شىء يمـكن أن يبهجنى أكثـر من الحصـول على أخبارك . فان فكرة البقاء شهرين دون السماع عنك ، لا يمكننى أن أطيقها .. وهذا ما يدلك على مدى ترحيبى بكلمتك الصغيرة ٠ لعلك تختزنين كمية وافرة من الهواء النقى ، وتعودين الينا فى شهر أكتوبر . أما أنا فلا أظننى سأسافر . سأبقى فى الريف ، وانى طول النهار لعـلى نافذتى المفتوحة ، أو فى الحديقة .

وقد تواعدنا ، أليس كذلك ؟ على أن يحمل كل واحد منا للآخر على الاقل صداقة عظيمـــة ٠ فليتك لا تغيرين رأيك ! .. لأنه ما من وعد يربط أحـدا فى مثل هـذه الشئون التى لا يوحى بها الانسان . ومع ذلك فما أجمل أن نقضى الحياة جنبا الى جنب ، مأخوذين بأحلامنا :

حلمك القومى ، وحلمنا الانسانى ، وحلمنا العلمى .
ومن هذه الأحلام كلها أعد الأخير هو الحلم الوحيد المشروع . اريد بذلك اننا عاجزون عن تغيير النظام الاجتماعى ، وعلى ذلك فلسنا ندرى ما نفعل ، واذا اتجهنا وجهة ما ، لا نعرف : هل نحسن بذلك الاتجاه أم نسيء ؛ بتأخيرنا تطورا محتوما ... اما من وجهة النظر العلمية ، فعلى الضد من ذلك ، نستطيع ان نطمع فى عمل شيء . فالأرض هنا أشد صلابة ، وكل اكتشاف ، مهما كان صغيرا ، مكسب للمعرفة .

اليس الأولى أن تبقى معى فى فرنسا ؟ .. انى أعلم أن هذا السؤال يغضبك ، ولست اريد أن اكرره عليك ، فضلا عن شعورى بأننى من كل وجهة لست جديرا بك ..

سأسعد كل السعادة اذا كتبت الى مؤكدة عودتك فى اكتوبر ، على عنوانى ، ١٣ شارع سايلون ، صو السين

بيير كورى

من بيير كورى الى مارى سكلودوفسكى ـ ١٤ اغسطس ١٨٩٤ ..

لم يستقر عزمى على اللحاق بك . وظللت يوما كاملا مترددا حتى وصلت الى هذه النتيجة السلبية . فأول ما خطر لى ، عند مطالعة كتابك ، انك تفضلين عدم حضورى . والثانى انك كنت مع ذلك من العطف بحيث سمحت لى بقضاء ثلاثة أيام معك ، فكدت أسافر ! ثم شعرت بنوع من الاستنكاف ، أن الاحقك هكذا على رغمك ، ثم كان مما حملنى نهائيا على البقاء ، ثقتى المطلقة من أن حضورى سيضايق والدك ، وينغص عليه مسرة صحبتك والتمتع بك .

والآن ، وقد فات الأوان ، اجدنى آسفا لأننى لم

اسافر ! فمن يدرى لا لعل سفرى كان يضاعف صداقتنا خلال تلك الأيام الثلاثة ، ويحملنا على الا يتناسى أحدنا الآخر فى الشهرين ونصف الشهر التى تفرقنا !

هل أنت قدرية ، تؤمنين بالقضاء والقدر ؟ أتذكرين يوم كرنفال الصيام ؟ La Mi-Carème ، فقد أضعناك فجأة فى الزحام ، ويخيل الى أن علاقاتنا الودية ستنقطع هكذا فجاة ، بغير رغبة أحد منا فى ذلك . لست قدريا . ولكن قد يكون هذا نتيجة طباعنا . فلن أعرف كيف أتصرف فى الوقت المناسب !

وربما كانت الخيرة فى ذلك لك ، لأننى لا ادرى لماذا وضعت نصب عينى أن أستبقيك فى فرنسا ، وأن أبعدك عن بلادك وعن أهلك دون أن يكون لدى من الطيبات ما أقدمه لك جزاء هذه التضحية !

ألست مزهوة بنفسك شيئا ما عندما تقولين انك مطلقة الحرية ؟ .. اننا ، ان كثيرا وان قليلا ، عبيد عواطفنا ، عبيد أحكام أولئك الذين تحبهم ، ثم اننا لا بد أن نكسب عيشنا ، وبذلك نصبح عجلات ميكانيكية ..

وأشد ما يؤلم ، هو الامتيازات التى لابد من تقديمها للمجتمع الذى حولنا ، بأحكامه المبتسرة القاسية .. ونحن نقدم منها الأقل أو الأكثر تبعا لقوتنا أو ضعفنا . واذا لم نقدم منها الكفاية ، سحقنا سحقا . واذا قدمنا أكثر مما ينبغى كنا حقيرين تتقزز أنفسنا من أنفسنا . وها أنذا بعيد عن المبادىء التى كنت أعتنقها منذ عشر سنين .. فقد كنت فى ذلك العهد أعتقد بضرورة التطرف فى كل شيء ، وعدم التنازل عن شيء للوسط المحيط بنا . وكنت أقول بضرورة المغالاة فى العيوب ، كضرورتها فى الصفات .. وكنت ألبس قمصانا زرقاء كالعمال .. وما الى ذلك ..

« فها أنت ترين أننى قد اصبحت شيخا كبيرا جدا . وأحس بضعف شديد ·· أتمنى لك المسرة ، وأحييك ··
صديقك المخلص : « ب كورى »

من بيير كورى الى مارى سكلودوفسكى ٧ سبتمبر ١٨٩٤

ان خطابك قد سبب لى القلق كما تقدرين . وانى أشير عليك بالعودة الى باريس فى شهر أكتوبر ، والا تألمت أشد الألم . وليس هذا مجرد أنانية صديق ، بل ثقة منى بانك ستؤدين عملا متينا نافعا .

ان لك طريقة عجيبة فى فهم الأنانية ! .. عندما كنت فى سن العشرين ، أصابتنى نكبة ، اذ فقدت رفيقة صباى التى كنت احبها كثيرا ، وفقدتها فى ظروف مروعة ، ولا أجد من نفسى شجاعة على قص ذلك عليك.. فأمضيت بعد ذلك الأيام والليالى بفكرة ثابتة ، ووجدت لذة فى تعذيب نفسى هكذا بنفسى . ثم نذرت نفسى عن طيبة خاطر لعيشة الرهبنة ، وواعدت نفسى على ألا أهتم بعد ذلك الا بالأشياء ، فلا افكر بعد فى ذاتى ولا فى الناس . وطالما سألت نفسى منذ ذلك الحين : ألم يكن هذا الزهد فى الوجود مجرد تبرير أمام نفسى لاحصل لها على حق النسيان؟

هل المراسلات حرة فى بلادكم ؟ .. أشك فى ذلك كثيرا ، وأرى أن الأفضل عدم الاغراق فى التأملات ، فمع أنها فلسفية بحتة ، قد يساء تفسيرها وتسبب لك ازعاجا ..
صديقك المخلص : بيير كورى

من بيير الى مارى سكلودوفسكى فى ١٧ سبتمبر ١٨٩٤

أثارنى خطابك ، اذ أحسست بك فيه قلقة غير مستقرة . ثم طمأنتنى رسالتك من فارسوفيا ، اذ شعرت بعودة الهدوء اليك . لقد اعجبتنى صورتك كثيرا.

ما اجمل هذا الفكر منك فى أرسالها الى . فشكرا لك من مجامع قلبى .

اذن ، ستعودين الى باريس ، وأنت تعلمين مدى سرورى بذلك . فانى أريد حقا أن نكون ، على الأقل ، صديقين لا تفرق بينهما الأيام . ألست من رأيى ؟

لو أنك كنت فرنسية لتوصلت بسهوله الى التدريس فى احدى مدارس المعلمات . فهل تروقك هذه المهنة ؟

أظهرت أخى على صورتك .. اترانى اخطأت ؟ وقد اعجب بك كثيرا وأضاف : « انها تبدو ذات عزم شديد .. بل ذات عناد » ! ..

صديقك المخلص : « ب كورى »

وجاء اكتوبر . بيير كورى لا تسعه الدنيا من الهناءة . ان مارى قد عادت الى باريس طبقا لوعدها ، وصارت تشاهد مرة ثانية فى محاضرات السوربون وفى معمل ليبمان . ولكنها فى هذه السنة ـ سنتها الأخيرة فى فرنسا كما كانت تزعم ـ لم تعد تسكن الحى اللاتينى ، بل نزلت لها برونيا عن غرفة متصلة بالعيادة التى فتحتها فى ٣٩ شارع شاتودان . وكانت برونيا ما تزال تقطن حى المذبح ، ولا تجىء عيادتها الا نهارا ، فتستطيع مارى أن تعمل فى سلام

وفى هذا المسكن المظلم ، الكئيب نوعا ما ، استأنف بيير مرافعته العاطفية الحنون .. وهو على طريقته هذه عنيد مثلها . يحمل فى ذاته نفس الايمان الذى تحمله زوجته المستقبلة : ايمان كامل ، نقى ، خالص من كل شائبة . وكان العلم عنده هو الهدف الوحيد . لذلك كانت مغامرته شيئا غريبا ، لا يكاد يصدق ، لأن فيها مشاعر تمس شغاف قلبه ، مع التنفس والطموح اللازمين لعقله . فهذا العالم كان مندفعا نحو مارى بقوة العاطفة ، وفى الوقت نفسه بأشد الحاجة الذهنية .

بل انه سيكون مستعدا لتضحية ما يسميه الناس

الهناء ، فى سبيل هناء يعرفه هو وحده . فعرض على ماری اقتراحا يبدو أول وهلة غريبا ، ويمكن أن يعلل بأنه خدعة أو زلفى ، غير أنه يتفق تماما مع طبيعته . فاذا كانت ماری لا تشعر نحوه بحب ، فهل ترضى بترتيب من وحى الصداقة الخالصة ، وهو أن تعمل معه فى شقة بشارع موفتار Mouffetard لها نوافذ مطلة على حدائق ، وهى شقة يمكن أن تقسم الى قسمين مستقلين ؟!

أو — ولا بد مما ليس منه بد — اذا ذهب بيير كورى للعيش فى بولونيا ، أفلا تتزوجه عندئذ ؟ .. وسيبدأ باعطاء دروس فرنسية ، ثم يعكف معها قدر الطاقة على البحث العلمى ...

ان هذا الرجل الفذ ، أمام « مربية الاولاد » السابقة ، تلك التى احتقرتها عائلة قروية بولونية ، يتوسل ويتذلل ...

فأسرت ماری لأختها برونيا بترددها ، وحدثتها عما عرضه بيير من التغرب عن بلاده .. وهى تحس أن ليس من حقها قبول مثل هذه التضحية ، بيد أنها اضطربت تأثرا من مرور هذا الخاطر على باله .

ولما عرف أن الفتاة حدثت أختها وزوجها عنه ، حاول هجوما جديدا من هذه الناحية ، فذهب للقاء برونيا التى سبق له أن رآها مرارا ، وكسبها بكليتها لصفه ، ودعاها مع ماری عند أهله فى « صو » . وأخذت أمه برونيا ، وانتحت بها جانبا ، وسألتها بصوت رقيق مؤثر أن تتدخل لدى أختها الصغرى ، وأكدت لها :

— ليس فى الدنيا مخلوق يساوى ولدى بيير .. فلا تدعى أختك تتردد .. انها ستكون معه أسعد منها مع أى انسان آخر !

ولابد من مرور عشرة أشـهر أخرى قبل أن تقبـل البولونية العنيـده فكرة الزواج .. فطـاب نفسا وقر عينا .. فان ما كان يربطه بهـا ، ويبهره فيهـا ، هو تفانيها المطلق فى العمل ، وما يتوسمه فيها من عبقرية ، وكذلك شجاعتها ونبالتها . فان لهذه الفتاة الرشيقة اخلاق الرجل العظيم ومواهبه ..

أما المبادىء ، فهو أيضا قد عاش بها دهرا ، ثم دلته الحياة على سخافتها .. أو لم يكن من مبدئه ألا يتزوج ؟وقد عاهد النفس على ذلك ؟ لم يكن وراءه بولونيا المضطهدة يدافع عنها ، ولكنه كان يزعم دائما أن الزواج يتعارض مع وقف النفس على العلم .. والخاتمة الفاجعة لغرام شقى فى شبابه ، قد جعلته ينطـوى على ذات نفســه ، وحولته عن النسـاء .. فلم يعدْ يريد حبا ، وهو مبدأ خير حفظه من زواج تافه ، وجعله ينتظر لقاء المـــرأة الموعودة ، ذات الصفات النادرة ، « المرأة التى خلقت له » .. وكانت تدعى : مارى ! .. فلن يكون الآن من الغباء بحيث يترك ، باسم المبـدأ ، فرصة هـذا الهناء العظيم تفوته ، وفرصة هذا التعاون الرائع تفلت منه .. انه أراد أن يتخذ من الفتاة ، ومن البولونية ، ومن العالمة بالطبيعيات : زوجا له . هؤلاء الأشـــخاص الثـلاثة ، شخص واحد ، صاروا الزم ما يكون له .

وهـــذا ما أظهر عليـــه ، فى لطف ورقة ، الآنسة سكلودوفسكى ، بالأقوال ، وبما هو أحن وأحلى : بمـا بسطه عليها من رعاية ، وبالظرف الاصيل الذى لا يقاوم ، وبوجوده كل يوم الى جانبها .. استطاع بيير كورى ان يجعل ، شـيئا فشيئا ، انسانة ، من تلك الشـابة المستوحشة الناسكة ، المتبتلة ! ..

وفى ١٤ يولية ١٨٩٥ ، ارسل جوزيف ، اخو ماريا ،

رسالة اليها من فارسوفيا تحمل تحليل أسرة سكلودوفسكي لزواجها ، وتسوغ تصرفها وتباركها :

أما وأنت الآن خطيبة المسيو كورى ، فانى أبدأ فاوجه اليك أصدق تمنياتى بأن تجدى الى جانبه من السعادة والفرح ما تستحقين فى عينى ، وفى عيون كل الذين عرفوا قلبك الكريم وخلقك ..

... وأعتقد أنك على حق فى اتباع قلبك . وما من شخص عادل يستطيع أن يلومك فى هذا . أما وأنا أعرفك فانى مقتنع بأنك ستظلين دائما بولونية بكل روحك ، وأنك لن تكفى أبدا فى قلبك عن أن تكونى عضوا فى أسرتنا. وكذلك نحن لن نكف عن حبك ..

وانى لأوثر مائة مرة أن أراك فى باريس سعيدة هانئة على أن أراك تعودين الى بلادك محطمة بتضحية حياة كاملة ، وشهيدة المبالغة فى واجبك .

وعلينا الآن ألا نحرم من رؤية بعضنا ، مهما كانت الظروف ..

أقبلك مائة قبلة ياعزيزتى مانيا ، وأكرر لك تمنياتى بالسعادة والفرح والفلاح . وبلغى خطيبك أرق تهانى . وقولى له : انى أرحب به عضوا جديدا فى أسرتنا ، وانى أقدم اليه صداقتى ومحبتى المطلقة . ولعله يمنحنى كذلك صداقته ..

أخوك الذى يحبك : « جوزيف »

وبعد أيام ، كتبت مارى الى صديقتها كازيا ، رفيقة المدرسة ، تعلن اليها قرارها الحاسم :

عندما تصلك هذه الرسالة ، تكون صديقتك مانيا قد غيرت اسمها . فسأقترن بالرجل الذى حدثتك عنه العام الماضى فى فارسوفيا . وانى ليحزننى أن أبقى دائما فى باريس .. ولكن ما العمل ؟ ان القدر جعل كلا منا يتعلق

بالآخر أشد التعلق ، فلا نحتمل فكرة الفراق .

ولم أكتب اليك عن هذا كله ، لأن هذا كله قد تقرر من وقت قريب ، وتقرر بغتة . ولقد ظللت عاما كاملا مترددة لا يقر لى قرار . وأخيرا تغلبت فكرة البقاء هنا . فعندما تتسلمين هذه الرسالة ، اكتبى الى : « مدام كورى ، مدرسة الطبيعة والكيمياء ، ٤٢ شارع لومون ». فهكذا سأدعى من الآن فصاعدا . وزوجى استاذ فى هذه المدرسة . وفى السنة القادمة سأجىء به الى بولونيا حتى يعرف بلادى ، ولن أغفل عندئذ عن أن اقدمه الى الأخت الحبيبة الصغيرة كازيا ، وأن اسألها أن تحبه ...

وأخيرا ، فى ٢٦ يوليه ، استيقظت ماريا ، لآخر مرة فى مسكن شارع شاتودان . وكان يوما صحوا جميلا . وكان وجه الفتاة رائع الحسن . وقد تضوع فيه وازدهر شىء لا عهد به لدى رفيقاتها فى الدرس . اليوم تصبح مدموازيل سكلودوفسكى : مدام بيير كورى .

زينت شعرها البديع ، ووضعت ثوب العرس ، وكان هدية من والدة كازيميردلوسكى ، التى تسكن الآن شارع ألمانيا بحى المذبح ! .. وكانت مارى قد قالت لها : « انني لا أملك ثوبا آخر غير الذى ألبسه كل يوم .. فاذا تعطفت باعطائى ثوبا ، فانى أريده قاتم اللون ، نافعا ، بحيث استطيع بعد ذلك ان ارتديه وأذهب به الى المعمل » !!! ففصلت لها خياطة فقيزة ثوبا من الصوف الأزرق القاتم ، مع بلوز أزرق فاتح ، بدت فيه مارى فتانة ناضرة فتية ..

وكانت مارى راضية عن فكرة هذا الزواج الذى يختلف فى تفاصيله عن كل زواج . فلا ثوب أبيض ، ولا خاتم من ذهب ، ولا مأدبة عرس ، ولا حفلة كنيسة .. لا شىء الا التسجيل المدنى ، ثم ركوب دراجتين لامعتين ،

اشترياهما بالأمس من هدية نقدية أرسلها أحد أبناء العم، وستكون مطيتهما خلال الصيف فى الريف ..

أجل . سيكون زواجا جميلا ذاك الذى لا يحضره عدم الاكتراث ، ولا التطفل ، ولا الحسد .. ففى دار عمدية « صو » ، وفى حديقه شارع سابلون ، عند والدى بيير ، ستجتمع برونيا وكازيمير ، وبعض الأصدقاء المقربين جدا من الجامعيين • ثم من فارسوفيا قد جاءت هيلا ، والبروفسور سكلودوفسكى الذى ادهش الدكتور كورى العزيز والد بيير بلسانه الفرنسى السليم العريق ..

ولكنه قال له أولا ، بصوت منخفض ، متهدج ، شديد التأثر ، هذه الكلمات النابعة من قلبه الكريم :

ـ سيكون لك فى مارى بنت جديرة بالمحبة . فهى منذ مولدها ، لم تسبب لى قط ألما .

وجاء بيير فأخذ مارى الى القطار الذى يقوم من محطة لكسمبرج ، فى صميم الحى اللاتينى ، الى ضاحية « صو » حيث كانت الأسرتان فى انتظارهما ..

وفى عربة الأمنيبوس ، فى الدور الأعلى المكشوف « الأمبريال » .. فى الشمس الضاحية البهيجة ، صعدا بولفار سان ميشل ، ومن قمة عربتهما الظافرة ، نظرا الى المشاهد المألوفة عندهما ..

ولما مرا أمام السوربون ، عند مدخل كلية العلوم ، ضغطت مارى على ذراع رفيقها ، وتلمست نظرته المشرقة المطمئنة ...

زوجات شابات

أمضيا شهر العسل ، فى الريف ، بين الحقـــــــــول والغابات ، على الدراجتين المشهورتين ! .. يتغديان على العشب ، بقليل من الخبز والجبن والخوج والكرز . وفى كل ليلة ، يقفان كيفما اتفق ، عند خان Auberge صغير مجهول .. حيث يجدان حساء غليظا ساخنا ، وغرفة ذات جدران بالية الورق الملون .. ترقص الظلال على ضوء شمعتها .. فيقضيان الليل فى سكون الحقول الذى لا يقطعه الا نباح بعيد ، والا هدير العصافير ، ومواء القطط الشـــاكية ، وقرقعـــة خشب الأرضـــية المروع ! ..

وكان بيير يحب الريف بقوة . ولعل المشى الطويل الصامت كان لازما لعبقريته ، فيساعد بوقع خطاه المنتظم المنسجم تأملاته فى العالم . وكان لا يستطيع البقاء ، فى حديقة بغير حركة . كان لا يعرف كيف يرتاح . وكذلك كان لا يحب النزهات الخلوية المرسومة مقدما .. فلماذا يسير نهـــارا بدلا من أن يسرى ليلا ؟ .. ولماذا تحـــدد ساعات الغداء ؟ .. انه منذ مولده قد تعـــود الرحيـــل فجأة : تارة فى الفجر ، وتارة فى الشفق ، دون أن يعرف ، أيعود بعد ثلاثة أيام ، او بعد ساعة واحدة ! .. وكان يهجر باريس فى صباه ، وينطلق الى واد ذى زرع ، فى

المساء ، يتنزه ما طاب له ، ويعود وفى رأسه عشرون فكرة ! .

وهذا التشرد فى صيف ١٨٩٥ : « تشرد العرس » ، كان ألذ وأحلى .. فالحب يجمله ويثيره . فبضعة فرنكات أجر الغرفة الريفية ، وضربات على « بدال » الدراجتين .. واذا بالزوجين الشابين يستمتعان خلال الليل والنهار السحريين ، بترف عيشهما معا ، جنبا الى جنب ، وحيدين .. وكانا اذا سارا بين الحقول ، يتبع بيير بصوت مرتفع تأملاته الداخلية ، ويتحدث فى بحث من بحوثه العلمية ، وهو واثق ، دون أن يلتفت الى مارى ، أنها تسمعه ، وأنها سوف ترد عليه ردا ذكيا ، نافعا ، أصيلا مطبوعا بطابعها . وهى أيضا لها مشروعاتها : تريد أن تحضر لمسابقة « الاجريجاسيون » ، وهو لايشك فى أن مدير مدرسة الطبيعة والكيمياء سيسمح لها بعمل تجاربها فى المعمل مع بيير .. فيعيشان معا عيشا متصلا لايترك أحدهما فيه الآخر اطلاقا ! ..

ووقفت مارى ، تكاد لاتتحرك ، كأنها ناعسة ، تنظر الى السماء تمر فيها سحب ضعيفة ، ثم لم تلبث أن صرخت ، اذ أحست على راحتها شيئا باردا رطبا : ضفدعة خضراء تنتفض ، وضعها بيير بلطف فى يدها .. ولم يكن ذلك منه دعابة ، فان صداقة الضفادع عنده شىء طبيعى للغاية ! .. فاحتجت ، مذعورة :

ــ بيير .. سبحان الله فى طبعك ! ..

فتضايق العالم ، وسألها :

ــ أفلا تحبين الضفادع ؟

ــ بلى ، ولكن لا أحبها فى يدى !

ــ أنت مخطئة .. ان ملاحظة الضفدع من اعظم

المسليات . افتحى يدك بلطف .. وانظرى ، كم هى ظريفة ! ..

ثم استرد ضفدعته ، فتبسمت مارى وتنفست الصعداء . فوضع الضفدعة على حافة البركة ، وأطلق لها حريتها ، وسار تتبعه زوجته ، مزدانة بحليها الساذجة من زهر السوسن والنيلوفر .

فى أيام السعادة هذه ، توثقت أجمل الروابط التى يمكن أن تربط دائما رجلا بامرأة . قلبان يخفقان معا ، جسمان متحدان ، عقلان عبقريان تعودا التفكير معا .. وما كانت مارى لتستطيع الزواج من رجل آخر غير هذا العالم الكبير ، هذا الرجل الحكيم النبيل . وما كان بيير ليستطيع الزواج من امرأة أخرى غير هذه البولونية الشقراء الحنون الفياضة بالحياة ، التى فى وسعها أن تكون فى لحظات معدودة ، صبية بسيطة ، أو سيدة سامية ، لانها كانت صديقة وكانت خليلة .. كانت عاشقة وكانت عالمة ! ..

وتآلفت الاسرتان الفرنسية والبولونية ، تآلفا مشهودا ، يرجع الى اتحاد الثقافة ، ولون التفكير ، وعطف القلوب .. وليس فى بيير غريزة الحذر من الاجانب ، الغالبة على مواطنيه ، فهو يحب أهلها كأهله .. ولكى يقدم الى زوجه برهانا جديدا على الحب ، أرغم نفسه ، مع احتجاجها الرقيق ، على مجهود مؤثر : هو تعلم اللغة البولونية أصعب لغات أوربا ، لغة أمة مضطهدة لا كيان لها ، فهى اذن عديمة الجدوى .

وكذلك اتخذت مارى بدورها القباء الفرنسى .. فقد أحبت أهل زوجها ، وبادلتهم حبا بحب خفف عنها منفاها ، عندما رحل عنها أبوها واختها هيلا عائدين الى فارسوفيا ..

ولم يحدث زواج بيير بفتاة اجنبية فقيرة ، وجدها فى غرفة سطح بالحى اللاتينى ، أى صدمة أو دهشة لهذين الشيخين الممتازين ، فقد أعجبا بمارى من أول وهلة .. وليس ذلك أثر السحر السلافى وحده ، بل فتنا ايضا بذكائها الرجالى ، وبخلقها وشخصيتها .

وكان من الاشياء القليلة التى أدهشت مارى فى وسط « صو » ان تكتشف شغف حميها واصحابه بالسياسة . فالدكتور كورى (الاب) كان من أنصار افكار ١٨٤٨ ، وعلى عهد الود الوثيق مع الراديكالى هنرى بريسون . وكان رجل كفاح . فنرى مارى التى نشأت فى جو نضال ضد المتصبين الاجانب ، والتفانى السلمى فى مثل اجتماعى أعلى ، تبدأ تعرف المنازعات الحزبية ، العزيزة على قلوب الفرنسيين . فتصغى الى النقاش الطويل ، والى تفسير النظريات الحامية ، والىعرض الآراء العنيفة الكريمة فى وقت معا ، فى حين يظل زوجها صامتا ، حالما . واذا حاول ضيوف يوم الاحد ، فى حديقة منزل « صو » الصغيرة ، ان يحملوا بيير على التدخل فى المجادلات الخاصة بالحوادث الجارية ، يجيب العالم الطبيعى بلطف ، كأنه يعتذر .. انه ليس من القوة بحيث يستفزه الغضب ! ..

وكتبت مارى :

« كان بيير كورى قليل الميل الى القيام بدور مهم فى السياسة • وكان بتربيته وعاطفته متعلقا بالافكار الديمقراطية والاشتراكية ، ولكنه لم يكن خاضعا لأى نزعة حزبية . وكان فى الحياة العامة ، مثله فى الحياة الخاصة ، لايؤمن باستخدام العنف »

وكانت قضية دريفوس من الظروف النادرة التى خرج فيها بيير كورى عنتحفظه ، واندفع فى النضالالسياسى .

ولكنه كان فى ذلك أيضا مسيرا باتخاذه جانب رجل برىء مضطهد ، وكان ينافح ضد الظلم الذى يرعبه ، لانه كان رجلا عدلا .

استقر الزوجان الشابان فى شقة صغيرة ، بالمنزل رقم ٢٤ بشارع لاجلاسيير La Glacière ، تطل نوافذها على حديقة كبيرة . وكان هذا كل جمال ذلك المسكن المجرد من كل أسباب الراحة .

ولم تعمل مارى وبيير شيئا لزخرفة هذه الفرف الثلاث الضيقة . بل انهما رفضا الاثاث الذى قدمه الدكتور كورى الوالد . فكل كنبة ، أو كل مقعد ، يكون متاعا لابد من تنفيضه في الصباح ، ثم تلميعه فى يوم التنظيف العام . ومارى لاتقدر : ليس لديها وقت ! ثم مانفع كنبة أو مقعد مادام الزوجان الشابان قد اتفقا على الغاء كل الاجتماعات وكل الزيارات ؟! فالطفيلى الذى يتسلق أربعة أدوار ، ويجىء ليزعج الزوجين فى وكرهما ، لايحل أهلا ولا سهلا ، بل يصطدم ، بمجرد دخول مكتب الزوجين ، بجدرانه العارية ، وكل أثاثه مكتبة ومنضدة من خشب أبيض . وفى طرف المنضدة كرسى مارى ، وفى الطرف الآخر كرسى بيير . وعلى المنضدة كتب الطبيعة ومصباح غاز ، وطاقة زهر ، لا اكثر . وامام هذين الكرسيين ، وليس بينهما كرسى للزائر ، وازاء نظرات بيير ومارى المهذبة المندهشة ، لا يسع أجرا الزوار الا أن يولى الإدبار ! ..

وكان هدف بيير من الحياة يرمى الى مثل واحد أعلى : هو القيام بالبحث العلمى الى جانب زوجة حبيبة تعيش مثله لأجل البحث العلمى . وكان نصيب مارى أشد مشقة وعناء ، لانه ، الى جانب كدحها الذهنى ، قد أضيفت عليها متاعب الواجبات الزوجية المرهقة .

فليست تستطيع بعد ان تهمل الحياة المادية . كما كانت تهملها ، وهى طالبة بالسوربون . وكان أول ما اشترته عند عودتها من الاجازة كراسة تسجل فيها حساباتها ، وعلى غلافها الاسود بحروف ذهبية ، كلمة كبيرة : نفقات ..

وبيير كورى يكسب الآن خمسمائة فرنك فى الشهر من مدرسة الطبيعة والكيمياء . وفى انتظار حصول مارى على دبلوم الاجريجاسيون التى تمكنها من التدريس فى فرنسا ، كانت الخمسمائة فرنك هى مورد رزقهما الوحيد.

وكان يمكن لبيت متواضع أن يعيش بهذا المبلغ عيشا طيبا . فتعلمت مارى الاقتصاد . وكان أصعب ما فى الامر أن تحشد اعباء يومها المنهكة فى الساعات الاربع والعشرين . وكانت تقضى أكثر وقتها فى معمل المدرسة ، والمعمل هو السعادة ! غير أن هناك أيضا فى شارع لاجلاسيير سريرا يجب أن يرتب ، وأرضا يجب أن تكنس ، وملابس زوج يجب أن تنظف ، ووجبات طعام يجب أن تجهز .. كل ذلك بغير خادم ! ..

وعلى ذلك تنهض مارى مبكرة جدا فتذهب الى السوق . وفى آخر النهار ، تعود من المدرسة فى ذراع بيير فتدخل معه عند البقال ، وعند اللبان . أين الزمان الذى كانت فيه مدموازيل سكلودوفسكى اللاهية تجهل العناصر اللازمة لصنع المرق !؟ ان مدام بيير كورى قد رهنت كرامتها على معرفة ذلك ! .. فما كاد يتقرر زواجها حتى ذهبت الطالبة ، فى السر ، تسأل أختها برونيا وحماة برونيا (والدة الدكتور دلوسكى) دروسا فى الطهى .. فتمرنت على تحمير الدجاجة ، وقلى البطاطس .. وراحت تعد طعاما طيبا لزوجها الذى كان التسامح ماثلا فى رجل ، وكان من اشتغاله بعلومه بحيث لم يلحظ هذا الجهد الكبير .

ان كرامة مارى لتحفزها على اتقان الطعام .. ماذا كانت تقول حماتها الفرنسية لو رأت عجز كنتها عن صنع العجة ؟ وما يكون حكمها على مايتعلمه بنات فارسوفيا !؟ فعكفت على درس وصفات الطبخ : تسجل وتعيد ، وتحفظ وتجرب ، وتسجل الفشل أو النجاح . وابتكرت ألوانا لاتتطلب عناية كبيرة بل تطبخ « نفسها بنفسها » حين تكون هى فى المدرسة ! .. ولكن الطهى علم صعب كالكيمياء ، محوط بالاسرار مثله ! .. كيف تفعل حتى لاتلتصق المكرونة ببعضها ، وحتى لاتلتصق بالحلة ؟! ماهى المدة التى يستغرقها نضج لحم الفخذ بالفاصوليا الخضراء ؟ ووقفت مارى امام فرنها ، وقد اشتعلت وجنتاها كالنار ، وهى تتنهد من كبد حرى ! .. لقد كان الاسهل عليها يوما ما أن تتغذى بالخبز المدهون بالزبد والشاى والكرز والفجل ! ..

وظلت شيئا فشيئا تغزو مناطق الغذاء . واصبح الفرن ، الذى كثيراً ما أحرق اللحم ، يخضع لها ويطيع عارفا بالواجب ! .. فقبلما تخرج ، تنظم العالمة بالطبيعة مشعلا بدقة ، ثم تلقى نظرة قلق اخيرة على الحلل التى عهدت بها الى النار ، ثم تقفل باب السلم ، وتسرع لتدرك زوجها فتقطع معه الطريق الى المدرسة .

وبعد ربع ساعة ، تكون قد انحنت على افران اخرى ، وبنفس العناية والدقة ، تنظم مشعل النار فى معمل الكيمياء لتحليل المعادن واستخراج الاسرار ! ..

من مارى الى جوزيف وزوجته فى ١٧ يولية ١٨٩٦

(يا اعزائى ! لشد ماكنت اريد السفر الى البلاد هذه السنة ، لآخذكم بين ذراعى ! .. ولكنى لا استطيع ، وا أسفاه ، لضيق ذات اليد ، وضيق الوقت ..

وامتحانات الاجريجاسيون ، التى اجتازها فى هذه الآونة ، قد تمتد الى منتصف أغسطس ..)

ثمانى ساعات دراسة علمية ، وساعتان أو ثلاث ساعات تدبير منزل ! .. وهاهى ذى مارى كورى فى مسابقة الاجريجاسيون للتعليم الثانوى ، تنجح وتكون الاولى .. فيلقى بيير ذراعه حول عنق البولونية فخورا بها ، ويخفان مسرعين الى شارع لاجلاسيير .. فينفخان من فورهما عجل الدراجتين ، ويملآن جعبتهما طعاما ، ويسيران فى طريق الاوفرن L'auvergne فى سياحة استكشافية ! .. فما أشد اعتداد هذين الزوجين بقواهما الذهنية والبدنية ! .. حتى اجازتهما مرح ولهو ... وتدريب للارادة والعزم ! ..

ونحن فى سنة الزواج الثانية . لانجدها تختلف عن الاولى الا فى حالة مارى الصحية ، التى يزعزعها الحمل ، وهى قد ارادت هذا الولد ، ولكنها مفيظة من شعورها بالالم الشديد ، محنقة من عجزها فى تعبها عن دراسة مفنطة الصلب .. وهى تشكو :

من مارى الى كازيا ، فى ٢ مارس ١٨٩٧

(ياعزيزتى كازيا ! عفوا لتأخرى فى تهنئتك بعيد ميلادك ، فقد كنت فى هذه الاوقات الاخيرة مريضة جدا ، وحرمنى مرضى من الارادة والصفاء اللازمين للكتابة . وانى لا البث أن أضع ولدا ، وهذا الرجاء يسبب لى أشد العناء . فمنذ أكثر من شهرين وانا أصاب بدوار مستمر ، من الصبح حتى المساء . فتعبت وضعفت ، وعجزت عن العمل ، وساءت حالتى المعنوية .. وبقدر ماتضايقنى حالتى ، تسوءنى حالة حماتى الصحية التى هى فى أشد الخطر ...)

من مارى الى جوزيف سكلودوفسكى، ٢١ مارس ١٨٩٧

(لا شىء جديد ... فمازلت طوال الوقت مريضة ، وان كنت مع ذلك لم أذبل ، بل راق محياى ! .. ان حالة حماتى على ماهى عليه ، ولانها مريضة بداء لا دواء له (سرطان فى الثدى) (١) تجدنا فى شدة الهم . وان اقسى ما اخافه أن يبلغ الداء الوبيل درجته القصوى فى الوقت الذى أضع فيه .. فتصورى اذن مايصيب زوجى المسكين عندئذ فى تلك الاسابيع المروعة ! ..)

وعادت مارى من اجازتها الى باريس ، حيث وضعت فى ١٢ سبتمبر ١٨٩٧ طفلة جميلة ، « ايرين » Irène .. ستنال مثل أبويها ، ومثل أمها يوما ما ، جائزة نوبل ! .. وكان الدكتور كورى الوالد مشرفا على الوضع ، الذى تحملته مدام كورى وهى تعض على اسنانها دون أن تصرخ صرخة واحدة ! ..

من مارى الى أبيها فى ١٠ نوفمبر ١٨٩٧ :

(انى مازلت أرضع ملكتى الصغيرة .. ولكنى أخشى أن أعجز عن ذلك مستقبلا . فقد نقص وزن الطفلة كثيرا خلال الاسابيع الثلاثة الاخيرة . ولكنها أحسن منذ أيام ، فاذا استمر التحسن مضيت فى ارضاعها ، والا اضطررت الى مرضع رغم الحزن الذى يسببه لى ذلك ، ورغم النفقات .. الجو صحو جميل ، والشمس ساطعة

(١) هو الداء الذى توفيت به والدة ناقل هذا الكتاب ، وقد نفعت فيه العملية الجراحية ، التى أجراها الاستاذ الدكتور عبد الوهاب مورو . وأفاد استخدام « الراديوم » الذى اكتشفته « التلميذة الخالدة » فائدة كبرى ، على يد الاستاذين الفاضلين الدكتور عبد الله على والدكتور الصدر ، وهو العلاج الذى يرجو فطاحل العلماء أن يتمموا به الانتصار على هذا الداء العياء ، كفى الله احبابنا واعداءنا والناس جميعا شره .. فهو اشد مابليت به الانسانية .

.. وايرين تذهب كل يوم للتنزه معي أو مع الخادمة في حديقة مونسوري .واني أحميهافي طست الغسيل الصغير

ولم تلبث ماري أن اضطرت الى التخلي عن ارضاع طفلتها ، بناء على أمر الطبيب الذى خشي على ماري أن يصيبها ما أصاب أمها من دار الصدر .. وان ظلت ساهرة على العناية بملبسها ونزهتها .. ووجدت في حميها عونا ثمينا .. فان الدكتور كورى الوالد ، الذى ماتت زوجته بعد أيام من مولد ايرين ، قد تعلق بالطفلة ، وسهر على خطواتها الاولى في حديقة بيته بضاحية « صو » . ثم لما انتقل بيير وماري الى فيلا متواضعة ببولفار كلرمان جاء الشيخ فسكن معهما ، وصار لايرين خير مرب ، وأعز صديق ..

يا للطريق الطويل الذى قطعته تلك الفتاة البولونية ، منذ وصولها صباح يوم من أيام نوفمبر ١٨٩١ ، الى محطة الشمال ، محملة بالصرر والطرود ، في عربة الدرجة الثالثة ! .. ان مانيا سكلودوفسكي قد اكتشفت الطبيعيات ، والكيمياء ، واكتشفت كل حياة المرأة ! .. وقد ذللت عقبات بسيطة وعقبات هائلة ، دون أن تتبين لحظة من زمنها أن مافعلته انما فعلته لما أوتيت من عناد لا نظير له ، ومن شجاعة خارقة للعادة .

هذا الكفاح والنضال ، وهذه الانتصارات ، قد غيرتها جثمانيا ، وكونت لها وجها جديدا . ويستحيل على المرء أن ينظر ، بلا تأثر ، الى صورة فوتوغرافية لماري كورى بعد سن الثلاثين بقليل .. فان الفتاة القوية العبلة قد تحولت الى خيال مخلوقة روحية ، فيكاد يهم بأن يقول : يالها من امرأة جذابة ، ولكن لايجرؤ على هذا القول نظرا لجبينها السامي العريض، ونظرتها السارحة في عالمآخر

ان مدام كورى قد ضربت للمجد موعدا فتجملت له

اكتشاف الراديوم

زوجة شابة تدبر بيتها ، وتحمى بنتها ، وتضع على النار حللها ... وامرأة عالمة ، فى ذلك المعمل المتواضع بمدرسة الطبيعة والكيمياء ، تقوم بأعظم اكتشـــاف فى العلم الحديث .

اجازتا ليسانس ، ومسابقة الاجريجاسيون ، ومبحث فى مغنطة الفولاذ المسقى : تلك هى ، فى آخر ١٨٩٧ ، ميزانية نشاط مارى ودأبها ، مارى التى ماكادت تنهض من نفاسها حتى عادت الى عملها !

والمرحلة التالية التى تتمشى مع التطور المنطقى لمهنتها : هى الحصول على الدكتوراه . فمرت أسابيع لايستقر لها فيها رأى ، اذ لابد من اختيار موضوع بحث طريف خصب يضاف الى تراث المعرفة . وكان رأى بيير فى هذا يعتد به ، فهو : رئيس معمل مارى ، وهو « مديرها » ، وهو اكبر منها سنا وأوفر تجربة ، وهى الى جنب زوجها ترى نفسها شبه مبتدئة .

بيد أن خلق البولونية وطبيعتها ، لهما أثرهما البعيد فى تحديد اختيار الموضوع ، فهى تحمل فى ذاتها ، منذ صباها ، تطلع المستكشفين وجراتهم . وهذه هى الغريزة التى دفعتها من قبل الى مغادرة فارسوفيا لاستكشاف باريس والسوربون ، وهى التى جعلتها تؤثر غرفة منفردة

فى الحى اللاتينى على شـــقة اختها الطيبة المقام . بل كانت ، فى أشواطها خلال الفاب ، تختار دائما الطريق غير الممهد فى الارض البكر التى لم تطأها الاقدام .

فبعد اكتشاف رونتجن Rontgen أشعة x ، خطر لهنرى بوانكاريه ان يعود فيبحث فى ضروب الاشعة المشابهة لاشعة x ، وهل هى مرسلة من اجسام ذوات خواص تحول الضوء الذى تتلقاه الى اشعاعات مضيئة ذوات موجات اطول ؟ . وهى نظرية لفتت هنرى بكرل Becquerel ، فبحث فى املاح « معـــدن نادر » هــو « الاورانيوم » .. ولكنه ، بدلا من أن يجـد الظاهرة المتوقعة ، لاحظ ظاهرة أخــرى مختلفة تمـاما ، وغير مفهومة : فان أملاح الاورانيوم ترسل (من تلقاء نفسها) ـ دون عمل سابق للضوء ـ اشعاعات ذوات طبيعـة مجهولة . فاذا وضع مزيج من الاورانيوم على لوح زجاج فوتوغرافى ، محوط بالورق الاسود ، فانه يؤثر فيه من خلال الورق ، ويحدث تفاعلات . وهـذه الاشـعاعات والتفاعلات « الاورانيومية » المدهشة ، تكهرب مايحيط بها من الهواء بحيث يصبح موصلا جيدا للكهربائية ! ..

فهنرى بكرل قد اكتشف الظاهرة التى ستطلق عليها مارى كورى فيما بعد اسم : « النشاط الاشـــعاعى Radioactivité » ، ولكن أصل هذا الاشعاع وطبيعته قد ظلا لغزا من الالغاز .

وقد جذب اكتشاف « بكرل » كورى وزوجته الى أقصى حد . فمن أين تصدر تلك القوة ، كائنا ما كان ضعفها ، التى تنفصل عنها باستمرار تفاعلات الاورانيوم فى شكل اشـعاعات ؟ وهذه الاشـعاعات ، ماهى اذن طبيعتها ؟ .. هذا هو البحث العظيم الذى يصلح موضوع رسالة للدكتوراه ! .. وقد شاق الموضوع مارى ، لانه

كان ساحة للاستكشاف مازالت بكرا . فان تجاريب بكرل حديثة ، وفى معامل أوربا ، لم يحاول أحد بعد — فيما تعرف — التعمق فى دراسة الاشعاعات الاورانيومية . فهاهى ستبدأ بحثها ، وليس تحت يدها من المواد اللازمة له الا الموضوعات التى قدمها هنرى بكرل الى أكاديمية العلوم خلال عام ١٨٩٦ .

ما ألذ هذه المغامرة !وما ألذ الاندفاع فى ساحةالمجهول

لم يبق الا أن تجد مارى المكان اللازم للقيام بتجاربها . ومن هنا تبدأ الصعوبات . ان مساعى بيير المتكررة ، عند مدير مدرسة الطبيعة والكيمياء ، لم تؤد الا الى نتيجة ضئيلة : هى السماح لمارى بالعمل فى غرفة تستخدم فى المدرسة مخزنا وقاعة للماكينات ، فلا استعداد فيها ولا راحة . لكن الشابة الباسلة لم تيأس . فبالرغم من حرمانها من تركيب الاجهزة الكهربائية ، التى لابد منها فى كل البحوث العلمية ، وجدت السبيل لتسيير آلاتها ، ولم يكن ذلك أمرا هينا . فان الاجهزة الدقيقة لها عدو لدود ، هو الرطوبة وتغيرات الجو . وهكذا كان جو هذا المعمل الصغير . فكما كان ضارا بالآلات الكهربائية الدقيقة الحساسة ، كان كذلك ضارا بصحة مارى .. ولكن صحتها لم تكن عندها يوما ما فى المحل الاول !

وأمعنت مارى فىدرسها وبحثها واستقرائهاوتجاربها . فأدركت أن اشعاعات الاورانيوم ، رغم ضعفها الشديد ، ليست وليدة شىء ، ولا شبيهة شىء ، بل هى اشعاعات ذوات « شخصية » قائمة بنفسها .

ولكن هل الاورانيوم وحده هو مصدر هذه الاشعاعات التى انفرد بها ؟ .. لماذا لاتكون هناك عناصر أخرى لها نفس الخاصية الاشعاعية ، وفى وسعها توليدها ؟ ..

فربما كان اكتشاف هذه الاشعاعات فى الاورانيوم اولا بطريق المصادفة ، هو الذى جعلها مرتبطة به فى عقول الطبيعيين . فالآن يجب أن نبحث عنها فى شيء آخر .

وماكاد يخطر ذلك لماري حتى راحت تعمل . ونبذت دراسة الاورانيوم لتتولى تجربة « كل العناصر الكيميائية المعروفة » ! .. ولم تبطيء عليها النتيجة . فقد وجدت فى اجسام معدن التوريوم Thorium اشعاعات أخرى مندفعة من نفسها ، تشبه ما فى الاورانيوم ، وبنسبة مماثلة . ورات العالمة الشابة بجلاء : أن هذه الظاهرة ليست من خواص الاورانيوم وحده .. فأطلقت عليها اسم : « النشاط الاشعاعى » Radioactivité

وكان « النشاط الاشعاعى » هذا يفتن مدام كورى ، حتى انها لم تمل دراسة أشد المواد تنوعا ، بنفس طريقتها الاولى . وان هذا الفضول النسوى العجيب هو من أول فضائلها ، ومن صفات العلماء ، وهو غريزى فيها الى أقصى الحدود ! .. فبدلا من أن تقف ملاحظاتها عند حد الاملاح والاحماض ، اندفعت فجأة نحو مجموعة معادن مدرسة الطبيعة والكيمياء تحولها الى « عينات » ، كيفما اتفق ، تجرى عليها تجاربها ، وتسجل نتائج امتحاناتها العملية .

وفكرة مارى بسيطة ، بسيطة مثل كل ماتكشف عنه العبقريات . فان مئات العلماء والباحثين كانوا اذا عرض لهم مثل ماعرض لمدام كورى ، قضوا الشهور بل السنين واقفين حائرين مترددين . أما مارى فقد ساءلت نفسها عن هذا التفاعل الاشعاعى النشط الخفى ، ودهشت له ، بيد أنها حولت دهشتها الى عمل مثمر . وكانت كل تجربة لها ، خطوة تخطوها نحو ذلك السر المجهول .

واذا بها أمام مفاجأة مسرحية : لقد اتضح لها أن هذا

النشاط الاشعاعى قد بدا « أقوى بكثير جدا » مما كان يتوقع ، من كل مابدا فى كميات الاورانيوم أو التوريوم التى امتحنتها ... فهل تكون غلطة فى التجربة ؟ .. لقد أعادت مقاييسها وموازينها ، بدقة ، وثبات ، على نفس المواد ، وأعادتها عشر مرات ، وعشرين مرة ... فتيقنت ، بداهة ، أن كميات الاورانيوم والتوريوم التى فى المعادن الممتحنة ، لاتكفى البتة لتحقيق وجود هذه القوة الخارقة فى الاشعاعات التى تشاهدها .

فمن أين تجىء هذه الاشعاعات الفائقة الخارقة اذن ؟! لابد ان تفرض مارى فرضا جريئا جديرا بها ، وهو : ان هذه المعادن ، التى ترسل تلك الاشعاعات كلها ، لابد أن تحوى عنصراكيميائيا مجهولا حتىيومناهذا: عنصراجديدا

مادة جديدة ! .. فرض فاتن مغر .. ولكنه فرض . فالى الآن لا وجود لهذه المادة ذات الاشعاع الدائب الهائل الا فى مخيلة مارى ومخيلة بيير كورى . ولكنها موجودة فعلا ، ولها عندهما مكانها ! .. وقالت مارى لاختها برونيا ذات يوم بصوت حار متمالك :

ــ أتعلمين يابرونيا أن الاشعاع الذى لا أستطيع تفسيره آت من عنصر كيميائى مجهول ؟ .. فالعنصر موجود ، ولم يبق الا أن نجده ! .. ونحن على ثقة من وجوده ! .. أما العلماء الطبيعيون الذين حدثناهم فى شأنه ، فقد زعموا أنها غلطة فىالتجارب ، وأشاروا علينا بالحذر ... ولكنى مقتنعة ، ولست مخطئة ! ..

يالها من دقائق فذة فى هذه الحياة الفذة ! .. ان السطحيين من الناس ، يرسمون فكرة خيالية لا اساس لها عن المكتشف واكتشافه . فان « لحظة الاكتشاف » لا وجود لها على الدوام فى كل الاحوال . فان بحوثالعالم متصلة اتصالا متتابعا يجعل من العسير عليه أن يحكم

على لحظة النجاح واليقين التى تجيء فجأة ، خطفا ، كالبرق الذى يبهر الابصار .. وها هى ذى مارى ، واقفة امام آلاتها واجهزتها المنوعة العويصة ، لم تستطع أن تتذوق نشوة الفوز المباغتة .. لأن النشوة ظلت تسرى فيها على مدى أيام من الجهد المضنى ، المشتعل بحمى الرجاء الرائع ..غير أن اللحظة التىأدركت فيها ، وتحققت فىذهنها ، أنها قد امسكتبطرف مادة مجهولة ، كانت لحظة مثيرة حتما .

أطلعت اختها الكبرى برونيا على سرها ، فعاشت الاختان مرة أخرى فى ذكرى سنوات الهم ، والغم ، والانتظار ، والاصطبار .. والتضحية المشتركة ، وعناء حياتهماطالبتين، حياةملؤهاالحلم الجميلمعالايمانواليقين انها منذ اربع سنوات فقط كانت قد كتبت :

« ... فالحياة فيما يلوح ليست سهلة ميسرة على أحد منا . ولكن لابد من المثابرة ، ومن الثقة بالنفس . ولابد من الاعتقاد بأن المرء منا موهوب فى شيء ، وهذا الشيء لابد من بلوغه مهما يكن الثمن ... »

وفى رسالة رفعها البروفسور ليبمان الى اكاديمية العلوم فى جلسة ١٢ أبريل ١٨٩٨ ، تعلن « مارى سكلودوفسكى كورى » :

احتمال وجود عنصر جديد فى معادن البتشبلند Pechblende متميز بنشاط اشعاعى قوى ، أقوى بكثير مما يوجد فعلا فى معدن الاورانيوم ...

وكانت هذه أول مرحلة فى اكتشاف الراديوم .

ان قوة وجدانها قد أظهرتها على ان تلك المادة المجهولة لابد من أن تكون موجودة ، فقررت وجودها .. ولكن بقى عليها أن تقتحم المنطقة المجهولة ، وتكشف عن تنكر هذا العنصر الخفى .. لابد اذن من تحقيق الفرض

بالتجربة ، وعزل المادة .. لابد من أن يكون فى وسعها أن تحرر وتنشر : « انها هنا ! وقد رأيتها ! »

وقد تابع بيير كورى ، باهتمام وشغف ، نجاح زوجته السريع فى تجاربها . وقد ساعدها ، دون أن يتدخل تدخلا مباشرا ، بملاحظاته ومشورته .. وأمام الاهمية الباهرة التى تحير العقول فى هذه البحوث ، قرر بيير كورى أن يدع مؤقتا دراسته فى البلور ، وأن يضم جهوده الى جهود مارى للقبض على المادة الجديدة العجيبة .

وهكذا ، عندما قضت أهمية عمل هائل بالتعاون ، ظهر العالم الطبيعى العظيم الى جنب العالمة ـ وكان هذا هو رفيق حياتها .

ومنذ ثلاث سنوات ، جمع الحب بين هذا الرجل وهذه المرأة النادرين . وها هو ذا الحب يلبى نداء القدر الخفى ، ويقف بينهما ، يأخذ بيديهما ، ويحارب بسلاحهما الذى سوف يستل للانسان علما جديدا مجيدا من ظلمات الجهل الضنين ...

لقد تضاعفت الآن قوى النضال . ففى ذلك «الاتلييه» الرطب بشارع لومون ، عقلان وأربع أيد تبحث عن الجسم المجهول . ومن الآن فصاعدا سيكون من المستحيل التفرقة بين نصيب كل منهما فى هذا الجهاد .. فكل منهما ، قبل ذلك وبعد ذلك ، قد أتى بالبراهين الدامغة على كفايته ، وعبقريته . فلا نستطيع ، ولا يجوز لنا أن نبحث خلال هذه الثمانى سنوات ، عما يعود الى مارى وعما ينسب الى بيير ، فهذا مالم يرده الزوجان .. ويكفى أن تقرأ بعد ذلك رسائلهما الى الاكاديمية لتجدها كلها موقعة منهما معا ، وفى خلالها تجد : « أن واحدا منا رأى ، وواحدا منا أثبت ... ونحن نقترح أن تسمى مادة كذا : « بولونيوم » ، نسبة الى مسقط رأس احدنا

ولم يتغير العيش فى مسكن شارع لاجلاسيير . فمارى وبيير يشتغلان أكثر من العادة ، وهذا هو كل الفرق .. وعندما هبت روائح الصيف ، وجدت مارى من وقتها متسعا لتشترى من سوق الخضار Halles سلال الفاكهة ، وتصنع منها مرطبانات مربى للشتاء ، طبقا للوصفة المعروفة عند أسرة كورى .. ثم أغلقت نوافذها المطلة على الاشجار المورقة ، وسجلت الدراجتين فى محطة أورليان ، وفعلت ماتفعله ألوف الشابات الباريسيات : سافرت فى الاجازة مع زوجها وبنتها .

غير أن حزنا يصيب مارى ، اذ اعتزمت برونيا أختها وزوجها الدكتور كازيمير دلوسكى مغادرة باريس ، والاستقرار فى بولونيا ، وتأسيس مصحة للمسلولين .. وكان وداع مارى وبرونيا مؤثرا جدا .. فان مارى تفقد صديقتها وشقيقتها وراعيتها ولاول مرة تحس وطأة المنفى:

من مارى الى برونيا ، فى ٢ ديسمبر ١٨٩٨ :

« ليس فى امكانك أن تتصورى الفراغ الذى أحدثته فى حياتى . فاننى افقد بفقدكما ماكنت اتمسك به فى باريس ، ما خلا زوجى وطفلتى . ويخيل الى الآن أن باريس لم تعد توجد ، فيما هو خارج مسكننا والمدرسة التى نعمل فيها .

اسألى مدام دلوسكا الوالدة (حماتها) : عما اذا كان لابد من سقى النبتة الخضراء التى تركتموها ؟ وكم مرة تسقى فى اليوم وهل هى بحاجة الى كثير من الحرارة والشمس؟

اننا فى صحة جيدة ، رغم رداءة الجو والمطر والوحل . ايرين تتحول بنتا كبيرة . وهى شديدة الزهد فى الغذاء ، ولا تريد ، بخلاف التابيوكا باللبن ، أن تأكل شيئا ما بانتظام ، حتى ولا البيض . فاكتبى الى : ما الغذاء الذى

يوافق من كان فى مثل سنها ؟ ..)

ثم كتبت فى ١٥ أغسطس :

« لقد ظهرت سن ايرين السابعة ، فى فكها الاسفل ، الى اليسار .. وهى تفف نصف دقيقة وحدها . ومنذ ثلاثة أيام ونحن نحميها فى النهير • وهى تبكى وتصيح .. ولكنها اليوم ، (فى حمامها الرابع) ، قد كفت عن النحيب ، وضربت فى الماء بيديها . وهى تلعب مع القط ، وتجرى من خلفه صائحة صيحات الحرب ... ولم تعد تخاف الغرباء . وهى تغنى كثيرا ، وتصعد على المنضدة ، من فوق كرسيها ... »

وبعد ثلاثة أشهر ، دونت مارى ، فى ١٧ أكتوبر ، بمباهاة :« ايرين تمشى جيداً •• ولم تعد تمشى على أربع »

وفى ٥ يناير ١٨٩٩ : « ايرين لها خمس عشرة سنا ! »

وبين هاتين المذكرتين ، تلك التى سجلت فى ١٧ أكتوبر أن ايرين لم تعد تمشى على أربع ، وتلك التى سجلت فى ٥ يناير ١٨٩٩ أن قد صار لها خمس عشر سنا ، ثم مذكرة صنع مرطبانات المربى ، أثناء ذلك ، من ثمانية أرطال فاكهة ، وسكر ، وتوفيقها فى صنعها ! .. نجد سطورا أخرى فى سجلات جلسة ٢٦ ديسمبر ١٨٩٨ بأكاديمية العلوم ،تقول : « انالاسباب المختلفة ، التى سبق أن عددناها ،تحملنا على الظن بأن المادة الجديدة للنشاط الاشعاعى تحوى عنصرا جديدا ، نقترح أن يسمى الراديوم»

أربع سنوات في سقيفة

لو اننا اخذنا رجلا ، كيفما اتفق ، من بين الجماهير ، ليقرأ خبر اكتشاف الراديوم ، لما شك لحظة في وجود الراديوم : فان الناس الذين لم ترهف الثقافة ، ولم يشوه التخصص ، حاسة النقد فيهم : يحتفظون بمخيلة طلقة .. وهم على استعداد لقبول حقيقة غير منظورة ، والافتتان بها ، مهما بدت غير مألوفة ..

اما زملاء كورى وزوجته ، من الطبيعيين ، فقد تلقوا النبأ على طريقهم من التحفظ .. فان خواص البولونيوم والراديوم تقلب النظريات الأساسية التى اعتنقها العلماء منذ أجيال .. وهم على شدة اهتمامهم بهذا الاستكشاف العجيب ، كانوا ينتظرون النتائج الحاسمة التى تقطع شكوكهم باليقين .

وكان الكيميائيون أشد من الطبيعيين تعنتا . فالكيميائى هو : « ذاك الذى لا يعتقد بوجود مادة جديدة، الا اذا شاهد هذه المادة ولمسها ، ووزنها ، وفحصها ، وامتحنها بالأحماض ، ووضعها فى زجاجة ، وقرر ثقلها الذرى » ! ..

هذا ، والى الآن ، ما من احد راى الراديوم راى العين ، وما من احد عرف وزن الراديوم الذرى .. ولذلك ظل الكيميائيون مخلصين لمبادئهم ، وجزموا بانه :

« لا ثقل ذرى ، فلا راديوم . أرونا الراديوم ونحن نصدقكم » !

ولكى يظهرا البولونيوم والراديوم للمتشككين ، ولكى يبرهنا للعالم على وجود « طفليهما » ، ولكى يتمما هما نفسهما يقينهما ، سيضطر بيير ومارى كورى الى العمل منذ الآن مدى أربع سنوات .

وكان الهدف هو الحصول على الراديوم والبولونيوم النقيين . ولعزل هذين المعدنين ، الجديدين ، الثمينين ، من الطفيليات والشوائب ، لابد من كميات هائلة من المواد الاولية . وهنا تعرض ثلاثة أسئلة مكربة :

ـ كيف يمكن الحصول على كمية كافية من المعادن الخام ؟

ـ فى اى مكان تقام التجارب ؟

ـ من أى نقود تدفع نفقات هذا العمل التى لابد منها ؟

وكانت صخور البتشبلند La Pechblende المعدنية ، التى يختفى فيها عنصرا البولونيوم والراديوم ، من المعادن الثمينة التى تستخرج من مناجم سان جواكيمستال Saint-Joachimsthal فى بوهيميا ، للحصول منها على أملاح الأورانيوم المستخدمة فى صناعة الزجاج . واطنان البتشبلند تكلف مالا طائلا، اكثر بكثير من ان يقوم به بيت كورى ! ..

ولكن الحذق سيسد مسد المال . فقد حكم العالمان بأن آثار الراديوم لابد من ان توجد فى نفاية البتشبلند . فاذا كان هذا المعدن الخام غاليا ، فان فضلاته قليلة التكاليف ، واذا عولجت بالمعرفة ادت الى النتيجة نفسها . فاذا سالا احد زملائهما النمسويين التوصية على طلبهما عند مديرى مناجم سان جواكيمستال فقد

لا يتعذر الحصول على كمية كافية من تراب هذا المعدن الصخرى بأسعار معقولة .

وكان ذلك أمرا بسيطا ، لكن لابد من خطـوره على البال ! ..

ثم لابد من دفع ثمن هذه المادة الخام ، ودفع تكاليف نقلها الى باريس ، وسيكون ذلك : سيدفعه بيير ومارى من ادخارهما الضئيل . فليسا من السـذاجة بحيث يطلبان اعتمـادات رسمية .. ولو أن هـذين العـالمين الطبيعيين ، اللذين كانا على وشك اكتشـاف هائل ، طلبا معونة جامعة باريس ، أو سألا الحكومة اعانة لشراء تراب البتشبلند ، لضحكت منهما الجامعة ، وسخرت منهما الحكومة ، ولكان خطابهما ، على أى حال ، قد ضاع فى أضابير بعض المكاتب ، ولابد لهما من الانتظـار الشهور الطوال قبـل أن يتسلمـا ردا ، ربمـا جاء آخر الأمر بالرفض . فكأن الدولة ما زالت تسير على النهج الذى أدى الى اعـدام العـالم الـكيميائى الشهير لافـوازييه Lavoisier على المقصلة فى عالم ١٧٩٤ ، وقد أصدر قتلته الحكم عليه بحجة : « أن الجمهورية ليست فى حاجة الى علماء » ! ..

ثم أين المكان ؟ .. أيمكن ان يجدا فسحة فى المبانى العديدة الملحقة بالسوربون ؟! الظاهر ان لا ! .. فبعد مابذل بيير ومارى المسـاعى العـديدة عادا ، بصـفقة المغبـون ، من حيث بدآ .. أى الى مدرسة البـلدية للطبيعة والكيمياء حيث يدرس بيير : الى ذلك «الأتلييه» الذى استخدمته مارى فى تجاربها الأولى ، الذى هـو سقيفة من خشب ، كعنبر مهجور ، سقفه من زجاج فى حالة زرية ، بحيث يتساقط منه المطر ! .. وكانت كلية الطب فيما سلف تستخدمه غرفة مشرحة ، ثم نبذته

منذ امد ، اذ وجدته غير لائق حتى باستقبال جثث الموتى ! .. وليست أرضه من خشب ! .. بل هى مغطاة بطبقة من القار ، وليس فيه من الأثاث الا بعض مناضد مطبخ محطمة ، وسبورة سوداء لا يدرى أحد سر خيبتها وبقائها هنا ، وموقد قديم من حديد صدىء .

وما كان لعامل بسيط ان يقبل راضيا على العمل فى مثل ذلك المكان ، غير ان مارى وبيير قد اقبلا عليه مستسلمين . وكانت ميزته الفريدة ، على سوءاته ، أن أحدا لا يفكر فى حرمان الزوجين من اتخاذهما اياه معملا ! ..

وبينا كانا يضعان اليد على هذه المستعمرة ، جاءهما الرد من النمسا . اخبار طيبة ! .. فبفضل تدخل البروفسور سويس Suess ، عضو أكاديمية العلوم فى فينا ، قررت الحكومة النمسوية ، وهى المالكة لمناجم سان جواكيمستال ، أن تضع مجانا طنا من المعدن الثمين تحت تصرف هذين « المجنونين » اللذين يدعيان حاجتهما اليه ! .. واذا كانا بحاجة الى كمية أخرى أكبر من ذلك فيما بعد ، فهى تقدمها اليهما بثمن بخس .

وفى ذات صباح ، وصلت عربة نقل ضخمة تجرها الخيول ، كتلك التى تنقل الفحم ، ووقفت أمام مدرسة الطبيعة والكيمياء بشارع لومون ... فتهرع مارى وبيير حاسرى الرأس ، وهما فى « مرايل » المعمل ... وحافظ بيير على هدوئه المعتاد . أما مارى ، فان رؤيتها الحمالين يفرغون أكياس البتشبلند قد حملتها على أجنحة الفرح .. فاندفعت ، فى تطلع ونفاد صبر ، تفتح كيسا وتتأمل كنزها الثمين .. تقطع الدوبارة وتكشف القماش السميك وتضع يديها فى تراب المعدن الصخرى الخام الذى مازال ممتزجا بابر صنوبر بوهيميا ...

انه ها هنا يختبىء الراديوم ! .. انه من هنا سوف تستخرجه مارى ، ولو كان شامخا كالجبل الأشم ، هذا الشىء الهامد الذى يشبه حصباء الطريق ...

فى غرفة سطح ، عاشت مارى سكلودوفسكى ألذ الساعات نشوة فى حياتها طالبة . ولا تلبث مارى كورى أن تتذوق ، فى غرفة مشرحة مهجورة ، أفراحا شائقة!..

فيا للعود السعيد على بدء ، الذى وعدت به امرأة : (لم توعد بمثله ، ولم تعرفه ولا ريب ، امرأة قبل مارى) .. اختارها الله لكل هذا الهناء ، فى كل هذا البؤس والعناء ! ...

فهذه « السقيفة » الخشبية بشارع لومون هى آخر ما يصلح للتجارب العلمية . ففى الصيف ، نظرا لسقفها الزجاجى ، تغلى كالمرجل . وفى الشتاء لا يدرى أهلها هل يتمنون الجمد أو المطر . فاذا أمطرت السماء ، تساقط الماء على الأرض قطرة قطرة ، بدوى خفيف ، يلح ويثير الأعصاب ، وعلى مناضد العمل فى أماكن أشر العالمان على مواضعهما ليتحاشياها فلا يضعا فيها أجهزتهما ..

واذا برد الجو ، تثلج المكان وأصحابه .. فلا علاج . وحتى الموقد قد خيب آمالهما ، فاذا اقتربا منه أصابا بعض الحرارة ، واذا بعدا خطوة عنه دخلا المنطقة المتجمدة ! ..

ومع ذلك كان لابد لهما من التعود والصبر . وكتبت مارى فيما بعد ، فى مذكراتها :

« ليس عندنا مال ، ولا معمل ، ولا عون للسير بهذا العبء الجليل الثقيل ..فهو بمثابة خلق شىء من لا شىء . واذا كان كازيمير دلوسكى قد وصف سنواتى الدراسية ، بأنها : « سنوات البطولة فى حياة أخت زوجتى » .. فيمكننى القول دون مبالغة : ان هذه الحقبة كانت ،

لزوجي ولي . عهد البطولة في حياتنا المشتركة .

ومع ذلك ، ففي هـذا العنبر الزرى العتيق ، قـد تتابعت أجمل سنى حياتنا وأسعدها ، موقوفة خالصة للعمل . وكنت أعد غالبا طعامنا حيث نحن ، لكيلا نقطع تجربه هامة .. وكنت احيانا أقضى النهار بطوله أحرك سائلا يغلي على النار بعود من حديد ، طـــوله كطولى ، فاذا جاء المساء سقطت تعبا واعياء ... »

وعلى هذه الحال ، وفي مثل هذه الأحوال ، عمل بيير كورى وزوجته من ١٨٩٨ الى ١٩٠٢ .. فهما فاعلا بناء ، وهما حمالا حطب ، وهما صاهرا حديد ، وهما نافخا نار ، وهما مكتشفا شيء لم يقر له قرار ! ..

فقد ظل الراديوم حافظا سره ، لا يريد أن يميط عن نفسه اللثام ، أو يعرف بنفسه بنى الانسان ! ..

وصارت أيام العمـل أشـهرا ، وتحولت الأشـهر الى سنين ... ولم يفقد بيير ولا مارى الأمل ، ولم تخنهما الشجاعة ، فان هذه المادة التى تقاومهما ، تفتنهما ... وقد جمعت بين الرجل وزوجه ألوان الحنان القلبى والهوى العقلى ، فعاشا حياة غير معقولة ، فى مشرحة مهجورة ، عيشة خلقت له ، وخلقت لها ، ولم تكن تصلح الا لهما ! ..

وعندما كان بيير ومارى يتركان أجهزتهما وتجـاربهما لحظة ليتحدثا ويستجما ، كان يدور حديثهما حول هذا الراديوم المحبوب ..

فتتساءل عنه مارى بالتطلع الحار الذى يشعر به طفل منوه بلعبة :

— ليت شعرى كيف تراه سيكون ؟ .. وأنت يا بيير كيف تتصور شكله ؟ ..

فيجيبها العالم بلطف :

— والله ماأدرى ! غيرأنى أتمنى أن يكون جميل اللون !

ومن عجب أن رسائل مارى كورى الى أهلها وصحبها لا تشير الى جهادها الرائع العجيب .. فلم تشركهم فيما أصابها من شكوك ، وصعوبات ، ومهالك .. لقد اكتفت بقرينها ، وشريك روحها وعقلها ، تبوح له ، ويبوح لها . فهى ، اليه وحده ، تفضى بأفكارها وأحلامها .. وتكتفى بأن تحيط أهلها بهنائها كزوجة وأم ... فانظر الى تواضعها وهى تخفى عبقريتها وعظمتها وراء : « امرأة كغيرها من النساء » :

من مارى الى برونيا ، ١٨٩٩ :

(أن حياتنا تسير على وتيرة واحدة . فنحن نعمل كثيرا ، ولكننا ننام جيدا ، ولذلك لا تسوء صحتنا . والمساء يقضى فى العناية بالبنت . ففى الصباح ألبسها ثيابها ، وأطعمها ، ثم أخرج عادة فى نحو الساعة التاسعة . ولم يحدث خلال السنة كلها أن ذهبنا الى مسرح تمثيل ، أو حفلة موسيقية ، أو قمنا بزيارة ما .. ونحن لهذا بخير . ولا تنقصنى الا أسرتى . ولا سيما أنتم ، أيها الاعزة ، وأبى .. فانى كثيرا ما أفكر بحزن فى عزلته . وليس لى ما أشكو منه ، فالصحة ليست سيئة ، والطفلة تنمو وتكبر ، وزوجى خير زوج يمكن أن تحلم به امرأة . وما كنت لأمنى النفس بالعثور على مثله . فهو حقا هبة من عند الله ، وكلما عشنا معا ازددنا حبا .

عملنا فى تقدم ، ولا ألبث أن ألقى محاضرة فى موضوعه)

وهذا العمل الذى تكتفى مارى بالاشارة اليه لماما ، كان يتقدم تقدما مدهشا . فمدام كورى تقترب من الهدف . وقد أشفق عليها زوجها من شدة ما تلقاه من ارهاق الفكر والساعد ، فى حمل المعادن والأثقال ، والعمل

امام النار ، والتعرض لتيارات الهواء ، لتستخرج مادة نقية ، أنقى من الجوهر ، فى وسط هذه البلوى .. وبدا له أن دون ذلك أهوالا وأهوالا . فنصح صاحبته بعقد هدنة .. فكأنه لم يكن يعرف خلق امرأته . فان مارى قد قررت عزل الراديوم عن كل مادة غريبة مختلطة به ، ولو كانت كما قلنا جبلا شاهقا ، وسوف تعزله حتما . فهى تحتقر التعب والمشقة ، ولا يثنى عزمها أنها تحارب المجهول .

وفى ١٩٠٢ ، بعد خمسة واربعين شهرا ، من اليوم الذى أعلن فيه كورى وزوجه احتمال وجود الراديوم ، تظفر مارى بالفوز النهائى فى حرب الفناء هذه .. فتوفق فى تحضير عشر الجرام من الراديوم النقى ، وفى وزن ثقله النوعى ، فتجد وزن الجوهر الجديد ٢٢٥ .

ولم يعد امام الكيميائيين المتعنتين المتشككين الا أن ينحنوا أمام الواقع ، أمام عناد امرأة هو فوق طاقة البشر ..

لقد أصبح الراديوم موجودا رسميا .

الساعة التاسعة مساء . بيير ومارى فى منزلهما بشارع كلرمان ، حيث تختفى فيه عن عيون الناس حديقة ريفية صغيرة جميلة ، غاية فى الهدوء ، يمكنهما أحيانا التسرب من بابها الخلفى ، على الدراجة ، نحو الضواحى ، أو نحو الغابات ...

وقد اعتكف الدكتور كورى الوالد الشيخ فى غرفته . وأدخلت مارى بنتها الحمام ، ثم ظلت الى جنبها حتى قامت ، والا لم تكف الطفلة عن مناداتها : « مه ! Mé » ذلك النداء الذى سيحل عند ايرين ، وعند ايف ، دائما مهما كبرتا ، محل « ماما » . ولما انتظمت أنفاس الصغيرة التى تبلغ اربع سنوات ، واطمأنت عليها أمها ، نزلت الى

جنب زوجها الذى كان ينتظرها بفارغ الصبر ، يكاد يغار من طفلته ، لأنه اعتاد وجود مارى الى جانبه بحيث لو غابت عنه قليلا غاب معها نور العقل وخفقان القلب ..

ولو حدث أن تأخرت مارى لحظة أكثر مما ينبغى الى جنب بنتها ، فانه يستقبل عودتها بعتب عصبى :

ـ انك لا تعنين الا بهذه الطفلة ! ..

وطفق يتمشى ببطء فى الغرفة ، وجلست مارى تخيط لايرين مريلة جديدة ...

ولكنها فى ذلك المساء لم تكن قادرة على المضى فى تركيز انتباهها فى الابرة والغرزة .. فنهضت ، ثائرة الأعصاب . ووضعت تطريزها ، وتساءلت فجأة :

ـ ماذا ، لو أننا ذهبنا لحظة هناك ؟!

وكانت فى لهجتها نغمة التوسل التى لم يكن بيير فى حاجة اليها ، لأنه هو نفسه كان مثلها يتحرق شوقا الى العودة الى « السقيفة » التى تركاها منذ ساعتين .. فالراديوم ، الفتان كمخلوق حى ، الجذاب كالحب ، يدعوهما الى مسكنه ! ..

فوضعا معطفيهما ، وأحاطا الدكتور كورى الوالد بهربهما ، واختفيا .. وسارا على القدمين ، وقد تشابكت ذراعاهما ، وتبادلا كلمات قليلة .. وتابعا طريقهما فى الشوارع المزدحمة بهذا الحى الغريب ، بمبانيه الصناعية ، وأرضه المهملة ، وعماراته المتواضعة ، حتى وصلا الى شارع لومون ، وعبرا الحوش .. ووضع بيير المفتاح فى القفل ، فكان للباب صرير ، كالذى سمعاه منه ألوف المرات ... وهما الآن فى دولتهما : فى حلمهما ...

وأهابت مارى بزوجها فى الظلام :

ـ لا تشعل النور ! ..

ثم أضافت ، فى ضحكة صغيرة :

ـ أتذكر يوم قلت لى : « أريد ان يكون الراديوم جميل اللون » !؟ ..

وكانت الحقيقة أروع من كل التمنيات الساذجة التى تمناها بيير ومارى منذ بضعة اشهر .. فان للراديوم شيئا آخر غير «اللون الجميل» : فهو بنفسه نورانى مضيء !.. وفى ذلك العنبر المظلم ، حيث وضعت ذراته الثمينة فى انابيبها الزجاجية الدقيقة ، ووضعت ـ لعدم وجود دواليب ـ على المناضد أو الرفوف ، المثبتة بالمسامير الى الحيطان ، أرسلت أضواءها الفوسفورية الضاربة الى الزرقة ، البراقة ، المعلقة فى كبد الظلمات ...

فتمتمت المراة الشابة :

ـ انظر ... انظر ! ..

وتقدمت باحتراس ، وتلمست مقعدا من القش ، وجلست . وفى الظلام ، والسكون .. اتجها نحو الأضواء الشاحبة ، نحو الينابيع الخفية للاشعاعات ، اتجها نحو اكتشافهما ، نحو الراديوم ! .. وانحنت مارى بجسمها ، واقبلت برأسها ، واتخذت ذلك الموقف الذى كان منذ ساعة موقفها على حافة مهد طفلتها الجميلة النائمة ...

ولمست يد رفيقها شعرها الذهبى .

ستظل تتذكر ، مدى العمر ، هذه الديدان الوهاجة ، وتتذكر هذا السحر ..

الحياة الشاقة

كان بيير ومارى يكونان جد سعيدين ، لو أنهما استطاعا وقف قواهما على كفـاحهما الانسـانى المثير ، فى معملهما الحقير ..

اسفا على أنه لا بد لهما من مواجهة ضروب أخرى من الكفاح والنضـال ، لا يخرجان منها ظافرين .

كان على بيير ، مقابل الخمسمائة فرنك فى الشهر ، أن يعطى فى السنة مائة وعشرين درسا سنويا بمدرسة الطبيعة والـكيمياء ، وأن يتولى الاشراف على تجـارب الطـلبة وتوجيههم . دع مع هذا التدريس المرهق ،عمله ومباحثه. وعندما كان الرجل وزوجه بلا أولاد ، غطت الخمسمائة فرنك نفقات البيت ، ولكن بعد مولد ايرين ، جاء أجر الخادم ، ومرتب المرضـع ، فأخلا بالميزانية . فجرد بيير ومارى حملة لايجاد مصادر رزق جديدة .

فكيف العمل ، وبيير كورى كما نعرفه يؤثر المضى فى بحوثه بمعمله ، المفتوح لعصف الريح وهطول المطر ، على الطعام والمنام ؟!

الحل بسيط ، بسيط جدا . فلو أن بيير عين استاذا فى السوربون ، وهى وظيفة تخوله اياها أعماله بداهة ، لأعطى دروسا أقل عددا من دروس المدرسة ، ولأضاف من علمه الى معين الطلاب ، ولرفع من نفوذ الجامعة ، ولما

طلب من القدر المزيد . فان مطامحه تتلخص فى : « كرسى أستاذ » ليكسب عيشه ، ويربى شباب العلوم الطبيعية ، و «معمل لتجاربه» مستكمل الاستعداد الكهربائى والفنى، وفيه مكان لبعض المساعدين ... ويكون فى الشتاء أكثر دفئا ...

مغالاة جنونية فى الطموح ! .. فان وظيفة الأستاذية ، لن يحصل عليها بيير كورى الا فى عام ١٩٠٤ ، عندما تهتف الدنيا بأسرها بقدره ! أما المعمل فلن يجد اليه أبدا سبيلا. والموت أسرع من السلطات العامة فى طلب عظماء الرجال !

وهو ، كعالم ، يجهل الدسائس الحكومية . ومواهبه ، وصفاته ، وأعماله لن تغنى عنه شيئا : لأنه لا يستطيع ابراز قيمتها .. وقد قال عنه العالم الشهير هنرى بوانكاريه :

« انه على استعداد دواما ليمحو نفسه أمام أصدقائه ، أو حتى أمام منافسيه » ..

ففى ١٨٩٨ يخلو كرسى « الكيمياء والطبيعة » فى السوربون . فيعزم بيير كورى على المطالبة به . وكان العدل يقضى بتعيينه فيه .. ولكنه لم يكن من تلاميذ مدرسة « النورمال » ولا من تلاميذ مدرسة «البوليتكنيك» فهو محروم من التأييد الحاسم الذى يسند به هذان المعهدان تلاميذهما القدماء . زد على هذا أن اكتشافاته منذ خمسة عشر عاما ليست « تماما » فى حيز « الكيمياء والطبيعة » .. فرفض ترشيحه ! ..

ولكن لا بيير ولا مارى باللذين يضيعان وقتهما فى ابهاء الوزارات ، ودسائس الجامعات .. فرضيا من الغنيمة بالاياب ، دون تذمر ولا شكوى .. وليست ــ فضلا عن ذلك ــ الخمسمائة فرنك بالفقر المدقع ! ..

من مارى الى جوزيف سكلودوفسكى ـ مارس ١٨٩٩ :

(لابد لنا من شدة الحرص ، فليس مرتب زوجى بالذى يكفى العيش عن سعة ، وان كان لا يحدث عجزا .

وأرجو أنا وزوجى أن يتمكن قريبا من الحصول على مهنة ثابتة ، لا لنكفل تغطية نفقاتنا فحسب ، بل لندخر شيئا يكفل مستقبل طفلتنا . وأريد أن أقدم رسالة الدكتوراه أولا قبل أن ابحث عن عمل .

ونحن فى هذه الآونة مشغولان بمعادننا الجديدة ، بحيث لا أقدر على تحضير رسالتى ، وهى حقيقة تقوم على هذا العمل نفسه ، ولكنها تتطلب دراسات تكميلية لا طاقة لى بها الآن ..

صحتنا جيدة . ولا يشكو زوجى من الروماتيزم بقدر ما كان يشكو .. أما أنا فلم أعد أسعل بتاتا ، ولا شىء فى رئتى كما دل الفحص الطبى .

ايرين تنمو نموا طبيعيا . وقد فطمتها فى شهرها الثامن عشر ، ولكننى بالطبع أعطيها منذ حين حساء اللبن ، والآن أغذيها بهذا الحساء والبيض الطازج)

سنة ١٩٠٠ .. دفتر الحساب يدل على أن الخرج يفوق الدخل . وقد سكن الدكتور كورى الوالد مع ولده فى بولفار كلرمان ، وأجر بيته بضاحية « صو » . ومارى تدفع الآن فى بيتها هذا ١٤٠٠ فرنك سنويا .. واضطرت الحاجة بيير كورى الى قبول وظيفة معيد فى مدرسة البوليتكنيك ، فزاد الدخل الفين وخمسمائة فرنك فى السنة ..

ثم هبط عليهما فجأة اقتراح غير مأمول .. ولكنه لا يجىء من فرنسا .. بل من جامعة جنيف التى قدرت هذين العالمين حق قدرهما ، فعرض العميد على بيير كورى

كرسى استاذية الفيزيقا ، بمرتب عشرة آلاف فرنك ، ومرتب اقامة ، وادارة معمل مجهز بكل ما يلزم ، مع مساعدين له .. كما منحت مارى وظيفة رسمية فى المعمل نفسه .. فياليت هذا العرض قد جاء من جامعة باريس ! .. اذن لطاب العيش ونعمت العقبى ! ..

فيسافران فى يوليه الى سويسرا ، ويعتزمان القبول.. ثم تبدأ الوساوس والتردد .. كيف يضحيان شهورا عديدة فى تحضير دراسة مهمة ، ويعطلان الى حين بحثهما فى الراديوم ، وليس نقل معدات الاكتشاف من الهينات.. فيرسل بيير كورى شاكرا ، معتذرا ، مستقيلا .. لقد دفعا هذا الاغراء عنهما حبا فى الراديوم ، وقررا البقاء فى باريس .. ولا يلبث بيير أن يغادر مدرسة البوليتكنيك ، ليتولى التدريس فى قسم الـ P.C.N. (الفيزيقا ، والكيمياء ، والعلوم الطبيعية) الملحق بالسوربون .. وشاركته مارى فى القيام بنصيبها ، فرشحت نفسها للتدريس بمدرسة النورمال العليا للبنات فى سيفر ، قرب فرساى ، فجاءها الرد من العميد :

سيدتى :

أتشرف باحاطتك بأنك ، بناء على اقتراحى ، قد كلفت خلال السنة الدراسية ١٩٠٠ – ١٩٠١ بمحاضرات الطبيعة للسنتين الأولى والثانية بمدرسة النورمال فى سيفر .

فتفضلى بتقديم نفسك الى الآنسة الناظرة ابتداء من يوم الاثنين القادم ٢٩ الجارى

توفيقان .. لقد توازنت الميزانية لزمن طويل .. برغم حرمان بيير من الكرسى الجدير به فى السوربون .. فما أكثر الوقت الضائع بين معاهد التعليم فى دروس ثانوية!.. وما أبعد الشقة على مارى فى سفرها مرات كل أسبوع الى سيفر فى ترام بطىء بطئا مؤئسا، تنتظره نصف ساعة

كاملة ، واقفة على الرصيف ! .. وبيير يجرى من شارع لومون الى شارع كوفييه ليدرس لقسم P.C.N. .. لم يعود يجرى الى المعمل الملعون ! ..

ويرشح نفسه لعضوية المجمع العلمى باجماع صحبه.. لينال منافسه « أماجا » Amagat ٢٣ صوتا ، وينال هو ٢٠ صوتا ، والثالث Gernez ستة أصوات ! .. وما اكثر ما أضاع أيضا من وقت وزيارات من أجل هذه النتيجة العرجاء ! ..

أما عميد الجـامعة الجـديد ، بول آبل ، الذى كانت تسمعه مارى سـكلودوفسكى وهـو يلقى دروسه فى السوربون ، مبهورة ، مأخوذة ، فقد عرف لبيير قدره ، والح عليه أشد الالحاح فى قبول ترشيحه لوسام اللجيون دونور .. ويكتب اليه فى هذا ، ويكتب الى مارى لتؤثر فى زوجها وتحمله على عدم الرفض . ولكن بيير يرفض ويصر على الاعتذار ، ويكتب اليه بأن حاجته الى معمل اشد من حاجته الى وسام ! ..

من جورج سانياك الى بيير كورى :

« لقد راعنى ما رأيته فى مدام كورى من تغير ملامحها وذبولها· وانىاعلم أنها ترهقنفسها فىاكتشافها وتحضير رسالتها . ولكن هذا دلنى على أن قوة مقاومتها غير كافية لتعيش هذه العيشة الذهنية البحتة كما تفعل ، وما أقوله منها ، أقوله عنك ..

فكلاكما لا يأكل الكفاية . وقد رأيت اكثر من مرة مدام كورى تقضم قطعتين من السجق ، وتبلعهما بفنجان من الشاى . فهل تظن أن بنية ، مهما كانت قوية ، لا يمكن ان تتأثر بمثل هذه التغذية غير الكافية ؟ فماذا يصيبك لو ان مدام كورى أضاعت صحتها ؟

ان عدم الاكتراث والعناد من جانبها ليسا عذرا لك .

وقد تعتذر بأنها ليست جائعة ! .. وانها كبيرة تعرف ما عليها عمله ! .. ولكن لا .. انها تتصرف الآن تصرف الأطفال .. فأنتما لا تلقيان الى الطعام بالا ، وتتناولانه فى اية ساعة ، كيفما اتفق .. وفى المساء تتأخران حتى تتمرد المعدة من طول انتظارها ، فتأبى العمل مع الأيام .. فلا تتخذا هذا التأخير عادة .. ومن الضرورى الا تخلطا الشواغل العلمية بكل دقائق حياتكما . فدعا الجسم يتنفس .. ولابد لكما من الجلوس براحة أمام المائدة ، تأكلان فى أناة ، وتتجنبان الكلام فى أشياء محزنة ، او مرهقة للدماغ .. وليس لكما أن تقرآ أثناء الأكل ، ولاان تتكلما فى علم الفيزيقا .. »

وستحمل لهما السنة القادمة حوادث اليمة . فقد حملت مارى ثم سقط الجنين ، فاسمع الى بثها وحزنها :

<u>من مارى الى برونيا — ٢٠ اغسطس ١٩٠٣ :</u>

« اننى شديدة الجزع من هذا الحادث حتى لا أجد الشجاعة للكتابة الى انسان . فقد تعودت على انتظار هذا الطفل الى حد لا أجد بعده عزاء . فرجائى الكبير ان تكتبى الى عما اذا كان الذنب ذنب ضعفى العام ! فاننى لا أخفى عنك انئى لم ادخر لقواى جهدا . فقد كنت موفورة الثقة ببنيتى ، والان أندم على ذلك ، لاننى دفعت فيه ثمنا غاليا . لقد كانت طفلة ، بنتا صغيرة ، فى حالة طيبة ، وكانت حية .. وانا فى أشد الحاجة اليها ، والتمنى لها .. »

ثم تجىء بعد ذلك اخبار سيئة من بولونيا . فقد ولد لبرونيا طفل ثان : ولد ، مات فى خلال أيام ، فحدث عن حزن مارى على ما أصاب أختها ، وتساؤلها عن موت ولد كان فى تمام العافية ، وماذا يفعل الوالدان اذن

للاحتفاظ بالاولاد وتربيتهم أكثر مما فعلا ؟.. وهى لا تكاد الآن تنظر الى بنتها ايرين حتى ترتجف هلعا عليها ..

والح الروماتيزم على بيير كورى ، وتركه فى حالة يرثى لها . فكان يئن طوال الليل ، وامراته الوالهة ساهرة الى جانبه ..

وهى فى هذا الويل كله تؤدى دروسها فى سيفر ، وكلاهما يتلهف على العودة الى المعمل .. ففى مرة ، مرة واحدة ، لم يستطع بيير صبرا ، فصدرت منه هذه الشكاة الخافتة :

ـ ان الحياة التى اخترناها شاقة عسيرة ..

فحاولت مارى أن تحتج ، ولكنها لم تستطع اخفاء جزعها .. فاذا كان بيير قانطا الى هذا الحد فهل خانته قواه ؟.. أيكون مريضا بداء عضال ؟.. ان فكرة الموت كانت تتردد فى الاشهر الاخيرة حول هذه المراة .. فصاحت:

ـ بيير !..

فدهش العالم ، والتفت الى مارى ، التى نادته بيأس وصوت مختنق ، وسأل :

ـ ماذا جرى ؟.. ماذا أصابك ياحبيبتى ؟

ـ بيير .. اذا أختفى احدنا ، فلا ينبغى للآخر ان يعيش بعده .. فليس فى وسع احدنا أن يعيش دون الآخر ... اليس كذلك ؟..

فهز بيير رأسه .. فان كلمات المراة ، كلمات العاشقة التى نسيت ، لحظة من دهرها ، رسالتها ، قد ذكرته بان العالم لا يحق له هجر العلم : هدف حياته ..

فتأمل هنيهة وجه مارى المربد من الاسى ، ثم قال بحزم:

ـ أنت مخطئة . فمهما حدث ، ولو أصبحنا جسدا بغير روح ، فلابد من المضى فى العمل والكفاح ..

رسالة الدكتوراه

ماذا يعنى العلم اذا ماكان خدمته وسدنته اغنياء او فقراء ، سعداء أو أشقياء ، أصحاء أو مرضى ؟.. فالعلم موقن بأنهم خلقوا للبحث والاستقراء والاستكشاف ، وأنهم سيظلون يبحثون ويجدون الى أن تخونهم قواهم ، وتحين ساعتهم . وليس فى مقدور العالم أن يقاوم استعداده ، أو يناضل مواهبه والهامه . وهو حتى فى أيام « القرف » والتمرد ، تقوده خطاه حتما وتعود به الى اجهزة معمله .

فلا عجب اذن من ازدهار أعمال بيير ومارى ونجاحها خلال هذه السنين الشاقة العسيرة .. وها هو ذا استكشافهما : « النشاط الاشعاعى » قد سطع ، وبهر العقول ، والانظار ، فى حين قصم ، شيئا فشيئا ، ظهرى العالمين اللذين وهباه الحياة ...

فنرى أنهما من سنة ١٨٩٩ الى ١٩٠٤ قد نشرا - اما معا ، واما أحدهما على انفراد ، واما مع زملاء لهما - اثنين وثلاثين مبحثا علميا .. ولم يلبث اكتشافهما الذى ولد فى فرنسا أن اجتاح الخارج بسرعة .. فانهالت منذ ١٩٠٠ من انجلترا والمانيا والنمسا والدانمرك الرسائل والاستعلامات الموقع عليها من أعظم أساطين العلم وفطاحله ، على عنوان شارع لومون ...

وعكف العلماء ، فى كافة بقاع الارض المتحضرة ، على دراسة الراديوم وخواصه ، وتأثيره الذى راع عقولهم ، اذ ظهر ان اشعاعه أقوى من اشعاع الاورانيوم بمليونى مرة! واتضح ان تأثيره على كل مايعرض له ، اشد من تأثيرالسحر فى الزمن الخالى !.. فهو لايبالى بالورق الاسود ، الذى يحجب اللوحات الفوتوغرافية ، فيطبعها بما يريد . وهو يحول الجو موصلا كهربائيا ، وبذلك يفرغ الالكتروسكوب ــ وهو مقياس الكهرباء ــ عن بعد .. وهو يصبغ بلون البنفسج الانابيب الزجاجية التى تتشرف بأضوائه . وهو يقضم ، شيئا فشيئا ، الورق أو القطن الذى يلف فيه ويحوله الى مسحوق !.. وهو ، كما سبق لنا القول ، نورانى مضىء ، بحيث تمكن المطالعة على ضوئه ليلا !.. ولكن ليس هذا آخر عجائب الراديوم .. فهو يمنح الضوء أيضا لاجسام مظلمة ، كان يستحيل عليها أن تضىء بنفسها مثل الماس . زد على هذا أن الراديوم له صفة «العدوى» .. ينتقل كشذا العطر ، ويعدى كالمرض !.. ويستحيل ان يترك جماد ، أو نبات ، أو حيوان ، أو انسان ، أمام انبوبة راديوم ، دون أن يحدث فيه توا « تفاعل نورانى » محسوس ، يمكن آلة دقيقة أن تسجله . وكانت هذه العدوى ، التى تدخلت فى نتائج التجارب الدقيقة ، عدوا لدودا مقيما لبيير ومارى كورى .

وكتبت مارى :

« لابد من اتخاذ احتياطات خاصة ، فاذا أردنا الاستمرار فى عمليات المقاييس الدقيقة . فان مختلف الادوات المستعملة فى معمل الكيمياء ، وتلك التى تخدم تجارب الفيزيقا ، لا تلبث أن تتأثر بالاشعاع الكهربائى ، وتصبح كلها اشعاعية ، فتؤثر فى الزجاج الفوتوغرافى رغم الورق الاسود . ويصبح التراب ، وهواء الغرفة ،

والملابس : ذوات اشعاع .. ويتحول هواء الغرفة موصلا كهربائيا . وقد ضاق بنا الحال فى المعمل الذى نشتغل فيــه ، اذ لم يعد لنا جهــاز واحــد معزول غير متأثر بالراديوم ! .. »

وانا لنجد ، بعد وفاة بيير ومارى كورى بزمن طويل أن كراسات مذكراتهما العلمية ، مازالت متأثرة ، فى تضاعيف أوراقها ، بهذا « التفاعل » الخفى الاشعاعى العجيب ، حتى ظلت تؤثر أيضا بعد ثلاثين عاما أو اربعين ، فى اجهــــزة الموازين التى تكون منها دانية !..

وقد يلوح الراديوم لمن لايعرفه جسما جامدا ، فى حين أنه قوة هائلة ، خالقة ، محطمة ، قاتلة ، تسبب المآسى والانتحار ، وتحول الاقدار ، وينشأ عنها الحياة والموت .

ولم يعد ، منذ اكتشاف الراديوم ، أمامالفلاسفة الا أن يبدأوا من جديد فلسفتهم ، كما بدأ العلماء ، من جديد علمهم !..

أما آخر عجائب الراديوم واشدها تأثيرا ، فهو :مساهمته فى خير الانسانية وسعادة البشر . فانه سيصبح حليفــا لهم ضد داء السرطان الوبيل .

فقد أعلن العالمان الالمانيان ، ولكخوف Walkhoff ، وجيزل Giesel ، فى عام ١٩٠٠ ، أن المادة الجديدة لها تأثيرات فيزيولوجية . فبادر بيير كورى ، غير مكترث بالخطر ، الى تعريض ذراعه على الفور لتأثير الراديوم . فلم يلبث أن ظهر الضرر الذى فرح به ، وسجل عوارضه فى رسالة الى الاكاديمية ، وصفه فيها :

« احمر الجلد على سطح ستة سنتيمترات مربعة ، وكان اقرب فى الشكل الى الاحتراق ، ولكنه لم يتسـع ، بل ارتفع بحيث كون فى اليوم العشرين قشرة ، ثم جرحا ، ربطه . وفى اليوم الثانى والاربعين بدات طبقــة الجـلد

الظاهرة تتكون فى الاطراف ، وتتجه الى الوسط ، وبعد اثنين وخمسين يوما من عمل الاشعة ، كان لايزال باقيا موضع الجرح ، مسطح سنتيمتر مربع واحد ، بحالة جريحة ، اتخذت لونا داكنا يدل على تأثر أشد عمقا .

زد على هذا ان مدام كورى ، وهى تنقل أنبوبة صغيرة مختومة تحتوى على بضعة أجزاء من عشر الجرام من هذه المادة ، قد أصيبت باحتراقات كهذه ، على الرغم من ان الانبوبة الصغيرة كانت موضوعة ايضا فى علبة معدنية رقيقة

وفضلا عن هذه التفاعلات الحية ، فقد أصابت أيدينا ، اثناء البحوث التى قمنا بها فى تحضير عناصر الراديوم ، تفاعلات منوعة . فقد أصيبت الايدى بتقشف عام . واطراف الاصابع ، التى أمسكت الانابيب أو الكبسول الذى يحوى المادة ، نالتها أحيانا أوجاع أليمة جدا . وأصيب أحدنا (يقصد بذلك نفسه أو مدام كورى) بالتهاب فى اطراف الانامل استمر خمسة عشر يوما ، وانتهى بسقوط الجلد ، ولكن الاحساس المؤلم لم ينته تماما برغم مضى شهرين . »

هذا ، وكان زميلهما ، وصديقهما البروفسور هنرى بكرل ، يحمل فى جيب صدريته انبوبة زجاجية تحوى بعض الراديوم ، فأصيب أيضا باحتراق (لم يكن يتمناه !) .. فبهت من العجب ومن الغضب ، وهرول الى دار كورى يشكو لهما ما أصابه من مآثر ولدهما المروع !!.. وختم كلامه بقوله :

« ان هذا الراديوم ! .. أحبه ، ولكنى محنق عليه !.. »

وبهر بيير كورى من شدة سلطان اشعاع الراديوم ، فجربه فى الحيوان مع بعض الاطباء البارزين ، كالاساتذة بوشار وبلتازار . فوصلوا الى نتيجة تقطع : بأن الراديوم يفتك بالخلايا المريضة ، فيشفى القرح الجلدية والدمامل

وبعض أشـــكال السرطان . واتخذ هذا العـــلاج اسم كوريتيرابى Curietherapie . وكان كبار الاطبـــاء الفرنسيين (أمثال دولوس وويكهام ودمونيتشى ودجريه الخ) يطبقونه بنجاح فى علاج المرضى ، باستعارتهم أنابيب الراديوم من مارى وبيير كورى . كما استخدمه الدكتور دولوس ، فى مستشفى سان لويس بباريس ، فى معالجة البشرة ، فاتخذت جلدا جديدا !..

اذن فالراديوم نافع نفعا مدهشا ، رائعا ، لاحد له ! وقد تنبأ له الثقات بنتائج مباشرة ، نافعة ، لا غنى عنها للانسانية .

وعلى ذلك ستنشأ « صناعة الراديوم » !..

واشرف بيير ومارى على بداءة هذه الصناعة . وحضرا بأيديهما ـ ولا سيما بيدى مارى ـ اول جرام من الراديوم وذلك باستخراجه من ثمانية اطنان من تراب البتشبلند فى عنبر مدرسة الطبيعة والكيمياء ، طبقا لاختراعهما .

وفى ١٩٠٤ خطر لرجل صناعى فرنسى ، همام ذكى ، يدعى أرميه دى ليل Armet de Lisle ، تأسيس مصنع لعمل الراديوم وتقديمه للاطباء . وعرض على بيير ومارى معملا متصلا بمصنعه ، يمكنهما فيه القيام ، فى راحة ودقة ، بأشغالهما . فاتخذا لهما مساعدين لتكوينهم وتدريبهم .

أما مارى فلن تفترق عن اول جرام من الراديوم راى النور على يديها ، بل ستهديه فيما بعد الى معهدها . ولم يكن لها ، ولن يكون ، من ورائه ، الا جهدها الشاق المضنى وعندما ينهار ذلك العنبر الخشبى ، ذو السقف الزجاجى المحطم ، تحت فؤوس الهدم ، وعندما تغيب مدام كورى عن هذا العالم ، سيظل هذا الجرام من الراديوم الرمز

المشعضياء ونورا لعمل عظيم ولجهاد بطلين من صناع التاريخ
اما الجرامات الاخرى فسوف تتخذ قيمة أخرى : قيمة ذهبية . فقد اصبح الراديوم صناعة ، ثم سلعة تعرض للبيع ، كأثمن مادة واغلى بضاعة عرفت فى عالم التجارة . وقد قدر الجرام الواحد منه بسبعمائة ألف فرنك ذهبا ، اى مايعادل ثمانية وعشرين ألف جنيه مصرى !!!

***

اذا كانت اعمال العلماء فى الراديوم مخصبة مثمرة فى مختلف البلدان ، واذا كانت قد خلقت صناعة جديدة ، واذا كانت التجارب الاولى من تطبيق الاشعة فى معالجة ابشع الامراض قد كللت بالنجاح ، فذلك كله كان ، لان امرأة شابة شقراء ، حملها التطلع المعروف فى النساء ، والتحمس للعلم المشهود فى الرجال ، على اختيار هذا الموضوع لرسالتها .. وماذلك الا لانها عرفت كيف تتوسم وتتنبأ بما فى « البتشبلند » من عنصر جديد ، ولانها ضمت جهودها الى جهود زوجها ، فأثبتت وجود هذا العنصر ، ولانها وفقت بعد ذلك الى عزل الراديوم فصار نقيا ، كأثمن جوهر فى الوجودمنذ وجدت الارض ومن عليها

هاهى ذى : هذه المراة الشابة ، يوم ٢٥ يونية ١٩٠٣ ، امام سبورة سوداء ، فى قاعة صغيرة يطلقون عليها «قاعة الطلاب» فى السوربون ، يصلون اليها من سلم حلزونى ضيق منزو . وقد مضى خمس سنوات على مارى منذ تهجمت على موضوع رسالتها ، ولكن مشاغل استكشافها الهائل قد اخرت طويلا امتحان الدكتوراه ، لانه لم يكن لديها الوقت الكافى لاستجماع عناصره . وهاهى اليوم تقدم نفسها وتقف أمام قضاتها !.. وكان موضوع الرسالة:
Recherches sur les Substances radioactives
قدمت نصه كالمتبع الى ممتحنيها الثلاثة ، وعلى رأسهم

البروفسور ليبمان . و .. — وباللحادث العجيب الذى لا يصدق !.. قد اشترت لنفسها ثوبا جديدا ، اسود شاملا : « من صوف على حرير » !!.. أو بالاحرى أن أختها برونيا التى جاءت الى باريس لحضور مناقشة الرسالة ، قد عيرت أختها بثيابها اللامعة ، واخذتها رغم انفها الى محل ، وتفاوضت مع البائعة ، واختارت القماش وأشارت ببعض التصليح ، دون أن تهتم بأختها الصغرى السارحة فى ملكوت العلوم ، تنظر اليها كاسفة البال !..

وفى صباح يوم من شهر يونيه ، ضاحى الشمس ، مشهود الذكرى ، ألبست برونيا أختها مانيا ، بنفس العناية ونفس التأثر ، اللذين شعرت بهما منذ عشرين عاما ، فى ١٨٨٣ ، يوم البست صغيرتها « مانيوزيا » ثوبا أسود كهذا الثوب ، اذ كان عليها أن تتقبل ، من يد موظف روسى ، المدالية الذهبية لمدرسة شارع كاركوفيا ...

وقفت مدام كورى معتدلة القامة .. وعلى محياها الشاحب ، وعلى جبينها العريض المقبب ، الذى كشف عنه شعرها الاشقر المرفوع كالخوذة ، ظهرت تجعدات دقيقة جدا تدل على آثار المعركة التى خاضتها ، وكسبتها ... وتزاحم الطبيعيون والكيميائيون بالمناكب فى الغرفة التى تملؤها الشمس .. فجاءوا بمقاعد اخرى ... فان الاهمية الاستثنائية لموضوع الرسالة التى ستناقش هنا قد جذب رجال العلم . واخذ الدكتور كورى الشيخ ، وبيير كورى ، وبرونيا ، أماكنهم فى آخر القاعة ، محشورين بين الطلاب .. وعلى مقربة منهم لفيف من الفتيات اليانعات يثرثرن ، هن تلميذات مارى بمدرسة سيفر ، جئن يصفقن لمعلمتهن ...

وكان الممتحنون الثلاثة فى ثيابهم الرسمية ، جالسين وراء منضدة طويلة من البلوط .. فتناوبوا توجيه الاسئلة

الى طالبة الدكتوراه . وكانت مارى تجيب بصوت رقيق وفى يدها قطعة من الطباشير ترسم بها أحيانا على السبورة تفسير ابحاثها . فحولت الاصطلاحات العلميــة الباردة ، الى صورة حماسية حارة : صورة أعظم اكتشاف فى العصر

فالعلماء لا يقرون الفصاحة والتعليقات .. فكذلك يمنح قضاة كلية العلوم مارى سكلودوفسكى كورى درجـــة الدكتوراه بكلمات غير لامعة ، تجعل لها بساطتها المطلقة ، عند قراءتها الآن بعد ثلاثين عاما أو اربعين عاما ، قيمــة مؤثرة عميقة .. وقد نطق البروفسور ليبمان ، الرئيس ، بالعبارة المقررة: ان جامعة باريس تمنحك لقب دكتور فى العلوم بدرجة « مشرف جدا » ..

وعندما خفت تصفيق الحضور ، أضـــاف بمودة ، وبصوت الشيخ الجامعى الحيى :

ـ وانى باسم المحلفين ياسيدتى اعبر لك عن تهانئنا ..

وهذه الامتحانات الصارمة ، وهذه الحفـلات الجدية المتواضعة التى تجرى على وتيرة واحدة ، للباحث المبقرى وللعامل المجد الامين على سواء ، لا تدعو الى السخرية ..

فهى لها أسلوبها ، ولها جمالها ، ولها جلالها ...

وقبل مناقشة الرسالة ببعض الوقت ، وقبل تقــدم صناعة الراديوم فى فرنسا وفى الخارج ، اتخـذ كورى وزوجه قرارا لم يعلقا عليه أهمية كبيرة ، ولكنه سيؤثر تأثيرا كبيرا على البقية من حياتهما .. فان مارى بتنقيتها « البتشبلند » وبعزلها الراديوم ، قد اخترعت فنــا ، وخلقت طريقة لصنعه .. واستعمدت بلدان عديدة ، فى مقدمتها امريكا ، والبلجيك ، لاستغلال هذا الاكتشـاف . ولم تكن المصانع لتستطيع انتاج هذا « المعدن الخرافى » ، الا اذا عرف مهندسوها سر تحضير الراديوم النقى ..

فبسط بيير هذه الشؤون لزوجته ، فى صبيحة يوم

احد ، فى بيتهما الصغير بشارع كلرمان ، فقد آن الكلام فى صدد هذا الـــكنز النفيس الذى لا نزاع فى تأثيره ، وانتشاره ، وسلطانه ، وقال :

ــ ونحن الآن بازاء حلين .. فاما أن ننشر ، دون قيد ولا شرط ، نتائج بحوثنا ، بما فى ذلك طريقة تنقيةالراديوم ... واما أن نعد أنفسنا كأصحابه ، باعتبارنا « مخترعى الراديوم » . وفى هذه الحالة ، قبل أن ننشر طريقة تحليل البتشبلند ، لابد لنا من أن نسجل فنية الابتكار ، لنحفظ لانفسنا حقوق صنع الراديوم فى العالم بأسره .

ففكرت مارى بضع لحظات ، ثم قالت :

ــ هذا مستحيل . انه يكون مخالفا للروح العلمى .

فأشرق وجه بيير ، ولكنه ، اراحة لضميره ، عاد يقول:

ــ أظن ذلك .. ولكننى لا أريد أن نتخذ هذا القرار خبط عشواء .. فان حياتنا عسيرة شاقة .. وهى تنذرنا بالبقاء كذلك أبدا . ولنا طفلة .. وقد نرزق أولادا سواها .. فهذا « التسجيل » لهم ، ولنا ، هو عبارة عن مال كثير ، عن غنى هائل .. فهى الراحة المكفولة مدى العمر ، وهى الكف عن عيش الكفاف ...

ثم أشار ، بضحكة صغيرة ، الى الشىء الوحيد الذى يعز عليه التخلى عنه :

ــ ويمكن أن يكون لنا أيضا معمل جميل !

فحدقت مارى بعينيها .. ووزنت فـــكرة الربح ، والمكافأة المادية .. ثم لم تلبث أن نبذتها ، قائلة :

ــ ان علماء الطبيعة ينشرون دائما أبحاثهم بحذافيرها ، فاذا كان لاكتشافنا مستقبل تجارى ، فهـــذا من محض المصادفة التى لايجوز لنا الانتفـاع بهـــا . والراديوم سيستخدم فى مصلحة المرضى .. فيبدو لى محـالا أن نكسب من وراء هذا ..

ولم تبذل جهدا فى اقناع زوجها .. فهى تحزر انه لم يذكر تسجيل الاختراع الا خلاصا من الشك ، والكلمات التى نطقت بها عن يقين تعبر عن عواطفهمـــا معا ، عن ايمانهما بواجب العالم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ..

وكرر بيير ، فى وسط السكون ، كالصدى ، عبارةمارى:

ـ لا .. انه يكون مخالفا للروح العلمى .

وتنفس الصعداء ،وأضافوكأنهقد سوى مسألةثانوية:

ـ سأكتب اذن هذا المساء الى المهندسين الامريكان بكل التفاصيل التى يطلبونها .

وكتبت مارى ، بعد عشرين سنة :

« لقد قرر بيير كورى بالاتفاق معى ، الا نحصل على اى نفع مادى من اكتشافنا : فلم نسجله . وقد نشرنا ، دون تحفظ ما ، نتائج بحوثنا ، وكذلك طرق تحضـــير الراديوم . وفوق ذلك أعطينا كل من يهمهم الامر المعلومات التى طلبوها . وكان ذلك عملا خيرا أفاد صناعة الراديوم، التى أمكن تحسينها : مطلقة من كل قيد ، فى فرنسا بادئا، ثم فى الخارج ، ومقدمة للعلماء والاطباء ماهم بحاجة اليه من موادها . وهذه الصناعة مازالت تستخدم الى اليـوم نفس الطريقة التى رسماها تقريبا بلا تغيير .. »

وبعد ربع ساعة من ذلك الحديث القصير ، فى صباح يوم أحد ، اجتاز بيير ومارى ، على دراجتيهما العزيزتين، باب « جانتيى » Gentilly مسرعين .. واتجها نحو غابات كلامار Clamart

لقد اختارا ، والى الابد ، بين الفقر والثراء .. وفى المساء ، عادا متعبين ، وأذرعهما محمـــلة بزهور البرية وطاقات المروج ..

العدو

كانت سويسرا أول دولة عرضت على كورى وزوجه مركزا جديرا بمكانتهما ، فى جامعة جنيف .. وكانت انجلترا أول دولة قدمت اليهما الآلاء والتكريم ، اذ جاءتهما فى يونية ١٩٠٣ ، دعوة رسمية من المجمع الملكى الشهير ليلقى بيير كورى أمامه محاضرة فى الراديوم ، فقبل العالم وسافر وزوجته الى لندن . فاستقبلهما وجه صديق كريم هو اللورد كلفن . وكان فخورا بهما وببحوثهما ، فأخذهما الى معمله ، وعرف بهما مساعديه ، بغبطة مؤثرة واظهرهم على الهدية العظيمة التى جاءتهم من باريس : ذرات ثمينة من الراديوم ، موضوعة فى أنبوبة من زجاج !.

وفى مساء المحاضرة جلس اللورد كلفن الى جنب مارى : اول امراة سمح لها أبدا بالدخول الى حرم جلسات المجمع الملكى . وفى القاعة ، التى اختنقت بزحام انجلترا العالمة ، كنت ترى السر ويليام كروكن ، ولورد رالى ، ولورداڤبرى وسير فردريك براموبل ، وسير أوليفر لودج ، والبروفسور ديوار ، وراى لانكستر ، وأيرتون ، و س . ب .تومسون وأرمسترنغ .. فتحدث بيير بالفرنسية ، فى أناة ، وبسط خواص الراديوم . ثم طلب اطفاء الانوار ، وبدأ بعض تجارب مدهشة . تحمس لها الحضور ، وكان لها أثرها من الفداة فأرادت لندن كلها أن ترى عن كثب أبوى الراديوم . فانهالت

دعوات العشاء والمآدب على « البروفسور بيير ومدام كورى » ، فحضرا هذه الاستقبالات الباهرة ، واستمعا الى الثناء عليهما وشرب نخبهما .. وكان بيير ، أثناء ذلك ، كأنه « فى واد آخر » .. رغم أدبه الجم .. لا يكاد يدرك أن كل تلك التهانى موجهة اليه!.. وكانت مارى فى حرج وضيق من ألوف النظرات المصوبة اليها ، الى : ذلك « الحيوان النادر » ، والظاهرة العجيبة الشاذة فى شخص امرأة عالمة بالطبيعة !..

وكانت فى ثوب قاتم ، لا يكاد يبدى من جسمها شيئا ، وكانت يداها ، اللتان أفسدتهما الاحماض والاشعاعات ، تبدوان للعيان . وكل ماحولها صدور عارية ، وظهور مجردة ، ونحور تتلألأ بأجمل مافى الامبراطورية من قلائد وعقود .. طفقت مارى تتأمل بلذة خالصة هذه الحلى ، ولاحظت بدهشة أيضا أن زوجها ، وهو عادة شارد الذهن ، قد سمرت عيناه فى هذه القلائد المضيئة والعقود الساطعة بهاء .. فقالت له ، وهما يأويان الى فراشهما بعد السهرة:

ـ ما أروع مارأينا .. اننى ماتخيلت قط وجود مثل هذه الجواهر !..

فراح العالم يضحك ويقول :

ـ تصورى اننى ، أثناء العشاء ، لم ادر بماذا أشغل نفسى ، فوجدت لعبة ، هى : أن أحصى عدد المعامل التى كان يمكن تشييدها بهذه الاحجار الكريمة التى تحملها النساء حول أعناقهن !!.. ولما دعيت الى الخطابة ، كنت قد وصلت الى عدد من المبانى كعدد الافلاك والنجوم !..

وعادا بعد بضعة أيام الى باريس ، الى السقيفة ! بعد ما وثقا صداقات قوية مع أساتذة فطاحل ، حتى ظهر وفاء الانجلوسكسون لمن يعجبون بهم فى شكل خطاب ، وصل فى نوفمبر ١٩٠٣ ، يعلن اليهما أن الجمعية الملكية بلندن ،

هي أيضا ، عبرت عن تقديرها بجائزة من أعلى الدرجات: مدالية دايفى . وكانت مارى مريضة ، فسافر زوجها وحده لحضور الحفلة ، وعاد حاملا من انجلترا مدالية ثقيلة من الذهب ، حفر عليها اسماهما . فلم يجدا مكانا لها عندهما اصلح من ان يعهدا بها الى بنتهما ايرين ، التى أصبح ذلك اليوم عندها فى مدى عمرها البالغ ست سنوات ، أحفل الايام ! وكان العالم يقول لاصدقائه الذين يزورونه ، مشيرا الى البنت الصغيرة ، وهى تلهو بلعبتها :

ـ ان ايرين تعبد قرشها الكبير الجديد !..

ان روعة هاتين الرحلتين القصيرتين ، والبنت اللاعبة باسطوانة ذهبية .. هما بداية « السمفونى » التى جعلت تدنو الآن وتقترب نغماتها القوية الشجية .

وسنسمع لحنا جديدا رائعا هذه المرة من جانب السويد ففى الاجتماع العام المشهود يوم ١٠ ديسمبر ١٩٠٣ ، اعلنت اكاديمية العلوم بستوكهلم رسميا : ان جائزة نوبل للطبيعة عن السنة الجارية قد منحت مناصفة بين هنرى بكرل ، ومسيو ومدام بيير كورى ، لاكتشافهما العظيم ..

ولم يحضر الحفلة الرجل ولا زوجه . فتلقى وزير فرنسا من يد ملك السويد ، نيابة عنهما ، الدبلوم والمدالية الذهبية ، وذلك لمرضهما وشدة انهماكهما فى العمل ، بحيث تراجعا أمام رحلة طويلة كهذه ، فى قلب الشتاء ، تتطلب ٤٨ ساعة بلا توقف .. ونرى مارى تعلن الى أخيها جوزيف النبأ السعيد فى بساطة وتقول : « انها لا تدرى متى يقبضان النقود » ! ... وصدور هذه الكلمات من امرأة رفضت بمحض اختيارها الثروة ، يدل على معنى فريد « فالشهرة الصاعقة ، وتمجيد الصحف والجماهير ، والدعوات الرسمية ، والجسر الذهبى الذى مدته أمريكا لهما ، لم

يكن هذا كله عندها شيئا مذكورا ، بل كان محلا للشكوى المرة !.. اما جائزة نوبل فليست عندها الا مكافأة سبعين الف فرنك ذهبا جزاء عملهما ، فهى محتمة القبـــول ، لا تتعارض مع « الروح العلمى » .. ثم هى فرصة نادرة لتخليص بيير من حصص التدريس وانقاذ صحته !

وفى ٢ يناير سنة ١٩٠٤ ، وصل الشيك المبارك الى فرع البنك فى شارع جوبلان ، حيث يودع الزوجان ضئيل ادخارهما . فاستطاع بيير أخيرا أن يترك التعليم فى مدرسة الطبيعة والكيمياء . واتخذا لهما مساعدا على نفقتهما بدلا من انتظار أشباح الجامعة الموعودين !.. وأرسلت مارى، على سبيل السلف ، الى أختها برونيا وزوجها الدكتــور كازيميردلوسكى ، عشرين ألف كورون نمساوى لتيســير بداية مصحتهما . أما بقية الثروة الصغيرة ، التى لاتلبث أن تتضخم بجائزة أوزيريس التى منحاها خمسين ألف فرنك ، فقد قسمت بين قراطيس فرنسية ، وســندات بلدية فارسوفيا .

ونجد فى دفتر حسابات مارى بعض نفقات أخرى ، كهدايا نقدية ، وقروض الى شقيق بيير ، وأخوات مارى، واعانات لجمعيات علمية ، وهبات لبعض الطلبة البولونيين ولاحدى رفيقات الصبا ، أو خدم المعمل ، أو طالبــات فى مدرسة معلمات سيفر .. بل ان مارى لتذكر معلمتها الفرنسية الاولى ، الفقيرة جدا ، التى كانت تذوب شوقا لرؤية بلادها ، فترسل اليها تذكرة من فارســوفيا الى باريس، ومن باريس الى دييب مسقط رأسها ،وتستقبلها فى بيتها ، فتغرورق عينا السيدة الفاضلة من شدة التأثر لهذا الفرح غير المنتظر !! وكانت حسنات مارى فى صمت وسر . لم تندفع فى بذخ ، ولم تطع النزوات . وقررت ان تساعد مدى حياتها أولئك الذين هم فى حاجة اليها ..

وأخيرا تفكر فى نفسها !.. فتدخل غرفة حمام « عصرية » بمنزل شارع كلرمان ، وتجدد ورق غرفة صغيرة .. ولكن لم يخطر لها ، بمناسبة جائزة نوبل ، أن تشترى لنفسها قبعة جديدة !.. واذا كانت قد ألحت على بيير ، ليغادر مدرسة الطبيعة ، فانها احتفظت لنفسها بمهنة التدريس فى سيفر .. فهى تحب تلميذاتها ، وتحس من القوة مايمكنها من الاستمرار فى التعليم الذى يكفل لها مرتبا !.

ونشأ سوء تفاهم دائم فرق بينهما وبين الجمهور الذى اولاهما عطفه .. فقد بلغ كورى وزوجه فى تلك السنة (١٩٠٣) ذروة العبقرية التى تؤيدها التجربة ، ويمكن أن تؤتى أطيب الثمرات .. وقد سارا تحت سقيفة من خشب يبللها المطر ، مدى سنوات ، فاكتشفا الراديوم الذى بهر الدنيا . ولكن الرسالة لم تتم ، فدماغاهما يحويان كنوزا اخرى مجهولة .. وهما يريدان أن يعملا .. ويجب أن يعملا !

والمجد لا يكترث كثيرا بالمستقبل ، الذى يتعلق به بيير ومارى . فالمجد يلقى بنفسه على العظماء ، ويلتصق بهم ، بكل أثقاله ، يحاول أن يعرقل سيرهم . فاذاعة جائزة نوبل قد حولت الى الزوجين أنظار الملايين من الناس ، رجالا ونساء ، فلاسفة وعمالا ، أساتذة ووجهاء ، رجال شارع وطلابا .. وهذه الملايين من المخلوقات تريد أن تعبر للزوجين عن ميلها واعجابها !.. فحدث ، ولا حرج ، عن جماهير المتطفلين والصحفيين من كل البلدان الذين حاصروا بيت كورى وسقيفة شارع لومون !.. وحدث عن تلال البرقيات التى وصلت من أربعة ارجاء المعمورة .. وألوف المقالات فى الصحف ، وارغام العالمين على الوقوف أمام المصورين ! فأصبحا ضحية مجدهما ، وحرما ، فى عزة الفنى ، الكنز الوحيد الذى يتمنيانه ، وهو : الهدوء !..

وقد اصبحت كل دقائق حياتهما ، البسيطة المتواضعة الخفرة ، نهبا مباحا للناس جميعا ، على صفحات الجرائد وفى الصور الفوتغرافية ، وفى أغانى المسارح !..

وحاول كورى وزوجه جهدهما أن يرفضا كل حديث فى الصحف ، وأن يوصدا بابهما ، وأن يغلقا على نفسيهما معملهما الحقير ، الذى دخل فى ذمة التاريخ !.. لكن شيئا من ذلك لم يتم . ان عملهما وحياتهما الخاصة لم يعودا ملكا لهما .. حتى دماثة خلقهما ، وتواضعهما الذى أدهش الصحفيين ، قد صار أمرا مشهورا ، وموضع اشارة وتمجيد !..

يالهذا المجد من مرآة عجيبة !.. فهى أحيانا مخلصة ، وأحيانا تشوه من ينظر اليها كالمرايا المقوسة التى نراها فى لونابارك !.. لقد صارت حياة مارى وزوجها مادة لآخر مشاهد « الكبريهات » وصالات الغناء ! .. ولما ذاع أنهما قد أضاعا عرضا جزءا من عنصر الراديوم ، مثلوهما فورا على مسرح مونمارتر ، محبوسين فى سقيفتهما لا يسمحان لاحد بالدخول ، يقومان بخدمة نفسيهما ، ويفتشان بطريقة مضحكة كل ركن من المسرح ، ليجدا المادة الثمينة المفقودة !..

والحق أن ضياع كمية من الراديوم ، مهما كانت من الضآلة ، له تأثيره فيهما ، ويتطلب منهما جهادا جديدا كالاشغال الشاقة . فان اقل كمية منه توضع فى انبوبة زجاجية بحجم الاصبع ، تتطلب مواد أولية من عدة أطنان!

هذه هى مشاغل مارى وبيير ، بعد ثلاثة عشر يوما من حصولهما على جائزة نوبل .. ففى خلال هذه الايام الثلاثة عشر ، قام الكون باكتشاف آخر : اكتشاف كورى وزوجته ولكن بيير ومارى لم يلبسا القباء الكاريكاتورى الذى ارادتهما الدنيا على لبسه !..

من بيير كورى الى جورج جوى – ٢٢ يناير ١٩٠٤ :

صديقى العزيز :

«أردت أن أكتب اليك من زمن طويل ، فاعذرنى اذا كنت لم أفعل ، فهذا راجع الى الحياة الغبية التى أحياها فى هذه الآونة .

فأنت قد رأيت هذه « اللحسة » بالراديوم !.. وهذا ماكلفنا ثمن لحظة من الشهرة : فالصحفيون والمصورون من جميع بلاد العالم يضطهدوننا ، ويحاصروننا ، ويجرون فى اعقابنا . وبلغ بهم الامر أن ينقلوا حديث طفلتى مع خادمتها ، وأن يصفوا القطة البيضاء السوداء التى عندنا ! ثم تلقينا رسائل وزيارات من كل الشواذ من الناس ، ومن كل المخترعين المجهولين .. أما طلبات النقود فلا حصر لها ثم تأمل مواكب جامعى الامضاءات ، والمفتونين ، والمحدثين والوجهاء .. بل العلماء أيضا ، الذين وفدوا لرؤيتنا فى سقيفتنا الفخمة التى تعرفها بشارع لومون !.. وعلى هذا كله ، لم تعد لدينا لحظة هدوء فى المعمل ، هذا المعمل الذى تحول أيضا الى مكتب لتصدير البريد مساء !.. وهى حالة أغرقتنى فى طوفان من الغباء ..»

وهذان الشخصان اللذان تحملا الفقر دون تذمر أو شكوى ، وصمدا للعمل المنهك القوى ، وثبتا لظلم الناس ، قد بدت منهما لاول مرة فى حياتهما هزة الثورة الغريبة .. فكلما زادت واتسعت شهرتهما زادا ضيقا بها وتململا منها

من بيير كورى الى جورج جوى ، ٢٠ مارس ١٩٠٤ :

« ... لقد رأيت كيف يحبوننا المال فى هذه اللحظة . ولكن آلاء الثراء مصحوبة بويلات العناء . فاننا لم نكن قط أقل راحة وسلاما مما نحن الآن . اذ تمر بنا أيام لا نجد فيها للتنفس وقتا .. نحن .. نحن الذين حلمنا

بالعيش كالمتوحشين بعيدا عن بنى آدم !! »

من بيير كورى الى شارل ادوار جيوم ، ١٥ يناير ١٩٠٤:

« ... انهم يطلبون منا مقالات ومحاضرات ، وعندما تمر السنون ، سنرى هؤلاء الناس أنفسهم : الذين يسالوننا ذلك ويعطلوننا ، يدهشون ويتساءلون : لماذا لم نعمل بعد اكتشافنا شيئا ما !.. وانى لاحن الى أوقات أشد هدوءا، فى بلاد آمنة ساكنة ، تمنع فيها المحاضرات ، ويضطهد فيها الصحفيون !.. »

من مارى الى جوزيف سكلودوفسكى،١٤ فبراير١٩٠٤:

لا نزال فى العجيج والضجيج . والناس يحولون دوننا ودون العمل بقدر مايستطيعون . أما الآن فقد اعتزمت ان أكون شجاعة ، ولا أقبل أية زيارة .. ولكنهم رغم ذلك يزعجوننا . لقد أفسدت علينا الشهرة والامجاد حياتنا!!.

من مارى الى جوزيف سكلودفسكى ، مارس ١٩٠٤ :

أبعث اليك ، ياعزيزى جوزيف ، بأرق التهانى فى عيدك وارجو لك صحة جيدة ، ونجاحا للاسرة كلها . كما أتمنى ألا ترهق بمثل المراسلات التى تفرقنا فى هذه الساعة ، ولا بالفارات التى نحن ضحاياها ...

انى آسفة نوعا ما اذ رميت الرسائل التى تلقيناها .. فقد كان فيها أغان وأناشيد وأشعار فى الراديوم ، وخطابات من المخترعين المختلفين ، ومن أرواح وأطياف ، كما كان فيها رسائل فلسفية !..

وقد كتب الى بالامس أمريكى يسألنى الاذن لهباستعارة اسمى لتعميد حصان له فى حلبة سباق الخيل !.. دع عنك ، طبعا ، ماهناك من مئات الطلبات لتوقيعاتنا ، وصورنا الفوتوغرافية .. ولست ارد على اية رسالة من

هذه الرسائل اطلاقا ، ولكنى أضيع الوقت فى قراءتها

ان عيشتنا الهادئة العاملة قد تزعزعت وانقلبت ،بحيث لا أدرى هل تعود يوما فتسترد توازنها .

ولم تكن فرنسا الا آخر بلد تحرك لتكريم ال كورى بما ينبغى ، بعد مدالية دايفى الانجليزية ، وجائزة نوبل السويدية ، فسمحت جامعة باريس ، آخر الامر ، لبيير كورى بكرسى الطبيعة فى السوربون !..

ولم تكن حرب المجد عند مدام كورى مبدأ ، ولكنها كانت فطرة فيها .. فهى تهرب من الجماهير ، ومن الاعجاب ، ومن الثناء ، فى اضطراب وحياء .. انها لاتحب تبديد قواها العقلية ، والروحية ، والجسدية ، فى استقبال المجد ، والحفاوة به ، والاقبال عليه .. فكانت اذا ما احاط بها الناس سائلين فى عرض الطريق أو مكان عام : « الست مدام كورى ؟ » ، بعد مانشرت الصحف عشرات الصور لها على رغمها ، تجيب : كلا ... أنتم مخطئون !.. ومن النكات التى تروى عنها ، أنها كانت مدعوة ذات مساء مع زوجها ، فى سهرة بقصر الاليزيه ، عند رئيس الجمهورية لوبيه ، فتقدمت سيدة منهاوسألتها:

ــ أتريدين أن أقدمك لملك اليونان ؟..

فأجابت مارى ببساطة وأدب :

ــ لست أرى فى هذا نفعا !..

ولم تلبث ــ لدهشتها ودهشة السيدة التى خاطبتها ــ ان رأت أنها بازاء مدام لوبيه نفسها ، فاعتذرت ،وأسرفت فى الاعتذار ، وسلمت أمرها لها !..

ووجد آل كورى الآن أسبابا جديدة للعيش « كالمتوحشين » . فهما يهربان من المتطلعين والمتطفلين .. فقصدا ، على الدراجتين ، القرى المنعزلة يقضيان الليل

فى فندق ريفى ، ويتخذان فى سجل الفندق اسمين زائفين .. فضلا عنهما الناس .. بيد أن صحفيا امريكيا لبقا تبع آثارهما ، حتى وصل أمام بيت صيادين كانا قد نزلا فيه .. فجريدته قد أرسلته ليحادث مدام كورى العالمة الشهيرة !!.. اين يمكن ان تكون ؟.. فيسال بعض الناس .. يسأل تلك المراة « الصيادة » الجالسة امام كوخها ، حافية القدمين ، على عتبة الباب الحجرية ، تنفض الرمل عن حذائها المطاط .. !!

فرفعت المراة راسها ، وحدقت بعينيها الرماديتين فى الرجل الدخيل .. فاذا هى ، عنده ، فجأة ، تشبه مئات الصور والوفها التى نشرتها الصحف لها !.. انها هى !. فظل الصحفى لحظة مصعوقا ، ثم جلس على الارض الى جنب مارى ، وأخرج نوتته !.. فلما رات استحالة الهرب استسلمت ، وردت بجمل صفيرة على أسئلته : نعم ، بيير كورى وهى قد اكتشفا الراديوم .. نعم ، انهما ماضيان فى تجاربهما ..

وفى تلك الاثناء ، كانت تضرب حذاءها الكاوتشوك على الحجر ، لتخرج آخر مافيه من حبات الرمل ، ثم تضعه فى قدميها العاريتين الجميلتين ، اللتين خدشتهما الصخور وجذوع الاشجار .. فيالها من فرصة صحفية عظيمة !. ان هذا المشهد العائلى نعمة نادرة !.. فراح الصحفى يسأل مارى عن شبابها ، وعن طرق عملها ، وعن نفسية المراة التى تقف على البحث العلمى نفسها !..

فاذا بها قد حولت عنه وجهها المدهش .. والقت اليه جملة ، جملة واحدة ، ستكررها دائما كشعار لها ، تصور خلقها ، وكيانها ، ومواهبها ، واستعدادها .. جملة ابلغ من كتاب .. وقد وضعت بها مارى للحديث حدا :

« علينا فى العلم أن نهتم بالاشياء ، لا الاشخاص » .

على مدى الأيام

اسم كورى الآن « اسم عظيم » . وقد صار الزوجان اوفر غنى بالمال ، واقل غنى بلحظات السعادة ، ولاسيما مارى التى أضاعت حركات حماستها ، وفقدت نزعات فرحتها ، فهى لم تكن مأخوذة تماما بالافكار العلمية التى تستغرق زوجها . وقد تأثرت حساسيتها واعصابها بحوادث كل يوم ، وكان رد الفعل سيئا .

وكان زوجها يشكو أيضا من الروماتيزم ، يثور عليه احيانا ، ويدعه هادئا أحيانا . وهو يفسر الداء بأنه نوع من النورستانيا ، فهو لم يعد يعمل شيئا منذ عام ، والشهرة تضطهده وتطارده ، ولا تجعل لهملجأولامستقرا ، ولا تترك له وقتا لعمله ، ولا وقتا لراحته . ولم يجد الطريقة التى يدفع بها عن نفسه وفكره هؤلاء الذين ينهشون وقت العلماء والمفكرين كأنه حق مباح لهم . ولم تعد لهما لذة الاجازات السابقة ، المتعة ، المندفعة ، المجنونة ، التى كان الزوجان يقطعان فيها ، على دراجتين ، طرقات الخلاء كتلميذين .. فاستأجرت مارى قرب باريس ، فى وادى شفريز (١) ، بيتا خلويا صغيرا تعالج

---

(١) هو الوادى الزمردى المشهور الذى كانت تسكنه صديقة مصر « مدام جوليت آدام »

فيه زوجها الذى انهكه التعب ، وتمرح حوله بنتها ايرين على دراجة صغيرة، في ثوب ولد، فهي سلواهما الوحيدة..
ويحس بيير كأن خطرا يهدده .. أيخشى هذا الرجل الذى كان فى ريعان الشباب أن يموت وشيكا ؟ انه يسابق عدوا خفيا ، ويناضله . وينقل ، فى حنان ، الى امرأته قلقه . يريد أن يسرعا فى بحوثهما ، وأن ينتفعا بكل لحظة من زمنهما ، وأن يطيلا المكث فى معملهما ..
وليست مارى بأسعد منه حظا ، فهى منذ عشرين سنة تدأب وتكدح وتشقى : منذ كانت بولونية صغيرة فى السادسة عشرة ، تضرب فى الريف وفى الحضر ، طلبا للخبز . وقد عاشت شبابها فى وحدة موحشة ، منحنية على كتبها وكراساتها ، فى غرفة سطح مثلجة . وعند ما جاء الحب متثاقلا ، كانت مرتبطة بالعمل ارتباطا لا انفصام له ..
ثم جمعت بين حبها العلم ، وحبها رجلا ، فحكمت على نفسها بعيش لا رحمة فيه . فبينا نرى بيير قد تمتع فى شبابه الباكر بفترات كسل طويلة ، ومراهقة شائقة ، وعواطف حارة ، نرى مارى ، منذ صارت امرأة ، لم تتخل لحظة عن عبئها ، فلم تعرف راحة العيش ولا طمأنينة الوجود . فهى زوج ، وهى أم : مسرفة فى الحنان ، وهى تتمنى لو أتيحت لها أيام راحة واسترخاء .. وهذا ما يدهش بيير ، وما ينكره عليها . فهو قد بهر اذ عثر على رفيقة نابغة ، يجد منها تضحية كاملة شاملة لنفسها ، كما يضحى هو نفسه ، فى سبيل ما يسميه : « أفكارهما المسيطرة » .

تطيعه ، وهى دائمة الطاعة ، ولكنها ، فى روحها وبدنها، تحس الضنى . وتتساءل : ماذا ثبط عزمها ، وهل عقم فكرها ؟ والحقيقة بسيطة : فهذه المرأة التى كانت فى

السادسة والثلاثين ، ينادى الحيوان الأعجم فيها بحقه فى الحياة ، بعد ما طال اخماد انفاسه وكبح جماحه .
مارى فى حاجة الى بعض الزمن الذى لا تكون فيه « مدام كورى » : تنسى الراديوم ، تاكل وتنام ، لا تفكر فى شىء ..
وهذا حرام عليها . ان كل يوم يحمل اليها التزامات جديدة . وستكون سنة ١٩٠٤ مرهقة لها منهكة، وستكون فيها حاملا . فتطلب اجازة من مدرسة سيفر ، وتعود مساء من المعمل ، متعبة ، مثقلة ، معتمدة على ذراع بيير ، تشترى أحيانا ، احياء لذكريات فارسوفيا ، القليل من « الكافيار » الغالى الذى يسيل لعابها من أجله ..
ويوم يحين الوضع ، تبلغ روحها التراقى ، فضلا عن عذابها لسوء صحة زوجها ، وكأنها لم تعد تحب شيئا : لا الحياة ، ولا العلم ، ولا الولد الذى سيولد . وجاءت برونيا من بولونيا لحضور الولادة ، فتنزعج اذ تكتشف مارى هذه .. الجديدة ، المنكسرة ، المغلوبة على امرها ، التى لا عهد لها بها .. تسمعها لا تنفك عن أن تردد :
ـ لماذا أضع مخلوقا آخر فى الدنيا ؟ .. ان الحياة شاقة ، أشد ما تكون جدبا وجحودا .. ليس لنا أن نفرض ويلاتها على الابرياء ..
والوضع متعسر ، لا ينتهى . واخيرا ، فى ديسمبر ١٩٠٤ تولد طفلة بضة متوجة بشعر أسود أيضا ، وتدعى : ايف [1] ..
وتدخل ابتسامات الطفلة الجديدة ولعبها البهجة على قلب أمها . فتسترد مزاج الحياة . وتقترب من اجهزة المعمل بلذة كانت قد نسيتها . ولا تلبث أن تعود الى

---

(1) Eve هى صاحبة هذه القصة الخالدة ، عن أمها الخالدة ، التى تجاهد الان فى أمريكا ، فى سبيل حرية فرنسا ! وقد زارت مصر فى ١٩٤٢ ، ولهما مكانة عالمية رفيعة فى الصحافة والادب .

مدرسة المعلمات بسيفر ، ثم تثبت قدمها التى كانت قد هزتها الأيام ، فتستأنف الجهاد على شوك القتاد .

وتسافر مع بيير الى ستوكهلم لحضور مؤتمر نوبل ، وليردا الدين الأدبى الذى هما مدينان به . فيتحدث العالم الكبير ، باسمه واسمْ زوجه ، فى ٦ يونيه ١٩٠٥ ، أمام اكاديمية علوم ستوكهلم ، عن نتائج اكتشاف الراديوم ، وعن أثره فى الطبيعة والكيمياء والجيولوجيا والميتيرولوجيا والبيولوجيا (علوم طبقات الأرض والظواهر الجوية واسباب الحياة وأحوالها) ، وعما اضافه الراديوم الى كنوز المعرفة ، وعن فضله على الانسانية .

وضفر المجد اكاليله . فجاءت من فرنسا ـ اخيرا جدا ! ـ عضوية المجمع العلمى ...

من بيير كورى الى جورج جوى فى ٦ اكتوبر ١٩٠٥ :

(ذهبت يوم الاثنين الى المجمع ، ولكنى اتساءل : فيم كان ذهابى اليه ؟ .. فليست تربطنى بعضو منه صلة ، وليس لجلساته ادنى اهمية .. انى احس ان هذا الوسط ليس وسطى)

ثم ها هو ذا كرسى الأستاذية فى السوربون يسعى اليه. ولكنه يتساءل : واين المعمل ؟ .. فيقولون : كرسى بلا معمل ! .. فيدهش ، ويرفض أن يغادر مركزه المتواضع الذى يستطيع أن يجد فيه سقيفة يعمل فيها ! .. وتقوم الدنيا وتقعد ، ويعرض الأمر على البرلمان ، فيقرر بناء حجرتين له ، ويفتح اعتمادا لتجهيزهما .. ولكن البناء يلتهم ثمن الآلات .. ويظل كورى حائرا ! ..

لابد من ثمانى سنوات أخرى تمضى قبلما تستطيع مارى أن تجد مسكنا لنشاطها الاشعاعى .. فى بناء مستقل ..

بناء لن يراه بيير بعينيه .. لأنه يكون قد ذهب .. فتظل بعده ممزقة القلب حسرة على خدينها ، خدينها الذى عاش ومات ولم يتحقق له وجود هذا المعمل : الأمنية الوحيدة لحياته ..

وكان كل ما سر بيير فى هذا كله : أن عينت زوجته مساعدة له ، فأصبحت لها الى جانبه صفة رسمية :

جامعة فرنسا

« تعين مدام كورى ، الدكتور فى العلوم ، ابتداء من اول نوفمبر ١٩٠٤ ، رئيسة اشغال الطبيعة (كرسى مسيو كورى) فى كلية العلوم بجامعة باريس .

ويكون مرتب مدام كورى بهذه الصفة : الفين وأربعمائة فرنك سنويا » .

الوداع اذن أيتها السقيفة العزيزة ! .. ايتها المشرحة القديمة المهجورة ! .. يا مهد أعظم اكتشاف فى تاريخ العلم ، فى هذا العصر !.

وقضوا ، آباء وابناء ، أياما سعيدة فى وادى شفريز .. وسبقهم بيير الى بيت شارع كلرمان .. ثم لا تلبث أن تتبعه مارى ، ومعها ايرين وايف ، الى باريس ، فتتركهما فى البيت لجدهما ، وتلحق بيير فى المعمل .. وحين تدخل تراه واقفا كالعادة أمام النافذة يمتحن جهازا .. كان ينتظرها ، فيضع معطفه وقبعته ، ويأخذ ذراع زوجه ليذهبا الى مطعم فويو Foyot ، حيث يقام العشاء التقليدى لجمعية علوم الطبيعيات . ويتحدث الى جاره فى المائدة ، هنرى بوانكاريه ، عن النظريات التى تشغله فى تلك الآونة : قياس انبثاق الراديوم ، وعن علم إستحضار الارواح ، وما فيه من حقائق واكاذيب ، وعن تربية النبات ورايه فيها ، راجيا توجيهها نحو علم الطبيعة .

« ١٩ ابريل ١٩٠٦ »

بدأ ذلك الخميس عبوسا قمطريرا : فالمطر لا يزال ينهمر ، والجو مظلم كئيب ، فلم يستطع الزوجان برغم استغراقهما فى عملهما أن ينسيا شؤبوب أبريل . ولابد لبيير من حضور غداء جمعية أساتذة كلية العلــوم ، ثم الذهاب لتصحيح التجارب عند ناشره « جوتييه ـ فيبار » والمرور بعد ذلك بالمجمع العلمى . ووراء مارى أشواط تقضيها . وبعد جهد ، فى مشاغل الصباح ، رأيا بعضهما . فبينا كانت تلبس ايرين وايف ثيابهما فى الدور الأول ناداها من الدور الارضى ، يسألها هل هى ذاهبة الى المعمل ؟ فردت بأنها لن تجد متسعا من الوقت ، فأسرع بالخــروج .. وبينا كانت مارى تتغذى مع بنتيها ، كان بيير فى دار جمعيات العلماء Sociétés Savantes بشارع دانتون ، يتحــدث مع زملائه ، فى مودة ولذة ، عن الســوربون ، والبحوث ، والمهنة ..

وفى نحو الثانية والنصف بعــد الظهر نهض باسما ، واستأذن رفاقه ، وصافح العالم الكبير بيير بران ، صديقه الحميم ، وجاره فى السكن ، على وعد باللقاء مساء . وعلى عتبة الدار ، وقف وحدق فى السماء الملبدة بالغيوم ، ثم فتح مظلته الكبيرة ، ومضى تحت المطر الهاطل نحو نهــر السين . فوجد أبواب المطبعة مغلقــة ، بسبب اضراب

العمال . فاتجه الى شـــارع دوفين Dauphine الذى تدوى فى أرجائه أصوات الحوذية ، وصرير الترام المار على الرصفة Quai المجاورة . فما أشد الزحام المتراكم على هذا الطريق الشبيه بالزقاق فى باريس القديمة ! ..
فلا يكاد الرصيف الضيق يتسع للمارة العديدين فى هــذه الساعة من بعد الظهر . حاول أن يشق طريقه ، تارة على الرصيف ، وتارة فى الشارع نفسه بخطى غير متوازنة ، خطى الذين يستسلمون لأحــلامهم ويتتبعون تأملاتهم ..
ففيم يفكر ، وهو شارد البصر ، عابس الوجه ؟ أفى تجربة علمية تشغله ؟ أفى رسالة صديق له يقدمها الى الأكاديمية وصورتها فى جيبه ؟ .. أم كان يفكر فى مارى ؟ ..

كان يسير منذ لحظات ، على الأسفلت ، وراء عربة مقفلة تسير ببطء نحو الجسر الجديد Pont-Neuf . وعند ملتقى الشارع برصفة النهر كان الضجيج يصم الآذان . ومر قطار متجه الى الكونكورد على طول السين ، فقطعت عربة نقل ضخمة ثقيلة ، يجرها جوادان ، طريقها ، ودخلت شارع دوفين .. وأراد بيير ، باندفاع الشاردين ، أن يعبر الرصيف ليصل الى الجانب الآخر . ففادر فجأة العربة التى كانت تحمى خطاه ، وتياسر .. ولكنه فوجىءبحيوان يخرج من فمه الدخان : أحد حصانى المركبة التى عارضت العربة فى ذات اللحظة ، فضاق الفاصل بين المركبتين أشد الضيق . فزع بيير ، وفى حركة طائشة ، حاول أن يلتصق بصدر الحصان ، الذى شب فجأة وجفل .. فزلق حذاء العالم على الأرض المبتلة .. فصاح الناس جميعا من حوله رعبا .. فقد سقط بيير تحت حوافر الخيل الضخمة .. وهلع المارة وصاحوا : « قف ! قف ! » فشد الحوذى اللجام .. ولكن عبثا ، فقد مضت الخيول قدما لا تلوى على شىء ..

كان بيير ملقى على الأرض حيا ، لم يصب بسوء . لم يصرخ ، لم يكد يتحرك . ونجا جسمه من بين حوافر الخيل ولم يكد يمس .. ونجا من بين عجلتى العربة الأماميتين أيضا .. كانت المعجزة محتملة الوقوع . ولكن ذلك الدولاب الهائل المحمل بستة أطنان من البضاعة ، اندفع بضعة امتار اخرى .. فاصطدمت العجلة اليسرى بعقبة ضعيفة حطمتها فى مرورها .. جبين انسان .. راس بشرى .. انفجرت الجمجمة .. وانبثقت مادة لزجة حمراء ، تناثرت فى كل جانب ، فى الوحل .. تلك كانت دماغ بيير كورى ، وذلك كان مخه ! ..

حمل رجال البوليس الجسد الدافىء الذى غادرته الحياة فى غمضة عين . واستوقفوا على التوالى عربات عديدة ، ولكن ما من حوذى تقبل فى عربته جثة مغطاة بالوحل يسيل منها الدم ... مرت الدقائق ، وتجمع الطفيليون ، وتزاحموا . وحاصر جمهور ، يزداد دائما ، عربة النقل الواقفة ، وتعالت صيحات الغضب فى وجه سائقها « لويس مانان » الذى ارتكب الفاجعة دون قصد. واخيرا جاء رجلان بلوح من خشب . وضعا عليه الميت . وبعد وقفة لا داعى لها فى صيدلية حملوه الى مركز البوليس المجاور ، حيث فتحوا محفظته ، وفحصوا أوراقه . وعند ما ذاع الخبر بأن الشهيد هو « بيير كورى » ، البروفسور العالم الشهير ، تضاعفت الضجة ، واضطر الشرطة الى التدخل لحماية « مانان » من سخط الجمهور ، ومن القبضات الممتدة اليه .

ومسح الدكتور دوريه الوجه باسفنجة مبللة ، وكشف عن الجرح الفاغر فى الرأس ، وعد الست عشرة عظمة التى تكسرت ، والتى كانت ، منذ عشرين دقيقة ، جمجمة .. واخبروا ، بالتليفون ، كلية العلوم . لم يلبث أن وفد

مساعد الأستاذ ، مسيو « كلرك » ، يبكي وينتحب ، في مركز البوليس المقيم بشارع دي جراندز أوجستان ، في حين كان العربجي « مانان » يزفر أيضا .. وقد انتفخ وجهه الأحمر ، وخضلته العبرات ..

وبينهما ، كان بيير ، ممددا على الأرض ، وقد عصب رأسه ، وظل وجهه سليما ، مكشوفا . لا يكترث بشيء ..

وكانت عربة النقل ، وطولها خمسة أمتار ، طافحة لحافتها بالملابس العسكرية ، واقفة بالباب . ومحا المطر شيئا فشيئا بقع الدم التي كانت تلطخ احدى العجلات . وكان الحصانان الضخمان الفتيان ، قد انتابهما قلق خفي لغياب صاحبهما ، فطفقا يصهلان ، خوفا وضيق صدر ، ويضربان حجارة الارض بحوافرهما الحديدية ، فترسل شررا ...

أرخى الشقاء سدوله الكئيبة على بيت كوري ، وجلله بالسواد . وتوالت السيارات والمركبات على شارع كلرمان المقفر ، تبحث عنه .. ودق الباب مندوب رئيس الجمهورية ، فلما علم أن « مدام كوري لم تعد الى البيت بعد » ، ذهب دون أن يبلغ رسالته . ثم دق الجرس مرة أخرى ، ودخل الفيلا بول آبل عميد الكلية ، والبروفسور جان بران .. دهش الدكتور كوري الشيخ من هذه الزيارات الهامة ، فتقدم للقاء الرجلين ، ولاحظ وجهيهما الكالحين . وكانت مهمة بول آبل تقضي بأن يحيط ماري أولا بالأمر ، فظل صامتا قلقا في حضرة حميها . ولكن الشك الفاجع لم يدم طويلا ، لأن الشيخ العجوز نظر مرة اخرى الى هذين الوجهين لحظة ، ثم قال ، دون ان يوجه السؤال :

ــ ان ولدي قد مات !

سمع تفاصيل الحادث ، فجرت الدموع في اخاديد

وجهه المتجعد ، وفاضت دموع الثورة ، ودموع الحزن .. وفى حنان ويأس عنيفين اتهم الدكتور كورى ولده بعدم الانتباه ، الذى كلفه حياته ، وردد هذا الكلام من قلب كسير : « فيم كان يحلم أيضا ؟! »

الساعة السادسة . صوت مفتاح فى قفل . مارى مرحة، فرحة ، تزهو حياة ، على عتبة الصالون . فتلحظ ، فى اتجاه أصحابها نحوها ، علامات العطف المروعة .. يعيد عليها بول آبل ماجرى . تظل مارى من الفجيعة ، بلا حراك ، كأنها لم تدرك شيئا . فهى لا تنهار فى الأذرع الحنون ، ولا تزفر ، ولا تئن ، ولا تبكى ، كأنما صارت تمثالا . وبعد صمت طويل ، حائر ، تحركت أخيرا شفتاها ، وسألت بصوت خافت ، راجية بجنون ضربا من التكذيب :

ـ بيير .. مات ؟ .. مات ؟ ..مات كل الموت ؟!

ان هذه اللحظة ، لهى لحظة حاسمة فى تأثيرها على خلق مارى ، ومصيرها ، ومصير أولادها .. فهى لم تتحول من زوجة شابة سعيدة الى ارملة لا سبيل الى عزائها فحسب .. كلا ! بل كان التحول ابسط من ذلك واخطر .. هذا الضجيج الداخلى الذى يمزق مارى ، هذا الرعب ، الذى لا اسم له ، والذى غلف أفكارها التائهة ، كان من الوبال ، بمنزلة السم الزعاف ، بحيث لايعبر عنه بالشكوى ، ولا تنفع فيه السلوى . فمنذ بلغت ضميرها هاتان الكلمتان « بيير مات » .. سقط على كتفيها ، ليبقى الى الأبد ، دثار الوحدة والسر والكتمان ، كأنه مسوح الرهبان .. وفى الوقت الذى أصبحت فيه مدام كورى ، فى ١٩ ابريل ، ارملة ، صارت أيضا مخلوقة يرثى لها ، منعزلة ، لا يرجى لها شفاء .

فأحس شهود المأساة بهذا الحائط غير المنظور ، يقوم

بينهم وبينها ، وتلاشت عبارات الأسى والتشجيع ، قبل أن تصل الى مارى التى جمدت منها العينان ، وشحب الوجه ، وجف اللسان ، حتى لم تكد تسمع ، ولم تكد تجيب .. ورفضت بايجاز تشريح الجثة الذى كان سيتمم التحقيق ، وطلبت احضارها الى شارع كلرمان . ورجت صديقتها مدام بران أن تؤوى ايرين بضعة أيام . وارسلت الى فارسوفيا برقية قصيرة : «مات بيير فى حادث » . ثم خرجت الى الحديقة الرطبة ، وجلست ، ومرفقاها على ركبتيها ، ورأسها فى يديها ، ونظرتها الى الفضاء بيضاء .. امرأة صماء ، خرساء ، عمياء : تنتظر خدينها ..

وحملوا اليها المخلفات البائسة التى وجدوها فى جيوب زوجها : قلم حبر ، ومفاتيح ، ومحفظة ، وساعة لا تزال تدور ، وحتى زجاجها ما زال سليما . وأخيرا ، فى الساعة الثامنة مساء ، وقفت عربة اسعاف امام البيت . خفت مارى ، وصعدت اليها ، وتبينت ، فى القبش ، ذلك الوجه المتسامح ، الكريم ، الرائق ..

وأدخلت النقالة ببطء وعناء من الباب الضيق . وكان أندريه دبيرن ، الذى ذهب الى مركز البوليس ليتسلم جثة أستاذه وصديقه ، يعاون فى الحمل الجنائزى . وسجوا الميت فى غرفة بالدور الارضى ، وظلت مارى وحدها مع زوجها ..

فقبلت وجهه ، وجسمه الرطب ، الذى ما زال دافئا ، ويده التى كانت لا تزال تنثنى .. ثم أخذت عنوة وقسرا ، الى غرفة مجاورة ، حتى لا تحضر زينة الموت ... فأطاعت ، كأنها لا تعى ، ثم أخذت بفكرة أنها تركت هذه الدقائق تسرق منها ، وما كان لها أن تدع لانسان سواها العناية بهذا الجسد الدامى ، فعادت ، والتصقت بالجثة.

وفى اليوم التالى كان وصول جاك كورى ، شقيق بيير ،

من مونبلييه ، سببا فى فتح حنجرتها ، وتدفق سيل دموعها فهى اذا صارت وحدها مع الاخرين ، أحدهما حى، والاخر مات ، استسلمت لحزنها وأخذت تنتحب وتزفر .. ثم تشددت وتماسكت ، وذهبت تهيم فى البيت ، تسأل : هل حموا « ايف » ؟ وهل سرحوا شعرها كالعادة ؟ وتقصد الحديقة ، وتنادى ايرين من وراء السور ، وهى تلعب بالمكعبات مع اولاد بران ، وتخاطبها بقولها ان (به Pé) — تقصد اباها — قد ضرب رأسه ، فهو فى حاجة الى الراحة .. فلم تكترث الطفلة ، وعادت الى لعبها ..

ولما مضت بضعة أسابيع ، وعجزت مارى عن الكلام عن محنتها أمام الناس ، وتاهت فى بيداء الصمت ، ذلك التيه الذى يجعلها أحيانا تصرخ من الوحشة رعبا ، فتحت كراسة رمادية وأسرت الى الورق ، بخط مرتجف، أفكارها التى تخنقها . وفى هذه الصفحات الممحوة بالدمع ، المخضلة بالعبرات ، والتى لا سبيل الى نشرها ، الا بعض فقرات منها ، تخاطب مارى بيير ، وتناديه ، وتسائله .. تحاول ان تسجل كل تفاصيل المأساة التى فرقت بينهما ، لتظل تتعذب بها بقية عمرها . وهذه المذكرات المختصرة الخاصة ، أو هى اليوميات الوحيدة التى كتبتها مارى ، واحتفظت بها ، تصور أفجع الساعات فى حياة هذه المرأة.

« بيير ، حبيبى بيير ، أنت هناك ، هادىء ، كجريح مسكين ، يستريح فى منامه ، معصوب الراس .. وجهك حلو رائق ، لا تزال هو انت ، مقيدا فى حلم لا تستطيع منه فكاكا . شفتاك ، اللتان كنت أسميهما « النهمتين » صارتا داكنتين ، ممتقعتين .. ولحيتك الصغيرة الرمادية ! .. وشعرك لا يكاد يرى ، لأن الجرح قد بدأ هناك ، وفوق الجبين ، الى اليمين ، تبدو العظمة التى كسرت .. اواه ! لشد ماتألمت ، وما اكثر مادميت ، ان ملابسك غارقة فى

الدماء .. يا للصدمة المروعة التى اصابت رأسك المسكين الذى طالما عززته وربت عليه بيدى . لقد قبلت جفنيك . جفنيك اللذين كان من عادتك اغماضهما لاستطيع تقبيلهما، ملقيا الى براسك فى حنان ...

لقد وضعناك فى التابوت صباح السبت ، وأسندت رأسك فى تلك الأثناء .. ووضعنا القبلة الأخيرة على محياك المثلج ... ثم وضعنا بعض العشب من الحديقة ، فى التابوت ، مع صورتى الصغيرة التى كنت تسميها : « التلميذة الصغيرة العاقلة » ، والتى كنت تحبها ... هى الصورة التى ستصحبك فى قبرك ، صورة تلك التى سعدت بأن اعجبتك ، حتى لم تتردد فى أن تشاطرها حياتك ، ولم تكن رأيتها الا بضع مرات .. وكنت كثيرا ما تقول لى : ان هذه هى المرة الوحيدة فى حياتك التى تصرفت فيها بلا تردد . واعتقدت بيقين مطلق أنك أحسنت عملا .. يا حبيبى بيير ! أظن انك لم تخطىء . فقد خلقنا لنعيش معا ، وكان اقتراننا أمرا مقضيا .

أغلق تابوتك ، ولم أعد أستطيع ان اراك . لا اقبل ان يغطوه بخرقة بشعة سوداء . انى اغطيه بالزهور ، واجلس الى جانبه ..

... جاءوا يطلبونك ، صحبة حزينة ، نظرت اليهم ، ولم اخاطبهم . اننا نسير بك الى « صو » ، و نراك تنزل الى المقبرة الكبيرة العميقة . ثم موكب مروع من الخلق . يريدون المسير بنا .. قاومناهم ، أنا وجاك ، نريد أن نرى حتى النهاية ، فملأوا الحفرة ، ووضعوا عليها الزهور .

لقد انتهى كل شىء . بيير ينام نومته الأخيرة تحت الثرى . وهذا آخر كل شىء ، كل شىء ... »

لقد فقدت مارى رفيقها ، وفقدت الدنيا رجلا عظيما . وكان لهذا الرحيل الشنيع ، فى المطر والوحل ، أثره فى

نفوس الناس . ووقفت الصحف ، فى جميع البلدان ، اعمدة عديدة على وصف حادث شارع دوفين المثير للشجون . فوصلت الى شارع كلرمان برقيات العطف والمؤاساة عليها امضاءات ملوك ووزراء وشعراء وعلماء ، واسماء ناس غير معروفين .. وفى تلك التلال من الرسائل والمقالات والبرقيات صيحات التأثر الصادق .

من لورد كلفن :

(فجعنا بالأخبار المروعة عن وفاة كورى . ما موعد الجنازة ؟ سنصل غدا صباحا . فندق ميرابو)

من مارسلين برتللو :

(... لقد بوغتنا بالنبأ المروع بفتة الصاعقة .. ما اكثر الخدمات التى اداها الى العلم والانسانية ، وما اكثر الخدمات التى كنا نتوقعها من هذا المستكشف العبقرى . كل هذا قد تلاشى فى لحظة ، واصبح فى عداد الذكريات)

من ج . ليبمان :

(يخيل الى اننى فقدت اخا . لم اكن ادرى اية صلات كانت تربطنى بزوجك ، ولكننى اليوم ادرى ..
وانى لأتألم من اجلك يا سيدتى)

وفى هذه المناسبة ، كما كان فى كل المناسبات ، هربت المراة التى ستعرف منذ الآن باسم : « **الأرملة العظيمة** » ، هربت من هجمات المجد . ولكى تتجنب احتفالا رسميا بالجنازة ، قدمت موعدها الى يوم السبت ٢١ ابريل . ورفضت المواكب ، والوفود ، والخطب ، وطلبت ان يدفن بيير فى ابسط صورة ، فى قبر امه ، بضاحية « صو » . بيد ان ارستيد بريان ، وكان يومئذ وزيرا للمعارف ، اخترق الحصار ، ولحق بشهامة ، **باهل الأسرة** واعز

المقربين ، وشيع جثمان بيير فى صمت ، الى مقره الأخير ، البعيد ، فى مقبرة الضاحية الصغيرة .

وكان الصحفيون المتربصون وراء القبور ، يلحظون وجه مارى المحجب بقناع الحداد الكثيف :

« .. استندت مارى كورى الى ذراع حميها ، وتبعت نعش زوجها الى القبر المحفور فى طرف الحوش ، تظلله اشجار الكستناء . وهناك ، بقيت لحظة بلا حراك ، ناظرة دائما نظرتها الثابتة الجامدة . ولكن عندما جىء بباقة من الزهور الى القبر ، اندفعت ، فأخذت تقطف الزهور واحدة بعد واحدة ،وتنثرها على النعش ..

وقد فعلت ذلك فى أناة وهدوء ، وكأنها نسيت تماما من حولها : اولئك الذين اشتد بهم التأثر ، فلم يأتوا بحركة ولا نأمة ولا همسة .

ومع ذلك لم يجدوا بدا من تنبيهها الى تقبل العزاء من المشيعين ..

وعندئذ ، أفلتت الباقة فسقطت على الأرض ، وغادرت المقبرة ، دون أن تقول كلمة ، ولحقت بحميها .. »

(جريدة « الجورنال » فى ٢٢ابريل ١٩٠٦)

وفى الأيام التالية ، ألقيت كلمات التأبين فى ذكرى العالم الراحل بالسوربون والجمعيات العلمية الفرنسية والأجنبية ، التى كان بيير كورى من أعضائها . وكان من أجمل ما قيل فيه ، قول صديقه هنرى بوانكاريه فى اكاديمية العلوم ، اذ وصف رسوخ علمه ، وتواضعه ، ودماثة خلقه ، ورقة طبعه ، وتعلقه بمثل علوى ، هدفه كل ما هو واجب وحق .

من مذكرات مارى :

« فى غداة الدفن ، قلت كل شىء لصغيرتى ايرين ، وكانت لا تزال عند اصدقائنا . فلم تفهم شيئا بادىء ذى بدء ،

وتركتنى اذهب دون ان تقول شيئا ، ولكن الظاهر انها ، فيما بعد ، قد بكت وطلبت رؤيتنا . وانتحبت فى البيت طويلا ، ثم عادت الى أصحابها الصغار ، لتنسى . ولم تسأل عن أى تفصيل ، وكانت فى البداية مشفقة من الكلام عن أبيها . وفتحت عينيها محدقة بقلق فى ملابسه السوداء التى جاءونا بها ... والآن لم يعد يلوح انها تفكر فى شىء من ذلك .

وصل جوزيف وبرونيا . ما أطيب قلبيهما ! ... ايرين تلعب مع خاليها . أما « ايف » ، فقد ظلت خلال هـذه الشجون لا تدرى منها شيئا ، تجرى فى البيت وتلعب وتضحك ... فى حين اننى أرى بيير ، بيير ، مسجى على سرير الموت .

.. وفى الأحد التالى لموتك ، يا بيير ، ذهبت الى المعمل مع شقيقك جاك ، لأول مرة . حاولت أن أقوم باتمام تجربة كنا بدأناها معا .. فاستحال على ذلك ..

وفى الشارع ، امشى كأنى منومة تنويما مغنطيسيا ، لا اعى مما حولى شيئا . اننى لن أقتل نفسى ، وليست لدى رغبة ما فى الانتحار .. ولكن .. الا توجد بين كل هذه العربات واحدة تجعلنى أشاطر حبيبى مصيره ؟! .. »

وكان الدكتور كورى الشيخ ، وولده جاك ، وجوزيف سكلودوفسكى ، وبرونيا ، يلحظون فى هلع حركات تلك المرأة المثلجة الهادئة ، المتشحة بالسواد ، تلك الآلة الأوتوماتيكية التى استحالت اليها مارى .. ولم يكن مشهد طفلتيها يثير فيها أقل عاطفة ، فظلت متصلبة ، جامدة ، شاردة : تلك الزوجة التى لم تلحق برجلها فى عالم الأموات ، وقد بدت مع ذلك كأنما غادرت عالم الأحياء ..

ولكن الأحياء كانوا مشغولين بها ، قلقين على ذلك المستقبل الذى لم تعد تفكر فيه . ان موت بيير كورى

قد سبب مشاكل هامة . فماذا يكون مصير البحوث العلمية التى تركها ، ودروسه فى السوربون ؟ .. وماذا يكون مصير مارى ؟ .. واذا احتفظت الجامعة بمارى كورى فأية صفة تكون لها ؟ .. وفى اى معمل ؟ .. ايمكن وضع هذه المرأة النابغة تحت رياسة أحد ؟ .. وأين هو البروفسور المختص الكفء لادارة معمل بيير كورى ؟

ولما سئلت مدام كورى عن رغباتها أجابت اجابة غامضة : بأنها لا تستطيع ان تفكر ، وليست تدرى ..

فأحس جاك وبرونيا وجورج جوى ـ اخلص أصدقاء بيير ـ بأن عليهم ان يتولوا عن مارى اتخاذ القرارات والتوجيهات . وحمل جاك كورى وجورج جوى الى عميد الكلية يقينهما بأن مارى هى وحدها ، بين علماء الطبيعة الفرنسيين ، العالم الجدير بمتابعة أعمال بيير ، وهى الاستاذ الوحيد الخليق بأن يخلفه . فلابد من زحزحة العادات والتقاليد ، وتعيين مدام كورى استاذا فى السوربون .

وفى ١٣ مايو ١٩٠٦ قرر مجلس كلية العلوم ، بالاجماع ان يحتفظ بالكرسى الذى انشىء لبيير كورى ، وأن يعهد به الى مارى :

جامعة فرنسا

« مدام بيير كورى ، الدكتور فى العلوم ، ورئيسة أشغال بكلية العلوم بجامعة باريس ، تتولى دروس الطبيعة فى الكلية المذكورة ، ويكون مرتبها بهذه الصفة عشرة آلاف فرنك سنويا ، ابتداء من أول مايو ١٩٠٦ »

وهذه أول مرة يعهد فيها الى امراة بمركز فى التعليم الفرنسى العالى .

استمعت مارى ، شاردة اللب ، الى حديث حميها ،

عن تفاصيل مهمتها الخطيرة التى وجب عليها أن تتقبلها .
فلم تجب الا بكلمة : « سأحاول » .. وصعدت الى ذاكرتها عبارة قالها بيير فيما مضى ، عبارة هى وصية معنوية وأمر، يرسم لها طريقها :

« مهما يحدث ـ حتى لو اصبحنا جسدا بغير روح ـ فلابد من المضى فى الكفاح والعمل .. »

من مذكرات مارى :

« يعرضون على أن أتولى مكانك يا بييرى : دروسك ، وادارة معملك . لقد قبلت . ولا ادرى احسنت أم اسأت ؟ . فقد طالما تمنيت لى أن ادرس فى السربون ، وأريد على الأقل أن ابذل جهدا لاتمام أعمالك . يخيل الى احيانا ، انه هكذا يتاح لى العيش ، وأحيانا يلوح لى أننى مجنونة فى محاولتى اياه ... »

٨ مايو ١٩٠٦ :

« ياحبيبى بيير ، انى افكر فيك تفكيرا لانهايةله، يطيح منه راسى ويضطرب عقلى ... لا ادرك أن على منذ الآن ان اعيش وانا لا اراك !! ان اعيش وانا لا أبتسم لرفيق حياتى الحبيب !!

منذ يومين والأشجار مورقة ، والحديقة غناء ... وفى هذا الصباح راقنى فيها منظر الطفلتين .. وبدا لى أنك كنت ستجدهما عندئذ جميلتين ، تدعونى لأرى ازدهار النرجس والخزامى . وبالأمس فى المقبرة ، لم استطع ان افهم كلمتى « بيير كورى » المحفورتين على الحجر .. وقد ازعجنى جمال الخلاء ، فألقيت بخمارى على وجهى ، حتى ارى كل شىء من خلال النسيج الأسود »

١١ مايو :

« يا بييرى . استيقظت بعد ما نمت جيدا ، نوما هادئا

نسبيا . وذلك منذ ربع ساعة فقط ، وها أنذا ، اراني اريد أن أعوى كرة أخرى كحيوان مفترس »

١٤ مايو :

« يا صغيرى بيير ، أريد أن أخبرك بأن أشجار الجليسين اينعت وأزهرت ، وكنت تحب هذا النوار .

واريد أن أخبرك أيضا بأنهم قد عينونى فى كرسيك ؛ وانه كان هناك بعض الحمقى الذين هنأونى بذلك ! . .

اريد أن أقول لك : اننى لم أعد أحب الشمس ، ولا الزهر ، فمنظرهما يؤلمنى ، بل أنا أوثر الايام الغائمة القاتمة ، كيوم موتك . واذا كنت لم أعرف الحقد على الجو الصحو ، فذلك لحاجة طفلتى اليه . . . »

٢٢ مايو :

« أشتغل فى المعمل طول يومى ، وهذا كل ما استطيعه ، فانى أحس فيه أن نفسى هناك خير منها فى أى مكان سواه . ولا أتصور شيئا يمكن أن يطيب لى شخصيا ، الا البحث العلمى ، لو طاب . . ولكن لا ! . . انه لن يطيب لى أبدا ؛ لأننى اذا وفقت فيه ، فلن أحتمل أنك لن تعلم به . . . »

١٠ يونيه :

« كل شىء كئيب . ان مشاغل الحياة لا تترك لى حتى التفكير بسلام فى حبيبى بيير . . »

غادر جاك كورى وجوزيف سكلودوفسكى مدينة باريس . ولا تلبث برونيا أن تلحق بزوجها فى مصحتهما ببولونيا .

وفى مساء أحد الايام الاخيرة التى تقضيها الاختان معا ، سارت مارى ببرونيا الى غرفتها ، وكانت نار الخشب تتلظى فى مدفئها رغم حرارة الصيف ، واغلقت الباب بالمفتاح . فدهشت برونيا وساءلت محيا الارمل : كان

أشد شحوبا وأقوى امتقاعا · وأخرجت ماري ، دون أن تفوه بكلمة ، من دولاب ، ربطة ضخمة ، مغلفة بورق مشمع · ثم جلست أمام النـــار ، وأشارت الى شقيقتها الكبرى ان تجلس الى جانبها ، وكانت قد أعدت ، فوق المصطلى ، مقصا ضخما ، وهمست :

ـ برونيا .. ساعديني ! ..

ثم فكت الدوبارة على مهل ، وازاحت الورق .. وكان اللهب يصبغ بالذهب يديها المرتعشتين .. فظهرت صرة مربوطة ربطا جيدا في ملاءة . فترددت ماري لحظة ، ثم فكت الملاءة البيضاء . فتمالكت برونيا نفسها من صرخة رعب ، فقد كانت الملاءة تحوي كتلة بشعة من ملابس ملطخة بوحل جاف ، ودم أسود .. فقد ظلت ماري منذ ايام تحفظ في جوارها الثياب التي كان يرتديها بيير عندما دهمته عربة النقل في شارع دوفين .

واخذت الأرمل المقص وبدات تقص السترة القاتمة ، وتلقي بها قطعة قطعة الى الموقد ، وتنظر اليها وهي تتقلص ، ثم تدخن ، ثم تشتعل ، ثم تتلاشى وتختفي .. بيد أنها لم تلبث أن توقفت فجأة ، وقاومت عبثا عبراتها التي امتلأت بهـا عيناها المتعبتان . لقـد بدت في ثنايا القماش اللاصق بعضها ببعض ، مادة لزجة ، رطبة ، هي آخر بقايا مخ كانت تتولد منه ، منذ أسابيع قليلة ، أفكار نبيلة ، واكتشـافات عبقرية ...

حدقت ماري في هذه الآثار العفنة ، ولمستها ، وقبلتها في يأس ولهفة .. فانتزعت منها برونيا الملابس ،والمقص، وطفقت تقص القماش ، وتلقي بقطعه الى النار .

وانتهت المهمة اخيرا ، دون ان يتفوها بكلمة . فالورق المشمع ، والملاءة ، والمنشفة التي مسحت فيها الأختان ايديهما ، ذهبت ايضا فريسة للهب . ثم قالت ماري ،

بعد لاى ، بصوت متهدج مختنق :
ـ ما كنت لأطيق ان يلمس الغرباء هذا ...
ثم اقتربت من برونيا :
ـ والآن ، قولى لى : كيف اعمل لأعيش .. انى اشعر بأن هذا واجبى ، ولكن كيف أؤديه ؟ وما العمل ؟
وانهارت فى بحران من الزفرات ، والغصص ، والعبرات ، والنشيج ، والصراخ ، وتعلقت بأختها التى اسندتها ، وحاولت أن تهدىء من ثائرتها ، ثم نزعت عنها ثيابها ، ووضعت فى الفراش هذه المخلوقة المسكينة الخائرة القوى ..
وفى اليوم التالى ، عادت مارى : آلة أوتوماتيكية ، مثلجة ، كما كانت منذ ١٩ ابريل ... هذه الآلة الصماء ، ضمتها برونيا الى صدرها ، وهى تصعد الى قطار بولونيا .. وستظل تلازمها ، أمدا طويلا ، صورة مارى جامدة بلا حراك ، على رصيف المحطة ، مجللة بقناع الحداد ..
واستؤنف نوع من « الحياة العادية » فى هذا البيت الذى كان مطبوعا ، بذكرى بيير، حتى انه اذا مادق جرس الباب الخارجى أحيانا فى المساء ، يخيل الى مارى، بجنون ، مدى لحظة أو بعض لحظة ، أن الكارثة ليست الا حلما أو كابوسا ، وأن بيير كورى لا يلبث أن يظهر ..
وعلى الوجوه ، الفتية والعجوز التى حولها ، يقرأ نوع من الانتظار . ينتظرون منها مشروعات ، وخطة للمستقبل . فهذه المرأة التى كانت فى الثامنة والثلاثين ، والتى قصم الحزن ظهرها ، هى الآن كبيرة أسرة .
فاتخذت قراراتها : أن تبقى فى باريس طول الصيف ، حتى تتردد على المعمل ، وتعد الدروس التى ستبدأها فى نوفمبر . فمحاضراتها فى السوربون ينبغى أن تكون

جديرة ببيير كورى ، ما دامت تلقى من فوق كرسيه .
فجمعت مارى كراساتها وكتبها وراجعت المذكرات التى تركها العالم . واستغرقت مدة أخرى فى الدرس .

وفى خلال اجازة الصيف الحزينة ، كانت الطفلة ايف فى سان ريمى بوادى شفريز مع جدها ، وكانت ايرين على شاطىء البحر مع خالتها « هيلا » ، التى جاءت لتقضى الصيف فى فرنسا ، جالبة معها من بولونيا حنانها وحبها ..

وفى الخريف ، لم تعد مارى تحتمل البقاء فى بيت شارع كلرمان ، فراحت تبحث عن مسكن جديد . أرادت أن تقطن ضاحية « صو » ، حيث كان بيير يعيش قبل أن تلقاه .. وحيث يثوى الآن ويستريح ...

وعندما عرضت مسألة النقل ، تقدم الدكتور كورى الشيخ فى خجل ، وربما كان لأول مرة فى حياته ، من زوجة ابنه ، وقال :

ــ والآن يا مارى ، اذ لم يبق بيير ، لا ارى سببا يدعوك الى السكن مع شيخ هرم . أستطيع أن اذهب فأعيش وحدى ، او مع ولدى الكبير جاك .. فقررى ماتريدين !..

فتمتمت مارى :

ــ لا . أنت الذى يقرر ! فان ذهابك يسبب لى الألم . ولكن عليك أن تختار ما يطيب لك .

وكان صوتها مضطربا من الجزع . فهل تراها ستخسر ايضا هذا الصديق ، هذا الخل الوفى ؟ فمن الطبيعى أن يذهب الدكتور كورى ليعيش مع جاك ، بدلا من أن يبقى معها هى ، هى الأجنبية ، البولونية .. ولكن لم يلبث أن جاءها الرد الذى تتمناه :

ــ ان ما أوثره يا مارى هو البقاء معك دائما ..

ثم تحـول مسرعا الى الحـديقة حيث كانت تناديه صيحات ايرين السعيدة ..

أرملة ، وشيخ فى التاسـعة والسبعين ، وصـبية ، وطفلة ، هذه هى الآن أسرة كورى .

« مدام كورى ، أرملة العالم العظيم الذى مات تلك الميتة الفـاجعة ، والتى عينت أستاذا فى كرسى زوجها بالسوربون ، ستلقى فى منتصف الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الاثنين ٥ نوفمبر ١٩٠٦ ، درسها الأول ..

وتبسط مدام كورى فى محاضرتها الافتتاحية نظرية الأيونات فى الفـاز ، وتعـالج موضـوع « النشـاط الاشعاعى » ...

وستكون محاضرة مدام كورى فى « مدرج مدرسى » ، وهذه المدرجات تحوى نحو مائة وعشرين محلا ، سيشغل اكثرها الطلاب . والجمهور والصحافة ، وكلاهما له بعض الحقوق أيضا ، سيتقاسمان عشرين محلا على الأكثر !..

وفى هذا الظرف ، الظرف الفذ فى تاريخ السوربون ، ألم يكن يحسن تيسير اللوائح ، بحيث يوضع تحت تصرف مدام كورى ، فى محاضراتها الأولى على الأقل ، المدرج الكبير ؟ ... »

هذه العبارات المقتبسة من صحف ذلك العهد ، تدل على اهتمام باريس وشـدة تلهفهـا على رؤية « الأرملة المشهورة » تواجه الجمهور لأول مرة . فالصحفيون والأعيـان ، وجميـلات النساء ، والفنـانون ، حاصروا سـكرتيرية كلية العـلوم متذمرين من أنه لا تعطى لهم « تذاكر دعوة » ! .. ولم يكونوا فى هذا مدفوعين برغبة التعلم والتثقف ، فما أقل اهتمامهم بـ « نظرية الأيونات فى الفاز » .. ولم تكن آلام مارى فى ذلك اليوم العصيب الا محركا آخر لشهيتهم وفضولهم . فللحزن أيضـا

محدثون ! ..

امرأة ستتكلم لأول مرة فى السوربون .. امرأة .. وهى فى الوقت نفسه عبقرية ، وزوجة كسيرة القلب . أليس فى هذا ما يكفى لاجتذاب رواد التمثيلية الأولى وحفلات الافتتاح ؟ ..

وعند الظهر ، عندما كانت ماری واقفة ، خاشعة ، أمام قبر زوجها ، فى ضاحية « صو » ، تحدث بصوت خافت ذاك الذى ستخلفه اليوم .. كانت قاعة المدرج الصغير تغص بالحضور ، الذين ملأوا ردهات كلية العلوم ومماشيها ، وفاضوا حتى غطوا ساحة السوربون ! .. وكنت ترى فى القاعة : الجهلاء الى جنب فطاحل العلماء ، واصدقاء ماری الحميمين منثورين بين المتفرجين .. وكانت القسمة الضيزى قسمة الطلبة « الحقيقيين » ، الذين جاءوا يتتبعون الدرس ، ويدونون المذكرات ، وكان عليهم الالتصاق بالمقاعد متشبثين حتى لا يزحزحوا عنها ...

الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والعشرون . ضجيج الحديث يشتد ويحتد . همسات ... أسئلة ... استفهامات ... واعناق تمتد حتى لا يفوتها شىء من هيئة مدام كورى وهى داخلة . وكل الذين هناك كان يشغلهم فكر واحد : ما هى العبارات الأولى التى ينطق بها « الأستاذ » الجديد ؟ .. العبارات الأولى للمراة الوحيدة التى سمح بها السوربون ابدا ان تكون بين اساتذته ؟! أتراها ستشكر الوزير ، وتثنى على الجامعة ؟ .. أتراها ستتحدث عن بيير كورى ؟ .. أجل بلا ريب ، فان العرف جرى بأن الخلف يطرى السلف .. ولكن السلف هنا ، زوج ، ورفيق فى العمل . ياله من مركز حرج ! .. ويالها من لحظة مثيرة ، فريدة ! ..

الساعة الواحدة والنصف . ففتح الباب الخلفى ، وأخذت مدام كورى مكانها بين عاصفة من التصفيق . فأحنت رأسها فى حركة قصيرة جافة تقصد بها التحية. ثم وقفت ويداها تضغطان بقوة على المنضدة الطويلة المحملة بالأجهزة .. وانتظرت مارى أن يكف الهتاف . فكف دفعة واحدة ازاء هذه المرأة الشاحبة ، وحمل تأثر مجهول ، على الصمت : جمهورا جاء يتفرج على معرض ...

فنظرت مارى الى ما أمامها وقالت :

ـ عندما نستعرض التقدم الذى بلغته الطبيعة منذ عشر سنوات ، يدهشنا التطور الذى طرأ على أفكارنا من جهة الكهربائية والمادة ...

لقد استأنفت مارى كورى المحاضرة بنفس الجملة التى وقف عندها بيير كورى ..

فأى شىء يمكن أن يكون مثيرا ، يقبض القلوب ، فى تلك الكلمات الباردة : « عندما نستعرض التقدم الذى بلغته الطبيعة .. » حتى تطفر الدموع من العيون ، وتخضل الوجوه ؟ ..

وبذات الصوت الثابت ، المتشابه ، مضت العالمة ذلك اليوم ، فى درسها ، حتى النهاية . فتحدثت عن نظريات جديدة فى تيار الكهربائية ، والتحليل الذرى ، وأجسام النشاط الاشعاعى .. وبعد ما بلغت غاية استعراضها الجاف ، دون هوادة ، انسحبت من الباب الصغير الخلفى ، مسرعة كما دخلت ..

الجزء الثالث

وحدها ..

أعجبنا بماري ، عنـدما كان يظاهرها رجل نابغ ، فاستطاعت ، في وقت معا ، أن تدير منزلها وأن تشترك في مهمة علمية عظيمة . ولم تتوقع أنها ستضطلع ، يوما ما ، بحياة أشق من هذه الحياة ، أو أنها ستقوم بجهد أعظم من هذا الجهد . ان هذه الحياة تعد ناعمة ، اذا قورنت بالحياة المقبلة التي تنتظرها ! فان مسئوليات « مدام كوري الأرملة » حقيقة بأن تروع رجلا ، قويا ، سعيدا ، جريئا .

فعليها أن تربي بنتين ، وأن تكسب حياتهما وحياتها ، وأن تحتفظ بكرسي الأستاذية احتفاظا عاليا . وعليها ، وقد حرمت من عون بيير كوري الثمين ، أن تستمر في البحوث التي بدأتها معه .. ولابد لمساعديها وتلاميذها أن يتلقوا منها الأمر والمشورة . وتبقى بعد هذا كله مهمة أساسية : أن تشيد معملا جديرا بأحلام بيير الخائبة ، حيث يجد شباب البحاث ورواد المعرفة ، مجالا للتقدم بعلم « النشاط الاشعاعي » الجديد ...

وكان أول ما عنيت به ماري سـكنا صـحيا لبنتيها وحميها . فاستأجرت فيلا بضاحية « صو » ، خص منها الدكتور كوري الشيخ بجناح مستقل . واتخذت ايرين وايف من حديقتها مسرحا وملعبا . وزادت متاعب مدام

كورى ، اذ كان عليها أن تقضى نصف ساعة فى القطار الى معملها . فتسرع وتصعد الى عربة الدرجة الثانية ، فى هذا القطار الكريه الرائحة ، وقلما تجد من وقتها ما يسمح لها بالعودة للغداء فى « صو » . فأعادت صلاتها بحوانيت اللبن Les Cremières فى الحى اللاتينى ، تلك التى كانت تدخلها وحيدة ، كما تدخل اليوم ، ولكنها كانت شابة ، وكانت ممتلئة بأمل بسام ، وقلب خلى لا يبالى ... أو كانت تكتفى وهى رائحة غادية فى معملها بأن تقضم كسرة خبز وبعض الفاكهة . وتعود مساء متأخرة ، فتنظم النار فى المصطلى ، بيد الفنانة الكيميائية العارفة بسر النار واللهب ، ثم تلقى بنفسها على الكنبة ، تتنفس من ضنى نهارها ..

وكانت من التحفظ والتحرز بحيث لا تبدى حزنها ، فلا تبكى أبدا أمام أحد ، وتأبى الشكوى أو العزاء . ولا تفضى الى أحد بأزمات يأسها ، ولا بلياليها المعذبة التى تملؤها الأشباح المفزعة . وكان يحدث ، فى الحين بعد الحين ، أن تخونها قواها ، فتقع ، فى قاعة المائدة ، مغمى عليها ...

ولم تكن من جهة المال فى ضائقة . فهى تكسب ما يكفى لتربية أولادها ، وان كانت قد تواضعت فى عيشها عما كانت عليه مع زوجها . واستعانت بمربيات بولونيات خففن عنها بعض أعبائها . لكنها وجدت خير حليف لها فى الدكتور كورى الشيخ ، فهو رغم فاجعته فى ابنه بيير لم يترك نفسه تذهب فى الحزن شعاعا . فهو يحتقر الأسى الذى لا فائدة منه ، ويزدرى النحيب على القبور . فلم يذهب قط بعد الدفن الى المقبرة . وما دام بيير لم يعد ولن يعود ، فهو يأبى أن يعذب نفسه بشبحه ! ..

وكما كان محضره ملطفا لعيش مارى ، كان أيضا فرحة

البنتين . ولولا هذا الشـيـخ العجوز ، ذو العينين الزرقاوين ، لخنق الحداد طفولتهما ، فضلا عن غياب أمهما عن البيت دائما ، فى ذلك « المعمل » الذى لا يفتأ اسمه يتكرر على سمعهما . فهذا الشيخ هو رفيق لعبهما، وهو أستاذهما . وسيورث ايرين التـوازن المعنـوى ، وكراهية الحزن ، والتعلق الشديد بالواقع ، والتحمس لفكتور هيجو . وايرين عنده تشبه ولده الراحل شبها غريبا . وقد أحاطت مدام كورى هذا الشيخ الفاضل بكل عطف ومحبة ، عندما أصيب باحتقان فى الرئة ألزمه الفراش عاما كاملا ، فقضت كل أوقات فراغها الى جانب هذا المريض ، المتعنت ، النافد الصبر ، تحاول أن تروح عنه ، حتى قضى نحبه فى ٢٥ فبراير ١٩١٠ .

وفى مقبرة « صـو » التى عراها الشتاء وجمـدها ، طلبت مارى من حفارى القبور ، أن يخرجوا تابوت بيير كـورى أولا ، ثم يضـعوا تابوت والده الشيخ فى آخر القبر ، ويعيدوا تابوت زوجها ، حتى اذا ما جاء دورها وضعوا تابوتها الى جانبه ، فلا يفـرق بينهما أحـد . ووقفت تحدق بلا خوف فى المكان الخالى المعد لها ، وهى تتأمله طويلا ! ..

وعنيت بتربية بنتيها عنـاية فائقـة ، فسجلت فى مذكراتها ميل « ايرين » الى الاحصاء ، و « ايف » الى الموسيقى .. وكانت ترسلهما الى الهواء الطلق للسير مسافات طويلة على الأقدام ، أو الدراجة ، وتمرنهما على فلاحة الأرض ، والطهى ، والخيـاطة . وكانتـا تقضيان اجازة الصيف مع خالتهما « هيلا » التى تجىء خصيصا من بولونيا . وسافرتا لأول مرة الى بولونيا فى ١٩٠٠ ، حيث استقبلتهما برونيا فى مصحتها ، فتعلمتا ركوب الخيل ، وصعود الجبل .

ولم تكن امهما تريد لهما حياة رياضية مندفعة بلا تعقل الى البهلوانية ، ولكن حياة خشنة ، فلن تسمح لايرين أو لايف أن « تخافا من الظلام » ، أو أن تخفيا الرأس تحت الوسادة ، عندما يرعد الرعد ويبرق البرق ، أو أن تخشيا اللصوص أو الأوبئة . فقد عرفت ماري يوما ما هذه الآفات ، فجنبتها بنتيها . بل ان ذكرى حادث بيير لم تحملها على السهر عليهما فى خوف وحذر. فتركت الصغيرتين تخرجان وحدهما فى سن الحادية عشرة او الثانية عشرة ، ولا تلبثان أن تسافرا أيضا دون حاشية . وكذلك كانت صحتهما المعنوية محل اهتمامها . حاولت أن تحفظهما من الأحلام ، والنجوى ، والحنين ، والافراط فى الحساسية . واتخذت قرارا فريدا هو : الا تحدث اليتيمتين ابدا عن أبيهما ، فبدلا من أن تفرقهما فى جو المأساة ، حرمتهما ، وحرمت نفسها معهما ، من التأثرات النبيلة .

وكذلك لم ترد توزيع قلبيهما بين وطنين . فأرادت أن تتعلما البولونية وأن تحبا مسقط رأسها ، ولكن على أن تكونا فرنسيتين صميمتين ، فلا تتألمان عبثا لشعب مضطهد !

وكانت مرتاحة بأن صغيرتيها لن تعرفا الطفولة المتعبة ، أو المراهقة الشاقة ، أو الفتوة البائسة ، التى كانت نصيبها فى الحياة . بيد أنها لم تكن تتمنى لهما عيشا مترفا ناعما . ففى ظروف عدة ، سنحت لماري الفرصة لتضمن لايرين وايف ثروة طائلة ، فلم تفعل . ولما أصبحت ارملة كان عليها أن تقرر : ماذا تفعل بجرام الراديوم الذى حضرته هى وبيير بأيديهما ، وكان ملكا حلالا لها . وعلى الرغم من نصائح الدكتور كورى الشيخ ومن رأى عدة أعضاء بمجلس اليتيمتين العائلى ، قررت أن تهب الى

معملها هـذا التراث الثمين الذى كان يسـاوى اكثر من مليون فرنك ذهبيا ! .. (٤٠٫٠٠٠ جنيه مصرى !)

وكان عندها أنه اذا كان الفقر مضنيا ، فانه كـذلك لا معنى للفنى الطـائل المرهق ! .. وكـان من الطبيعى السليم عنـدها ضرورة . ان تكسب بنتاها فيمـا بعـد عيشهما ! ..

وكان العيب الوحيد فى هذه التربية ، فى هذا البيت المغـلق ، الذى لا يدخله الا ثلاثة أو أربعـة من أقـرب المقربين ، أنهـا تربية ينقصها ما جـرى به العـرف فى استقبال الناس من كلمات الرقة ، واشارات اللطف ، والانحناء ، والظرف . فظلت الفتاتان تجهلان ذلك عشرة أعوام أو عشرين عاما ، الى أن ترغمهما حياة المجتمع على معرفته وقبوله ، ولو كرهتا ..

وكانت تلك المخلوقة التى تخشى على بنتيها العواطف الحنون والرقـة والتفانى فى المحبـة ، كانت هى نفسها للحنان والحب مثالا ، فأرادت أن تجنبهما عذابها . ولم تكن تطبق فى بيتها العقوبات المعروفة : « كالتذنيب فى ركن الغرفة » ، أو « الحرمان من الحلوى » . وكذلك كان لا يعرف فيه الصياح ، لا فى الغضب ، ولا فى الفرح ، فقلما رفعت احدى البنتين صوتها . وفى ذات يوم أذنبت ايرين ، فأرادت أمها أن تعاقبها ، فحرمت على نفسها أن تخاطبها مدى يومين . وكانت هذه الساعات أشد على الأم منها على البنت ، فكأنهـا كانت قد عاقبت نفسها . تهيم فى البيت الكئيب على وجهها تتألم بأكثر مما تتألم بنتها ..

وكانتا تخاطبانها : « مه شيرى .. » .. « مه الحلوة! » .. أو « حلوتى » . وكان صوت هذه الأم الحلوة العزيزة « مه » لا يكاد يسمع .. فهى تخاطبهما فى شبه استحياء

.. لا تريد أن تخافا منها ، ولا أن تعجبا بها .. « مه » الرقيقة هذه ، ظلت على مدى السنين ، متجنبة تماما أن تعرف بنتيها انها ام اسرة كفيرها . أو انها (استاذ) محطم تحت اعباء حاجة العيش اليومية ، بل ارادتهما أيضا على ان تظلا تجهلان انها أندر مخلوقة على سطح الأرض ..

ولم يحدث أبدا ان حاولت مارى أن تزهو كريمتاها بعملها ، ومجدها . وكيف يمكن أن يخطر ذلك ببالها ، وهى ، أمام مهمتها العظمى ، ليست الا مثال التردد والاستسلام والمذلة !؟ ..

من مارى كورى الى هانيا (بنت أختها هيلا) ١٩١٣ :

(تكتبين الى أنك تتمنين لو أنك عشت منذ قرن من الزمان ! .. فى حين أن « ايرين » تؤكد لى تفضيلها العيش فيما يستقبل من الأزمان ، فى الأجيال القادمة ، وأظن انه يمكن أن يحيا الانسان ، فى العهدين ، حياة طيبة نافعة . وما ينبغى لنا هو : الا نفسد الحياة على أنفسنا ، وأن نستطيع أن نقول : « لقد عملنا ما استطعنا عمله » . وهذا كل ما يمكن أن نطالب به ، وهو أيضا الشىء الوحيد الخليق بأن يحمل الينا بعض الهناء .

فى الربيع الماضى ، ربت بنتاى دود القز . وكنت مازلت مريضة جدا ، فظللت مدى أسابيع ، فى حالة عجزى الاضطرارى ، أراقب طويلا تكوين الشرانق ، باهتمام عظيم . فهذه الديدان الشديدة الهمة ، الموفورة الذمة ، تعمل بكل قوى ارادتها وثباتها ومواظبتها ، مما أدهشنى حقا . وأنا ، وان كنت أقل منها استعدادا للنظام ، فانى أيضا عملت مثلها ، ونسجت على منوالها ، فى صبر ، نحو هدف واحد . وقد فعلت ذلك ، دون أقل معين من اليقين بأن الحقيقة كانت هناك ، عالمة بأن الحياة برق خلب ،

ووهم قلب ، وانها لا تترك وراءها شيئا ، وان غيرنا من الناس يراها على الضد مما نراها تماما . وقد فعلت ذلك بلاشك ، لان شيئا برغمنى عليه ، كما أن دودة القز مرغمة على نسج خيوطها .. وهى ، هذه المسكينة ، مضطرة الى أن تبدأ هذا النسيج حتى ولو استحال عليها اتمامه ، عاملة بنفس العناية وبنفس الهمـة الصبور .. واذا لم تبلغ غاية مهمتها ، ماتت الى غير بعث أو نشور ، وبغير جزاء أو شكور ...

فهيا يا عزيزتى هانيا ، اينسج كل منا خيوطه ، دون ان يسأل عن السبب ، أو يتساءل : ما الغاية ؟ او اين النهاية ! ..

انتصارات ومحن

امراة شاحبة جدا ، نحيلة جدا ، بدأ وجهها يتجعد شيئا ، وتحول شعرها الأشقر فجأة الى المشيب ، تدخل كل صباح ، فى معمل شارع كوفييه ، الذى بنته الجامعة مؤقتا ، وتضع مريلة من التيل الثقيل ، تغطى بها ثوبها الأسود ، وتبدأ تعمل .

وكانت مارى ، فى تلك الحقبة العابسة من حياتها ، لم تتبين أن جمالها قد بلغ ذروة اكتماله . وقد قيل : ان الناس ، كلما تقدمت بهم السن ، تكون لهم الوجوه التى يستحقونها ! فما أصدق هذا القول وانطباقه على مدام كورى ! .. فاذا كانت الفتاة المراهقة « لطيفة » ليس غير ، واذا كانت الطالبة والزوجة الشابة على كثير من الرشاقة ، فان العالمة الناضجة المحطمة ، قد أصبحت اليوم ذات جمال فتان . ولم يكن وجهها السلافى ، الذى تضيئه حيـــاة العقـــل ، فى حاجـة الى تلك الزخارف السطحية : كالنضــارة والبهجــة .. فلمحــة البســالة الحزينة ، وتداعى البدن ، هما ، بعد الأربعين بقليل ، زينتها النبيلة . وهى ستبقى بهذا المظهر المثالى فى عينى ايرين وايف مدى السنين الطوال ، الى اليوم الذى تتبينان فيه بجزع ، أن أمهما قد أصبحت امراة عجوزا وهن العظم منها واشتعل الراس شيبا ...

فهى (أستاذ) ، وهى (بحاثة) ، وهى (مدير

معمل) .. تعمل بالهمة التى لا تعرف الكلل . فاستمرت تدرس فى « سيفر » ، وصارت بدروسها فى السوربون أول أستاذ فى ذلك الحين ، فى العالم كله ، يلقى محاضرات فى « النشاط الاشعاعى » .. تريد أن تساوى أولئك الأساتذة الذين بهروا مانيا سكلودوفسكى يوما ما ! ..

ثم نشرت دروسها فى عام ١٩١٠ فى مجلد ضخم باسم Traité de Radio-activité مكون من ٩٧١ صفحة ، فى هذا العلم الحديث الذى اكتشف بالأمس القريب على يديها وعلى يدى زوجها ! .. ولم تضع فى أوله صورتها بل صورة بيير كورى .. وكانت قبل ذلك بعامين اثنين قد حلت بهذه الصورة نفسها مجلدا آخر من ستمائة صفحة عن أعمال بيير كورى Les Oeuvres de Pierre Curée ، رتبتها وصححتها وقدمتها بقلمها .

وزادْ عدد طلابها ومريديها . ووقف المحسن الأمريكى الشهير أندرو كارنيجى Andrew Carnegie فى ١٩٠٧ الأموال على بعثات سنوية عديدة عند مارى كورى ، انضمت الى المساعدين الذين تدفع لهم الجامعة مرتبات ، بخلاف المتطوعين للبحث . وكان بين هؤلاء « موريس كورى » ابن جاك كورى ، قد بدأ فى المعمل مهنته العلمية ، وجعلت مارى تحنو عليه حنو الأم وتفخر به .

وراحت مارى كورى ، يساعدها معاون زوجها الأمين وصديقه الوفى أندريه دبيرن ، تعمل على استخلاص عنصر الراديوم من أملاحه ، واستفراده نقيا ، وتعين وزنه الذرى . فتلقى فى هذا السبيل عقبات كأداء ، حتى توفق الى تحضير أول نموذج دولى للراديوم . وكانت تلك الأنبوبة الخفيفة من الزجاج ، التى ختمتها مارى بيديها ، وهى جد متأثرة ، تحوى ٢١ مليجراما من كلورور الراديوم النقى .. وستكون نموذجا لما يوزع فيما بعد من انابيب

فى القارات الخمس ، وسيودع ايداعا رسميا مشهودا فى « دار الموازين والمقاييس والمكاييل » فى سيفر ، قرب باريس .

وانهالت على الأرملة العظيمة شهادات الدكتوراه الشرفية ، وعضوية الأكاديميات الأجنبية من كل ناحية ، حتى ملأت أدراج بيت « صو » . وليس لدى فرنسا لتكريم العظماء فى حياتهم الا شيئان : اللجيون دونور ، والأكاديمية . فمنحت مارى الوسام فى ١٩١٠ ، ولكنها فعلت مافعله زوجها قبلها ... رفضت قبوله .

ولكن لماذا لم تعارض أيضا أولئك المتحمسين الذين جاءوا بعد شهور قليلة ، يحملونها على التقدم الى أكاديمية العلوم !؟ أتراها نسيت ما تعرض له زوجها من فشل مذل ؟! أم تراها جهلت ما يحيط بها وبعملها من غيرة وحسد ؟!

أجل ! انها تجهل . وايضا ، وكأنها ما زالت بولونية ساذجة ، خشيت أن تتهم بالادعاء أو الجحود ، لرفضها ما خيل اليها أن البلاد التى اختارتها وطنا ثانيا لها ، تقدمه اليها علامة تقدير عظيم لعلمها ! ..

وكان منافسها على العضوية ادوار برانلى Branly وهو عالم كبير وكاثوليكى مشهور . فقامت المعركة بين انصار كورى وانصار برانلى : بين أحرار الفكر وبين الاكليركيين . كيف يباح المجمع العلمى للنساء ؟ .. لقد بدأ النضال فى كل الساحات ! وشاهدت مارى ، فى عجز وقصور ، هذه المعارك التى لم تحسب لها حسابا . وكان اكبر العلماء فى صفها يدعون لها ، وعلى راسهم : هنرى بوانكاريه ، والدكتور رو Roux ، واميل بكار Picard ، والبروفسور ليبمان ، وبوتى Bouty ، وداربو Darboux

ولكن المعسكر الثانى أعد دفاعا قويا : « ان النساء

لا يمكن ان يدخلن المجمع العلمى ! » . وهذه الصيحة قد صدرت من اماجا Amagat ، الذى كان منذ ثمانى سنوات المنافس الموفق لبيير كورى ! .. وتطوع آخرون بالأكاذيب، فذهبوا يؤكدون للكاثوليك أن مارى يهودية !.. ولعلهم راحوا يؤكدون لأحرار الفكر أنها كاثوليكية ! .. وفى ٢٣ يناير ١٩١١ ، يوم الانتخاب، أعلن الرئيس بصوت عال مخاطبا الحجاب ، وهو يفتتح الجلسة :

ـ « دعوا كل الناس يدخلوا ، الا النساء » ! ..

وكادت مارى تفوز بعضوية المجمع العلمى الفرنسى لولا فرق صوت واحد ! ..

ولكن يلوح فى تاريخ اسرة كورى أن العالم الخارجى الأجنبى هو الذى يصلح دائما أخطاء فرنسا . ففى شهر ديسمبر من هذه السنة نفسها ، ١٩١١ ، أرادت أكاديمية علوم ستوكهلم أن تعترف بالأعمال المجيدة التى أدتها مدام كورى منذ موت زوجها ، فمنحتها جائزة نوبل الكبرى فى الكيمياء .. ولم يحدث أبدا أن شرف قدر رجل أو امرأة بالحصول على مثل هذه الجائزة العالمية السنية مرتين ، كما شرفت مارى كورى ! ..

فطلبت مارى من برونيا أن تجىء لتقوم واياها بالرحلة الى السويد ، كما استصحبت بنتها ايرين .. فحضرت الصغيرة الجلسة المشهورة .. وبعد أربع وعشرين سنة ، فى نفس هذه القاعة ، ستحصل هذه الطفلة الصغيرة على هذه الجائزة نفسها ! ..

اكتشاف عظيم ، وشهرة عالمية ، وجائزتا نوبل، واحدة فى « الطبيعة » وواحدة فى « الكيمياء » ، قد حملت الى مارى اعجاب كثيرين ، كما حملت بالطبع حقد كثيرين غيرهم ..

فتهجم عليها أهل السوء يريدون أن يودوا بها . واندفعت

حملة شعواء فى باريس ضد هذه المرأة ، التى كانت فى الرابعة والأربعين ، ضعيفة ، واهنة ، حطمها الجهاد المتواصل .

مارى هذه التى اتخذت مهنة رجل ، قد اتخذت من الرجال أصدقاءها وموضع أسرارها . فلاعجب أن كان لها أثرها فى هؤلاء الأصدقاء ، ولكنه أثر المعرفة والعبقرية ، لا أثر الحب والهوى والتغزل فى ضوء القمر ! .. فهى عالمة منقطعة لعلمها ، زاهدة ، متحفظة . وهى ، منذ بضع سنين ، فى حالة صحية تدعو الى الرثاء لها ، والخوف عليها ، فهى اذن آخر من يفسد بين الرجال وزوجاتهم ، أو يلوث الاسم الذى تفخر به وتعتز على جميع الأسماء .

كان هناك صحفيون تجرأوا على سب امرأة عزلاء من مثل أسلحتهم ، ولقد جاء احدهم بعد ذلك يسألها الصفح والغفران ، نادما باكيا ! .. ولكن الجريمة ارتكبت ! ارتكبت حتى لم يعد بين مارى وبين الانتحار والجنون الا خطوة .. وهى لم تخطها لأن مرضا خطيرا جدا أقعدها ..

وكان شر هؤلاء القوم تتجلى خساسته فى ظروف كالتى رفضت فيها الأكاديمية الفرنسية ترشيح مدام كورى . فقد عيروها بأصلها ووصفوها بالروسية، وأخرى بالألمانية، أو اليهودية ، أو البولونية ، فهى « الأجنبية » التى جاءت باريس « مربية أولاد » لتحصل على مكانة رفيعة تستغلها ! ..

أما عند ما تتجلى مواهب مدام كورى للعيان ، ويقبل العلم فيشرفها ويكرمها ، فى بلاد أخرى ، نرى فى تلك الصحف نفسها ، وفوق توقيعات نفس المحررين ، وصفها بقولهم : « سفيرة فرنسا » ، « انقى ممثلة لعبقرية جنسنا » ، « انها مجدنا القومى » ! .. وبنفس الظلم يوارون أصلها البولونى ، الذى هو من مفاخرها ! ...

وهكذا وجدت مدام كورى سببا آخر لكراهية الشهرة، وداعيا يدعوها لمقت المجد .

وجاء فى مايو ١٩١٢ وفد من أساتذة بولونيا وعلمائها ، يلتمس من مارى العودة الى بلادها ، بناء على رغبة أمتها كلها ، لتتولى فى فارسوفيا مشروع معمل عظيم « للنشاط الاشعاعى » ، وتكون مديرته . وكانت تلك فرصة لها لتترك فرنسا ، وتتخلص من الأدنياء الذين أساءوا اليها ، وتولى ظهرها للظلم والقسوة والاتهام الزور . ولكنها لا تصغى أبدا لنصائح الموجدة والنقمة ، بل تبحث بكل امانة عن واجبها ، أين يكون ؟ فترى ان تأسيس المعمل الذى طالما تمناه زوجها قد تقرر ، فهربها من باريس معناه القضاء على هذا الأمل ، واخماد هذا الحلم العظيم .

ولكنها تسافر الى بلادها ، فتحضر وضع الحجر الأساسى* لمعهد الراديوم فى فارسوفيا ، الذى يعد من أعظم معاهد العالم ، وتحتفل بها أمتها كقديسة ، وتسافر من هناك الى انجلترا وبلجيكا .. فتتقبل من جامعة برمنجهام درجة الدكتوراه الفخرية Docteur honoris causa فاسمع اليها كيف تصف الحفلة لبنتها ايرين :

« لقد ألبسونى ثوبا جميلا أحمر له ثنايا خضر ، كزملائى العلماء الذين نالوا الدكتوراه .. وسمع كل منا خطبة صغيرة تعدد أعمالنا ، ثم أعلننا العميد ، واحدا بعد واحد، بحصولنا على الاجازة .

وعندئذ أخذنا مكاننا من المنصة ، ثم قمنا ، فسرنا فى موكب من جميع أساتذة هذه الجامعة ودكاترتها ، فى مثل أزيائنا .. وكان ذلك مسليا للنفوس .. وكان على أن أتعهد ملنا بالمحافظة على قوانين جامعة برمنجهام وتقاليدها ! »

فتحمست ايرين الصبية ، وكتبت الى أمها :

« ياحبيبتى! .. انى أتعجل رؤيتك فى الثوب الجميل الاحمر

ذى الثنايا الخضر.. لشد ما تكونين فيه فاتنة ! .. ولكن هل احتفظت بهذا الثوب الجميل ، أو انهم اعاروك اياه مؤقتا أثناء الحفلة ؟! »

وفى فرنسا .. تلاشت الزوابع وتنوسيت ، واصبحت العالمة الكبيرة فى ذروة المجد . ومضى الآن عامان على المهندس « نينو Nénot » وهو يبنى لها « معهد الراديوم » ، على الأرض المخصصة له فى الشارع الذى أطلق عليه اسم « بيير كورى » فى الحى اللاتينى .

ولم يحدث هذا من تلقاء نفسه . فان الدكتور « رو » مدير معهد باستور اراد أن يؤسس لمارى كورى معملا ، ففارت الجامعة ، وتمسك السوربون بها .. وتم الاتفاق بين الدكتور « رو » والعميد ليار Liard على دفع ٤٠٠٫٠٠٠ فرنك ذهبا من كل من الجامعة ، ومعهد باستور لتأسيس معهد الراديوم الذى يتكون من بناءين : احدهما معمل للنشاط الاشعاعى تحت ادارة مارى كورى ، والثانى معمل للبحوث البيولوجية تحت رياسة عالم وطبيب عظيم هو البروفسور كلود ريجو Claude Regaud ، فينظم دراسات عن السرطان ويعالج المرضى به . وهذان المعهدان التوأمان يعملان متعاونين للتقدم بعلم الراديوم .

وبينما كان بناؤها العزيز يرتفع ، اذ جاءها النبأ بأن مدرسة البلدية للطبيعة والكيمياء ، تبنى هى ايضا قاعات جديدة ومدرجات للمحاضرات .. وأن السقيفة المشهورة ـ معمل بيير ومارى القديم ـ لا تلبث أن تسقط تحت معاول الهدم .. فأسرعت الى شارع لومون لتودع السقيفة الوداع الاخير . كانت لا تزال كما هى ، والسبورة السوداء مازالت عليها بضعة سطور بخط بيير كورى . حملتها بعناية وتقديس .. وكأن الباب عندئذ سيفتح ، ويمر منه شخص طويل ، معروف ، محبوب .. « بيير !! »

وغرست بيديها الاشجار فى حديقة المعهد ، لتنمو وتكبر عند افتتاحه . وكان الزجاجون يغنون ويصفرون ، وهم يركبون الزجاج فى جميع أدوار البناء .. وكانت تقرأ منذ الان على باب مدخله ، هذه الكلمات ، منقوشة فى الحجر :

« معهد الراديوم ــ بافيون كورى »

وعلى الحيطان المتينة ، سجلت مارى كلمات باستور الخالدة :

« اذا كانت الفتوحات النافعة للانسانية تمس شغاف قلبك ، واذا كنت تقف مبهورا أمام التلغراف الكهربائى ، والتصوير الشمسى على النحاس ، والبنج ، وغيرها من الاكتشافات الرائعة : اذا كنت غيورا على النصيب الذى تستطيع بلادك أن تدل به على ازدهار هذه العجائب ، فرجائى اليك اذن أن تهتم بهذه المساكن القدسية ، التى يطلق عليها اسم « المعامل » . واطلب أن تضاعف وأن تزخرف .. فهى معابد المستقبل ، وهى الغنى والخير .. انه فيها حيث يكبر وينمو كيان الانسانية ، ثم يقوى ويسمو .. انه فيها حيث تتعلم الانسانية القراءة فى أعمال الطبيعة ، التى هى أعمال التقدم العالمى والانسجام ، فى حين أن أعمال الانسانية نفسها ليست غالبا ، الا أعمال وحشية وتعصب وهدم وتخريب ... »

وفى شهر يونيه الساطع ، تم بناء « معبد المستقبل » بشارع بيير كورى .. ولم يعد ينتظر غير الراديوم والباحثين العاملين ، ومديرته ...

بيد أن شهر يوليه هذا ، كان من عام ١٩١٤ .

الحرب

استأجرت مارى لفصل الصيف فيلا بمقاطعة بريتانى Bretagne ، وكانت ستلحق يوم ٣ اغسطس بايرين وايف اللتين سافرتا قبلها مع مربية وطاهية . فقد كان من عادتها البقاء فى باريس ، حتى تنتهى السنة الدراسية ، فى الشقة الجديدة على رصفة بتون Quai de Béthune ، تقضى فى المعمل نهارها ، وتعود فى ساعة متأخرة فتجد البوابة قد عنيت بالشقة ، كيفما كان

من مارى الى ابنتيها ، فى أول اغسطس ١٩١٤ :

عزيزتى ايرين ! عزيزتى ايف ! الظاهر ان الامور تسوء : فنحن نتوقع تعبئة الجيش من لحظة الى أخرى . ولاادرى هل أستطيع السفر او لا ؟ لا تخافا ولا تحزنا ، فاذا لم تنشب الحرب جئتكما يوم الاثنين . والا بقيت هنا ، واستدعيتكما عندما يكون ذلك فى الامكان . وسنجتهد ، أنا وأنت ياايرين ، فى أن نخدم البلاد

٢ اغسطس :

يابنتى العزيزتين ! بدات التعبئة ، ودخل الالمان فرنسا دون اعلان حرب ؛ فلا يسهل علينا الاتصال خلال بضعة ايام . .

باريس هادئة ، متجلدة ، رغم أحزان الفراق . .

٦ أغسطس :

« ياعزيزتى ايرين ! وأنا أيضا أريد احضارك هنا ، ولكن هذا مستحيل الى حين . فصبر جميل .

يجتاز الالمان البلجيك بحد السلاح ، فلم تقبل بلجيكا الصغيرة الباسلة أن تدعهم يمرون دون دفاع عن نفسها .. الفرنسيون جميعا يؤمنون بالنتيجة ، وان كانوا يعتقدون ان الصراع شديد . بولونيا محتلة بالالمان . فماذا يبقى منها بعد مرورهم ؟. لا علم لى بشيء عن أسرتى » .

احاط بمارى فراغ غير مألوف ، فان زملاءها وكل العاملين حولها قد لحقوا بفرقهم . ولم يبق الى جانبها غير الميكانيكى ، لويس راجو ، الذى رفض تجنيده لضعف فى القلب ، وخادم قصيرة القامة ، طول قبضة اليد !

ونسيت البولونية أن فرنسا ليست الا وطنها المختار ، فلم تفكر الام فى السعى الى أطفالها . والمخلوقة المريضة ، الواهنة ، قد احتقرت آلامها وأوجاعها ، كما ان العالمه قد عطلت أشغالها وبحوثها . ولم يعد يشغلها غير فكر واحد : أن تخدم وطنها الثانى . وفى هذا الظرف العصيب برزت مرة أخرى مواهبها وابتكاراتها .

هى لا تبحث عن الحلول السهلة ، فتغلق معملها لتصبح مثل كثيرات من الفرنسيات الباسلات : ممرضة ذات نقاب أبيض .. كلا . لقد بحثت من فورها حتى وجدت نقصا فى الخدمة الطبية لا يشغل بال أولياء الامور ، فى حين أنه بدا لها فاجعا : فان المستشفيات ، سواء ماكان منها فى الميدان او فى المؤخرة ، محرومة تقريبا من أجهزة الاشعة « السينية » ! ..

ومن المعروف أن اكتشاف رونتجن فى ١٨٩٥ لأشعة x هذه قد قدم للجراحة عونا كبيرا ، اذ كشف عن « داخل » جسم الانسان ، ومكن الجراح من أن يرى ويصور العظام

والاعضاء . وفى عام ١٩١٤ لم يكن فى فرنسا غير عدد محدود من أجهزة رونتجن يستخدمها أطباء الاشعة ، ولم تزود الخدمة الطبية العسكرية بهذا الجهاز الا بعض المراكز الكبرى ، التى اعتبرت جديرة بهذا الترف !..

وكيف يكون « ترفا » هذا الجهاز السحرى الذى يمكن بفضله اكتشاف رصاصة البندقية أو شظية القنبلة فى الجرح ، ويمكن به أيضا تحديد موضعها وعزلها ؟!

فأدركت مارى ، ببصيرتها العلمية النافذة ، الحاجة الماسة الى استخدام الاشعة السينية ، وتأسيس مراكز للكشف بها على وجه العجلة .. وفى بضع ساعات أحصت الاجهزة الموجودة فى معامل الجامعة ، بما فيها جهازها ، وقامت بجولة عند صناعها ، وجمعت كل ماأمكن جمعه من قطع الاجهزة ، لتوزيعها على مستشفيات منطقة باريس . واختير المتطوعون لادارة أجهزة الاشعة هذه من بين الاساتذة ، والمهندسين ، والعلماء .

ولكن كيف السبيل الى نجدة الجرحى الذين يتوافدون أفواجا بصورة فظيعة ، فى عربات الاسعاف المجردة حتى من « الابريزة » التى يمكن فيها تركيب الجهاز ؟..

وجدت مدام كورى حلا : فقد أسست على نفقة الاتحاد النسائى الفرنسى أول « عربة أشعة » ، وكانت سيارة عادية ، فزودتها بجهاز رونتجن ، ودينامو يعمل بادارة محرك السيارة ، ويزود الجهاز بالتيار اللازم . وكان هذا المركز المتحرك الكامل يدور من مستشفى الى مستشفى منذ أغسطس ١٩١٤ . وقد كفل وحده الكشف عن الجرحى الذين أرسلوا الى باريس خلال معركة المارن الكبرى !..

وكان تقدم الالمان السريع قد جعل مارى ، ازاء ضميرها فى موقف حرج . فهل تلحق بابنتيها فى اقليم « بريتانى »،

او تبقى فى باريس ؟.. واذا هدد الغزاة العاصمة ، فهل تتبع الخدمة الطبية فى تقهقرها ؟

استعرضت بهدوء هذه الاحتمالات ، وقررت البقاء فى باريس مهما يحدث . فهذه المرأة العنيدة ، الشديدة المراس لا تحب الهرب . ان من يشعر بالخوف يخدم أعداءه .

من مارى الى ايرين ، ٢٨ أغسطس ١٩١٤ :

بدأنا نواجه احتمال حصار باريس ، فاذا حدث ذلك تقطعت بنا الاسباب ، فعليك اذن أن تتحملى بشجاعة ، لان رغباتنا الذاتية ليست شيئا مذكورا الى جنب النضال العظيم الدائر الرحى منذ الان . وعليك ان تحسى بمسئوليتك ازاء أختك ، وان تسهرى عليها ، اذا قدر علينا الافتراق طويلا .

٢٩ اغسطس :

يا عزيزتى ايرين : لا شىء يدل على أن المواصلات ستنقطع بيننا حتما ، ولكنى حرصت على أن أقول لك ان علينا الاستعداد لكافة الاحتمالات . فان باريس قريبة من الحدود بحيث لا يبعد على الالمان الدنو منها ، وهو مالا يحول بيننا وبين الرجاء فى انتصار فرنسا النهائى .. وعلى ذلك : فلابد من شجاعة وثقة ! فكرى فى دورك : دور الاخت الكبيرة ، وقد آن لك أن تحملى ذلك على محمل الجد

٣١ اغسطس :

وصلتنى الآن رسالتك الرقيقة المؤرخة يوم السبت ، ووجدت شوقا شديدا الى معانقتك ، حتى كدت ابكى ..

ليست الامور على مايرام . نفوسنا قلقة حزينة ، وقلوبنا واجفة . ونحن فى حاجة الى شجاعة عظيمة . ورجائى الا تخوننا أو تعوزنا الشجاعة . وعلينا أن نثق بأنه بعد

الايام العصيبة سيصفو الجو ويطيب الزمان . وانى بهذا الامل أضمكما الى صدرى ، يا ابنتى المحبوبتين .

واذا كانت مارى تستعرض العيش باطمئنان ، فى باريس المحاصرة ، المهددة بالمدافع ، المستهدفة للقنابل ، أو التى قد يغزوها عدوها ويقتحم ابوابها ، فان هناك كنزا تريد أن تحميه من الغزاة : هوجرام الراديوم الذى يملكه معملها وهى لا تجرؤ على ان تعهد الى أى رسول بهــذا الـكنز الثمين ، فتقرر نقله بنفسها الى بوردو .

وهاهى ذى ، فى القطار الطافح بالشخصيات البارزة وموظفى الحكومة ، مزودة بصندوق ثقيل من حديد ، يضم الانابيب الزجاجية الدقيقة التى تحوى جرام الراديوم .. فوجدت ، بمعجزة ، طرف كنبة ، ووضعت أمامها الطرد الحديدى .. وأعارت الاحاديث المتشائمة ، التى تضج بها مركبة القطار ، اذنا صماء ، ونظرت من النافذة الى الريف الضاحى .. ولكن هناك أيضا كل شىء يحدثها عن الهزيمة .. فعلى الطريق العام ، الذى يمتد الى جنب خط سكة الحديد ، يجرى موكب لا ينقطع ، ولا آخر له ، من السيارات الهاربة نحو الغرب ..

وقد اجتاح الفرنسيون مدينة بوردو . فلم يعد ثمة اثر للحمالين ، أو سيارات الاجرة ، أو غرف الفنادق . فظلت مارى ، والليل يدخل ، واقفة فى ساحة المحطة ، بجانب حملها الباهظ ، لا تجد القوة على حمله . والناس يدفعونها دون أن يخرجوها عن طبعها ، فتسلت بموقفها .. أتراها ستنتظر حتى الغد ، واقفة ، حارسة هذه الخزانة ، التى تساوى مليونا من الفرنكات ؟ كلا ! فقد عرفهــا مــوظف باحدى الوزارات ، رافقها فى السفر ، وانبرى لنجدتها . وحصل لها منقذها على غرفة فى شقة خاصة ، ووضــع جرام الراديوم فى مأمن . فأودعت مارى ، فى الصباح ،

كنزها المتعب ، فى خزانة بنك ، وتخلصت منه . وقصدت طريق باريس .

ولم يلفت ذهابها الى بوردو أحـدا ، أما عودتها الى العاصمة فأثارت التعليقات .. فازدحمت حلقة من الناس حول هذه العجيبة : « ألست اللى راجعه هناك » ! .. فحافظت « الست » على اخفاء شخصيتها ، ولكنها تكلمت على غير عادتها ، وهدأت من مشاعر القلق ، مؤكدة ان باريس « ستقاوم » ، وليس على سكانها من خطر . وكان القطار الذى يحمل الجنود ، و « مدنيا واحدا » ... يسير فى بطء لا يصدق ، ويقف مرات ، فى وسط الحقول ، مدى ساعات .. وتقبلت مارى من جندى كسرة خبز كبيرة فهى منذ غادرت أمس معملها ، لم تجد وقتا لتناول الطعام وكادت تموت جوعا .

باريس ، الصامتة ، المهددة ، لاحت لها ، فى ضـوء سبتمبر البهيج ، أجمل وأغلى منها فى أى وقت مضى . كيف يمكن التفريط فى هذه الحلية الثمينة ؟.. ولـكن سرعان ماطرقت أذنيها الاخبار التى عصفت بها الشوارع : لقد كسر هجوم الالمان ، وبدأت معركة المارن !

من مارى الى ايرين ، ٦ سبتمبر ١٩١٤ :

مسرح الحرب يتغير الآن : فالظاهر ان العدو يبعد عن باريس. ونحن جميعا يحدونا الامل، مؤمنون بالفوز النهائى

مرنى الفتى فرنان شافانس على مسائل الطبيعة . فاذا كنت لا تستطيعين العمل لاجل فرنسا فى الوقت الحاضر ، فاعملى لاجل مستقبلها . وسيذهب كثير من الناس ، لسوء الطالع ، بغير رجعة ، من جراء هذه الحرب ، ولابد من شغل اماكنهم والحلول محلهم . فأتقنى دراسة الرياضيات والطبيعيات ماستطعت ...

لقد نجت باريس !.. فاستردت مارى بنتيها ، اللتين كانتا تحتجان بشدة على هذا النفى . وعادت ايف الى كلية « دى سفنييه » ، والتحقت ايرين بمدرسة الممرضات لتحصل على الدبلوم ، دون أن تنقطع مع ذلك عن ممارسة الاشعة ، والتردد على السوربون ...

وكان كل ما تنبأت به مدام كورى : أن الحرب ستطول وتكون مجزرة . فلابد من عمل العمليات للجرحى ، حيث هم ، وانه ينبغى للجراحين والاختصاصيين فى الاشعة أن يعملوا فى عربات الاسعاف بجبهة القتال ، حيث تستدعى سيارات الاشعة فتؤدى خدمات لا تقدر . وكانوا يطلقون على تلك السيارات : « كورى الصغيرة » . ولبت نداء مارى سيدات كريمات تبرعن بسياراتهن الفخمة ، كالمركيزة دى جاناى de Ganay ، والبرنسس مورا Murat .. فصار تحت تصرفها عشرون سيارة ، واحتفظت لعملها شخصيا بأقلها قيمة : سيارة عتيقة اشبه بسيارات النقل! وأسست مائتى قاعة ثابتة للاشعة ، وزاد ما أنقذته من الارواح ، وما رحمته من الاجساد ، ومن خلصتهم من الالام والعذاب ، على المليون ...

وفى الاشهر الاولى من الحرب استشارت ايرين فى مسألة خطيرة ، قالت لابنتها :

ــ ان الحكومة تطلب من رعاياها الذهب ، ولاتلبث أن تطرح سندات القرض ، وسأعطى القليل الذى املكه من الذهب ، وسأضيف عليه المداليات العلمية التى لا فائدة لى منها . وهناك شىء آخر ، فانى ، كسلا منى ، قد تركت فى ستوكهلم قيمة جائزة نوبل « للمرة الثانية » ــ وهى أعظم مانملك ــ كورونات سويدية . فأريد ان اجىء بها وأوظفها فى سندات الحرب ، فالدولة بحاجة الى ذلك ولكننى لا ابنى على ذلك قصورا من الاوهام ، فان ضياع

هذا المال محتمل ، ان لم يكن مؤكدا . ولذلك لا أريد أن أرتكب مثل هذه « الحماقة » بغير موافقتك ...

وتحولت الكورونات السويدية الى فرنكات فرنسية ، وتحولت الفرنكات الى « اشتراكات وطنية » ، و « تبرعات اختيارية » ، و « مساهمات دفاعية » ! .. و .. وظلت تتبخر شيئا فشيئا ، كما توقعت ماري .. وسلمت مدام كوري ماتملكه من قطع الذهب الى بنك فرنسا ، فتقبلها الموظف ، ولكنه رفض ، بإباء واستنكار ، أن يرسل المداليات العلمية لتصهر فى سبائك !..

وكانت مهمتها الجديدة تجعلها على اتصال بمختلف الناس ، فكان بعض الجراحين الذين يعرفون مزايا أشعة x ، يعاملونها كزميل كبير لهم ، والبعض الآخر من المبتدئين يتشككون الى أن يعلموا ..

وكانت النساء الانيقات ، المنتسبات الى « الطبقة الراقية » ، واللواتى يطلق عليهن : « ملائكة المستشفيات الحارسات » .. ينظرن بعين الازدراء الى هذه المخلوقة المتواضعة فى لبسها ، والتى تهمل ذكر اسمها ، فيعاملنها أحيانا كتابعة لهن !.. وكانت ماري تتسلى بهذا الاحتقار! .. ولكنها ، عندما كان يضايقها أحيانا غرور هؤلاء النسوة كانت تنقى روحها ، وتسرى عن نفسها ، بتذكرها ممرضة وجنديا يعملان فى هدوء معها بمستشفى « هوجستاد »، ويدعيان : اليزابيث والبير : هما ملكا البلجيك ! ..

وكانت مدام كورى أحن ماتكون على الجرحى . ترى رعب الفلاحين والعمال وجزعهم من أجهزة أشعة رونتجن، وتساؤلهم : هل الكشف بها سيوجعهم !؟.. فتطمئنهم : « سوف ترون ، انه كالتصوير الفوتوغرافى » . وكانت تبدى رقة وصبرا مدهشين . وكانت تبدى للحياة البشرية ، احتراما مقدسا لا حد له . وستظل ذكرى الوف الاجساد

التى رأتها ممزقة ، وذكرى الزفرات والعبرات والانين ، تلقى ظلا كئيبا على حياتها زمنا مديدا ..

وقد فاجأتها طلقات مدافع الهدنة وهى فى معملها ، بمعهد الراديوم ، فخفت هى ومساعدتها مارت كلاين Marthe Klein ، تبحثان فى متاجر الحى عن رايات فرنسية ، فلم تجدا لها أثرا ، فألصقوا على زجاج النوافذ ورقا من ثلاثة الوان . وكانت مارى ترتجف متوترة الاعصاب من الفرح ، ولا تكاد تستقر فى مكان . وتخرج مع الآنسة كلاين فى « سيارة الاشعة » القديمة ، التى حطمتها أربع سنوات ، فى مجاهدة ومغامرة ، وتسيران بها على غير هدى ، فى الشوارع . ولما وصلتا ميدان الكونكورد ، حالت الجماهير دون تقدم السيارة ، وتعلق بعضهم بجانبيها ، واستقر آخرون على سطحها !..

***

كان هذا النصر لمارى : بمنزلة انتصارين . فان بولونيا تنهض من اطلالها ، وبعد قرن ونصف قرن فى استعباد ، تسترد استقلالها . فهاهو ذا « حلمها القومى » قد تحقق! حلمها الذى كادت تضحى لأجله ، منذ سنوات ، بمواهبها واستعدادها ، بل كادت تضحى أيضا بحب بيير كورى !.

من مارى الى جوزيف سكلودوفسكى ـ ديسمبر ١٩٢٠:

هكذا ، نحن الذين ولدنا فى العبودية ، وكنا من المهد فى الاغلال ، قد رأينا بعث وطننا الذى كان حلمنا .. وما كنا لنؤمل أن نعيش ، نحن أنفسنا ، الى ان نشهد هذه اللحظة .. بل خيل الينا انها قد لا تتاح الا لاولادنا .. وها هى ذى !.. حقا ، ان بلادنا دفعت ثمنا غاليا فى هذا الهناء ، ولا يزال أمامها ماتدفعه .. ولكن ، أيمكن أن تقاس سحب الموقف الحاضر ، بالمرارة والقنوط اللذين كانا

سيخمدان أنفاسنا ، لو ان بولونيا ظلت ، بعد الحــرب ، مقيدة ، ونهبا مقسما ؟ .. اننى مثلك ، أومن بالمستقبل

***

وهذا الامل ، وهذه الاحلام ، تعزى مارى كورى عن مشاغلها الخاصة . فالحرب قد أخلت بعملها العلمى ، والحرب قد أبلت صحتها ، والحرب قد خربتها ، فالنقود التى سلمتها للبلاد قد ذابت كما يذوب الثلج تحت حرارة الشمس . وعندما تستعرض حالتها المادية تشعر بالقلق والانزعاج . فهى قد جاوزت الخمسين ، وتكاد تكون فقيرة ولكى تعيش ، وتعول ابنتيها ، لم يعد لها غير مرتبها كأستاذ : اثنى عشر ألف فرنك فى السنة . فهل تمكنها قواها من متابعة التدريس ، وتكفل لها ادارة معملها خلال السنين التى مازالت تفرقها عن سن التقاعد والمعاش ؟.

***

وكافأت الدولة كثيرات من النساء بالاوسمة والنياشين ... أما هى ، فبالرغم من خدماتها خلال الحرب : تلك الخدمات التى لا نظير لها فى تاريخ الدفاع الوطنى ، فلم يفكر احد فى أن يعلق صليبا صغيرا من صلبان الجنــود ، على ثوبها !..

السلام

استرد العالم هدوءه . وكانت ماري ، وهي المرأة المثالية مفتونة طبعا بمبادىء ويلسون ، مؤمنة بعصبة الامم . وكانت تحلم بمعاهدة تمحو الفوائل والاحقاد حقا . وكانت تقول أحيانا : « اما أن يباد الالمان حتى آخر رجل فيهم ، وهو مالا أدعو اليه ، واما أن يعطوا صلحا يستطيعون احتماله ... »

وهي ، مع قيامها بدور عظيم في الكفاح الجلل ، لم تصبح داعية حرب وكرب وتعصب . انها العالمة ، التقية ، النقية ، الطاهرة العلم .. لذلك لا نلبث أن نعود فنجدها ، في ۱۹۱۹ ، على راس معهدها ومعملها .

ومكنتها الحياة المطمئنة المنظمة من الاهتمام بمستقبل ايرين وايف : اللتين أصبحتا فتاتين قويتين ، وأصبحتا في مثل طولها . أما الكبرى ، وهي طالبة ، في الحادية والعشرين هادئة ، متزنة اتزانا رائعا ، فلم تتردد أبدا ، لحظة واحدة في الحكم على استعدادها . تريد أن تكون عالمة بالطبيعة ، وتريد ، على وجه الدقة والتحديد ، أن تدرس الراديوم فسارت ايرين كوري ، ببساطة وسجية جديرتين بالاعجاب في الطريق الذي سلكه قبلها أبواها : بيير وماري كوري ، لا تتساءل عما اذا كانت مهمتها ستكون مثل مهمة أمها

روحة، أو دونها.. ولا تشعر بأنها مضطهدة، مثقلة بحمل اسم عظيم ...

فحبها الخالص للعلم ، ومواهبها ، كلاهما يوحى اليها مطمعا واحدا : أن تعمل ، مدى الحياة ، فى هذا المعمل الذى راته يبنى حجرا حجرا ، والذى ستصبح فيه ، فى سنة ١٩١٨ ، ذات صفة رسمية : «prépateur délégué»

واحترمت مارى فى كريمتها الثانية « ايف » قلقها وتقلبها . فهى من الحكمة والتجربة بحيث لا تفرض على بنتيها سلطتها ، أو توجههما على رغمهما وجهتها ، واثقة من انهما ستشقان طريقهما فى مفاوز الحياة ، دون تدخلها. وكانت تتمنى أن لو أصبحت ايف طبيبة تدرس تطبيق العلاج بالراديوم . ومع ذلك لم تفرض عليها هذا الاتجاه . وأيدت ، بتعاون وثيق ، كل مشروعات بنتها ونزواتها . وسرها أن رأتها تدرس الموسيقى ، وتركت لها اختيار اساتذتها ، وطرق عملها .. وتغدق مارى الحرية على مخلوقة تعذبها الشكوك ، وتتنازعها الحيرة ، مخلوقة كانت فى حاجة الى أن تطيع توجيها حازما . وكيف تتبين هذه الام غلطتها ، وهى التى دفعتها عبقرية فطرية لا تخيب نحو مصيرها ، رغم العقبات الهائلة التى اعترضت طريقها ؟

ان حنانها سيسهر حتى النهاية على ابنتيها اللتين وضعتهما للدنيا ، أشد ماتكونان اختلافا ، دون أن تبدى أبدا تفضيلا لاحداهما على الاخرى . ستجد ايرين وايف فيها ، فى كل ظروف حياتهما ، أما تحمى ، وترعى ، وحليفة متحمسة كريمة . وعندما يجىء دور ايرين ، فيما بعد ، ويصبح لها أولاد ، ستحيط مارى هاتين الذريتين بعنايتها ورعايتها ، ومحبتها .

من مارى الى ايرين ، وفردريك جوليو كورى[1] ١٩٢٨

أبعث اليكما بأطيب تمنياتى لسنة جديدة سعيدة ، أى سنة طيبة فى الصحة ، طيبة فى الروح المعنوية ، طيبة فى العمل والدأب . سنة تجدان لذة العيش خلال كل يوم منها ، دون أن تنتظرا الايام حتى تمر وتمضى لتجدا أنها كانت لذيذة ، ودون أن تدعا كل امـــل الى لذات الايام القادمة . وكلما تقدمت بالانسان السن زاد شعوره بأن معرفة التمتع بالحاضر هى هبة قيمة ، ونعمة صافية ..

انى أفكر فى صغيرتك « هيلين » ، وأكون التمنيـات لهنائها . ما أشد ما تؤثر رؤية تطور هذه المخلوقة الصغيرة التى تتوقع كل شىء منك بثقة لاحد لها ، والتى تعتقـد بالتأكيد أنك تستطيعين الحيلولة بينها وبين كل الم ! وستعرف ، يوما ما ، أن سلطانك لا يمتد الى هذا الحد ، وان كان هذا مايتمناه المرء لاولاده . غير انه ، مدين على الاقل ببذل كل جهد ليمنحهم صحة جيدة ، وطفـــولة هادئة وادعة ، ليحظى طويلا بثقتهم ما استطاع . .

من مارى الى ابنتيها ، فى ٣ سبتمبر ١٩١٩ :

... كثيرا ما أفكر فى سنة العمل التى تفتـــح ابوابها أمامنا . وكذلك أفكر فى كل واحدة منكما . الحق أنكما لى بمثابة غنى طائل ، وأرجو أن تحتفظ لى الحياة ببضع سنين طيبة نعيشها معا .

---

(١) فردريك جوليو هو زوج « ايرين كورى » . وقد اضاف اسم كورى الى اسمه ، تخليدا الملك الاسم المشرق العظيم فى تاريخ الطبيعة الحديثة . لان بيير كما رأينا لم يعقب ولدا ذكرا . وقد قام فردريك وزوجته ببحوث باهرة فى النشاط الاشعاعى الصناعى العجيب الذى يقذفه الراديوم ، كشـــفا عنها لاول مرة فى يناير ١٩٣٤ ، فبهر بها العلماء ، وعدوها فتحا جديدا فى فيافى العلوم ، ونالا عليها جائزة نوبل فى ١٩٣٥

أمريكا

في صباح يوم من أيام شهر مايو ١٩٢٠ أدخلت سيدة الى قاعة الانتظار بمعهد الراديوم ، وكانت تدعى مسز وليام براون ميلونى Mrs. W.B. Meloney ، وكانت تتولى تحرير مجلة كبيرة فى نيويورك . وسألت السيدة الخادم التى فتحت لها الباب ، برجفة ، مشفقة من أن تكون مدام كورى قد نسيت الموعد الذى حددته لها !..

هى تنتظر هذا الموعد منذ سنوات ، لان حياة مدام كورى وعملها كانا يبهرانها . ولما كانت هذه المرأة المثالية الامريكية هى فى الوقت نفسه ، صحفية كبيرة ، فقد بذلت جهودا مضنية للتقرب من معبودتها . واوصلت اليها على يد عالم طبيعى من أصدقائها رسالة قالت لها فيها : انها تتمنى ، منذ عشرين عاما ، أن لو حدثتها بضع دقائق !..

وفى اليوم التالى ، استقبلتها مارى فى معملها ، فكتبت مسز ميلونى هذا الوصف :

« .. فتح الباب ، ورأيتها داخلة : امرأة شاحبة حيية ، ذات وجه حزين ، مارأيت فى حياتى وجها أشد منه حزنا .. وكان عليها ثوب قطنى أسود !.. وكان محياها الساحر الصبور ، الحنون ، يعبر عن ذلك الذهول والشرود الذى خص به البحاث . فشعرت فجأة ، بأننى متطفلة على جوها واغلة فى وقتها !..

وزاد خجلى على خجل مدام كورى . فمنذ اكثر من عشرين عاما وانا صحفية محترفة ، صناعتى السؤال ، لكننى مع ذلك لم اجد سؤالا اوجهه الى هذه المراة العزلاء، المرتدية ثوبا من قطن اسود !.. فحاولت أن ابين لها ان الامريكيات مهتمات بعملها العظيم ، وحاولت أن اعتذر لها عن تطفلى على وقتها الثمين . ولكى تسرى عنى مدام كورى بدات الكلام عن امريكا . فقالت :

ــ ان امريكا تملك نحو خمسين جراما من الراديوم . اربعة فى بلتيمور ، وستة فى دنفر ، وسبعة فى نيويورك ..

ومضت تعدد ، مسمية مكان كل ذرة . فسألتها :

ــ وفى فرنسا ؟...

ــ معملى يملك اكثر قليلا من جرام واحد !

ــ اليس عندك الا جرام من الراديوم ؟!

ــ انا ؟.. انا ليس عندى شىء مطلقا !.. فهذا الجرام ملك معملى .

فاشرت الى حقوق الاكتشاف ، والفوائد التى كانت تجنيها مدام كورى من ورائها فتجعل منها اغنى النساء ، فقالت بهدوء :

ــ لا يجوز أن يغنى الراديوم احدا . هو عنصر ، فهو ملك لكل الناس .

فاندفعت فى سؤالها :

ــ واذا كان لك أن تختارى من هذا العالم بأسره شيئا ، فما يكون هذا الشىء ؟

وكان سؤالا غبيا .. ولكنه كان سؤالا مقدورا ...

ففى هذا الأسبوع عرفت أن سعر الجرام من الراديوم فى السوق التجارية ...ر...١ مائة ألف دولار، كما عرفت أن معمل مدام كورى ، ولو أنه بناء جديد ، لا يملك وسائل العمل الكافية ، وان الراديوم الموجود به

موقوف على علاج المرضى ... »

فحدث ، ولا حرج ، عن دهشة هذه الامريكية المثقفة . فهى قد زارت معامل الولايات المتحدة الفخمة ، مثل معامل اديسون التى تشبه قصرا فخما ، وليس معهد الراديوم هذا بجانبها ، وان كان جديدا ، الا بناء متواضعا ، بائسا ، على نسق الابنية الجامعية الفرنسية. وكانت مسز ميلونى تعرف ايضا مصانع بتسبرج التى يحضرون فيها املاح الراديوم ، بكميات هائلة ، يتصاعد دخان اسود من مداخنها الى اعلى الجو ، وتجرى بينها صفوف طويله من العربات الحديديه المحمله بالمواد الخام ، التى يستخرج منها العنصر الثمين .

وها هى ذى الآن فى باريس ، فى مكتب تافه الأثاث ، وجها لوجه مع المرأة التى اكتشفت الراديوم ! .. فسألتها :

ـ ماذا تتمنين ؟

وتجيبها مدام كورى فى رقة :

ـ انى فى حاجة الى جرام من الراديوم حتى اتابع بحوثى، ولكنى لا استطيع شراءه . فالراديوم غال جدا على ! ..

فوضعت مسز ميلونى تصميم مشروع مدهش : تريد أن يقدم بنات وطنها جرام الراديوم الى مدام كوري . فما عادت الى نيويورك حتى ألفت لجنة من أعضائها فطاحل العالم الجديد ، ووجهت نداء الحملة الوطنية الخاصة باعتماد راديوم مارى كورى Marie Curie Radium Fund . وقبل مضى عام على زيارتها « للمرأة ذات الثوب القطنى الأسود » ، كتبت الى مدام كورى : « وجد المال ! .. الراديوم بين يديك ! »

قدمت نساء أمريكا هذا العون الكريم ، وفى مقابله ،

سألتها بلطف : « لماذا لا تحضرين لرؤيتنا ؟ .. اننا نريد التعرف بك » .

فترددت مارى ، انها دائما تتجنب الزحام . وهى خائفة . فكيف تتهجم على زيارة أمريكا هذه ، اولى بلاد العالم ظمأ الى الاعلان ؟! ..

وحاولت مسز ميلونى ان تزيل اعتراضاتها واحدا بعد واحد :

ـ تقولين انك لا تريدين الافتراق عن ابنتيك ؟ .. اننا ندعو معك كريمتيك . وستكون برامج الاستقبالات معقولة ، محدودة . فتعالى ! .. لتقومى برحلة جميلة ، ويقـدم اليك رئيس الولايات المتحـدة شـخصيا جرام الراديوم فى البيت الأبيض .

تأثرت مدام كورى ، وتغلبت على مخاوفها ، وقبلت ، وهى فى الرابعة والخمسين من عمرها ، ولأول مرة فى حياتها ، التزامات رحلة طويلة رسمية .

وكانت فتاتاها أشد ما تكونان افتتانا بهذه المغامرة ، فأعدتا العدة لها . واضطرت ايف أمها الى شراء ثوب أو ثوبين ، وأقنعتها بأن تترك فى باريس ثيابها الخلقة المحبوبة البالية ! .. وخجلت فرنسا من التكريم الكبير الذى ينتظر العالمة الفذة فى الجانب الآخر من المحيط ، فمنحتها وسام اللجيون دونور ، فرفضته مارى كورى للمرة الثانية ! .. وطلبت بعد ذلك منحه لمسز ميلونى .

وظلت معتزلة فى « شـقتها » الفخمة ، افخم شـقة بالباخرة « أوليمبيك » . تقلقها ، ولا تمرضها ، تلك الأغوار العميقة من أوقيانوس خضم ، وتؤنسها مسز ميلونى الدمثة ، المتفانية ، الرقيقة الحاشية .

نيويورك ! .. رشيقة ، جريئة ، فاتنة ، ظهرت فى

ضباب جو جميل .. وجاءت مسز ميلونى تنذر مارى بأن الصحفيين ، والمصورين الفوتوغرافيين ، ومصورى السينما ، فى انتظارها . وكان جمهور لا نهاية له ، مكدسا على رصيف الميناء ، يترقب وصول العالمة . وكان المتطلعون يذرعون الأرض روحة وجيئة منذ خمس ساعات ، قبل أن يلمحوا تلك التى نوهت الصحف بمقدمها ، وأشادت ، بأضخم حروف فى صدرها ، بالضيفة القادمة ، مطلقة عليها « المنعمة على الجنس الانسانى » . وكانت هناك فرق مجندة من المرشدات والتلميذات ، ووفد من ثلاثمائة امرأة يلوحن بالورود الحمراء والبيضاء ، يمثلن الجاليات البولونية فى الولايات المتحدة . وكانت الألوان البهيجة للرايات الأمريكية ، والفرنسية ، والبولونية ، تخفق فوق الوف الأكتاف المتزاحمة ، والأعناق المشرئبة ، والوجوه المتطلعة ..

وأجلسوا مارى على سطح الباخرة « أوليمبيك » الأعلى ، فى مقعد كبير ، ورفعوا عنها قبعتها ، واخذوا منها حقيبة يدها . وضج المصورون بأوامرهم ونواهيهم: « أنظرى هنا ، مدام كورى ! .. اديرى رأسك الى اليمين ! . ارفعى رأسك ! .. انظرى هنا ! .. من هنا ! .. الى هنا ! .. » ، بأصوات تغطى على الدوى المتواصل لأربعين آلة فوتوغرافية وسينمية ، مصفوفة فى نصف دائرة ، مسددة تهدد وجهها المندهش العليل..

لقد كانت مجهودات مدام كورى القاطعة فى سبيل الاعتكاف فى الظل ، قد وفقت جزئيا فى فرنسا . اذ نجحت فى اقناع مواطنيها واهليها ، بأن العالم الكبير ليس معناه : أن يكون شخصية بارزة .. ولكن ما ان وصلت الى نيويورك حتى سقط القناع ، وظهرت

الحقيقة . فاكتشفت أيرين وايف بفتة ما تمثله للكون تلك المرأة المنزوية التى عاشتا دائما فى ظلها ..

ان الشعوب اللاتينية تعزو الى الأمريكان العبقرية العملية ، وتحتفظ لنفسها ، فى غرور فريد ، باحتكار المثل الأعلى والحساسية . وها نحن أولاء قد رأينا كيف تكون المثالية العليا فى أمريكا عند قدوم مارى ، فانهم لم يقدسوا فيها عبقريتها واكتشافها وحدهما ، وانما قدسوا أيضا احتقارها الكسب المادى ، وتفانيها فى الحياة الذهنية ، وتذوقها الخدمة العامة .

وأغرقت شقة مسز ميلونى بالزهور التى جاء بها صاحب بستان كان قد شفاه الراديوم من سرطان ، فظل يربى بشغف ، منذ شهرين ، ورودا نادرة الوجود، لا مثيل لجمالها ، ليقدمها الى مارى ! ..

وعقد مجلس حربى قرر برنامج الرحلة . فكل المدن ، وكل الجامعات الأمريكية ، تدعو مدام كورى ، وقد انهالت عليها المداليات ، والألقاب الشرفية ، والدكتوراه الفخرية بالعشرات ..

•

وكانت مسز ميلونى تزعم أن مدام كورى قد أحضرت معها ثوبها الجامعى ، ولم تعرف أن مدام كورى ، وهى الأستاذ الوحيد من جنسها النسوى ، قد تركت للرجال فرحة هذه الزينة ! ..

استدعوا خياطا على عجل ليفصل ثوبا جامعيا فخما فضفاضا من الحرير والقطيفة ، ومارى نافذة الصبر تضيق بأكمامه الواسعة ، وتضجر من ثقله ، وتشكو من لمس الحرير الذى يضايق أصابعها المسكينة التى براها الراديوم وأتلفها ..

صبايا فى ثياب بيضاء على طول الطرق المشمسة ،

آلاف الصبايا يجرين على العشب الاخضر للقاء سيارة مدام كورى ·· فتيات يلوحن بالرايات والازهار ، يهتفن بالحياة ، ويرتلن الأناشيد .. تلك هى الرؤية الفاتنة التى كانت للأيام الأولى ، المخصصة للكليات النسوية : سميث ، فاسار ، براين مور ، مونت هوليوك ..ويالها من فكرة طيبة كريمة ، لايناس مارى كورى ، بمزجها أول وصولها بهذه الشبيبة المتحمسة ، بهؤلاء التلميذات ، مثلها ! ..

ومرت مندوبات هذه الكليات نفسها ، بعد أسبوع من ذلك ، فى قاعة كارنيجى بنيويورك ، بمناسبة المظاهرة الهائلة التى أقامتها جمعية النساء الجامعيات . فانحنين أمام مارى وقدمن اليها تارة زنبقة فرنسا وتارة وردة « أمريكان بيوتى » .. فى حضرة النخبة المختارة من الأساتذة الأمريكان ، وسفيرى فرنسا وبولونيا ، و « اينياس بادرفسكى » الموسيقار العالمى ، الذى جاء يصفق لرفيقة الايام الخالية ، وهى التى كانت تستمع اليه على البيانو فى شقة برونيا بشارع المانيا ، فى حى المذبح ... وذهبت مرة فعمرت صالته الخالية مع المعمرين (1) ! ... وتقبلت مدام كورى القابا ، وجوائز ، ومداليات ، وتقبلت اكراما فائقا ، هو : « حرية مدينة نيويورك » .

وفى حفلات الغداة وبعد الغداة ، حيث اجتمع ثلاثة وسبعون وخمسمائة من ممثلى الجمعيات العلمية

---

(1) نشرت « الاهرام » الغراء فى ١٥ يناير ١٩٤٣ برقية لمراسلها الخاص بنيويورك تقول : « يعد المستر بادرفسكى فى طليعة عازفى البيانو فى هذا القرن ، واكتسب من عزفه أكثر مما اكتسب اى عازف آخر ، ونشرت مجلة « فاريتى » للمسرح والسينما والراديو : ان مجموع ما اكتسبه بادرفسكى (١٫٢٥٠٫٠٠٠) مليونا ومائتين وخمسين الف جنيه استرلينى ! .. »

الامريكية فى « ولدورف أستوريا » لتكريم مارى ، كانت هذه تترنح من التعب . وبين هذه الجمـاهير القـوية ، المتحمسة ، المتراصة ، الصاخبة ، وبين امرأة واهنـة غادرت حياة الدير منذ قليل ، كان العراك غير متكافىء.. لقد داخت مارى من الضجة والهتافات ، والنظرات التى لا عداد لها ، الموجهة اليها ، وداخت كذلك من العنف الذى كان يتدافع به الجمهور ، ويدفعها ، لكى يقطـع عليها الطريق ويشاهدها ! .. فكانت تخشى أن تهرس فى احدى هـذه الدوامات المروعـة . وما لبثت امرأة متهوسة أن سحقت يدها وهى تصافحها Shake hand بعنف شديد ، فاضطرت العالمة الى أن تقضى بقية رحلتها ويدها المهشمة مربوطة ، مشـدودة الى عنقها : جريحة المجد ! ..

***

وها هو ذا اليوم العظيم : « تحية العبقرية .. حفل مشهود فى البيت الأبيض يكرم امرأة مشهورة » — ٢٠ مايو ١٩٢١ ، فى واشنطون ، قدم الرئيس هاردنج الى مدام كـورى جرام الراديوم فى القـاعة الشرقية ، التى ازدحم فيها الدبلوماسيون ، وكبار الموظفين ، ورجال القضاء ، والجيش ، والبحرية ، وممثلو الجامعة .

الساعة الرابعة . فتح الباب على مصراعيه لدخول الموكب : مسز هاردنج على ذراع مسيو جوسران ، سفير فرنسا . ثم مدام كورى على ذراع الرئيس هاردنج . ثم مسز ميلونى وايرين وايف كورى ، وسيدات « لجنـة مارى كورى » .

وبدأت الخطب ، وكان آخرها خطاب رئيس الولايات المتحدة ، فيتوجه فى مودة الى « المخلوقة النبيلة ، الى الزوجة الوفية ، الى الأم الحنون ، التى أدت كل فروض

المرأة ، رغم عملها الساحق » . ويقدم الى مارى لفافة من البرشمان مربوطة بشريط مثلث الألوان ، ويعلق فى عنقها قلادة من الحرير المتموج ، يتدلى منها مفتاح من الذهب الخالص : مفتاح خزانة جرام الراديوم (١) ! ..

واصغوا فى خشوع لكلمات الاعتراف بالجميل التى نطقت بها مارى . ثم فى لجة من الفرح ، مر المدعوون فى الغرفة الزرقاء أمام العالمة ، وكانت جالسة على كرسى ، تبتسم ، فى صمت لأولئك الذين يتقدمون نحوها واحدا بعد واحد . وكانت كريمتاها تصافحان المدعوين نيابة عنها ..

وظهرت الصفحات الأولى من الصحف ، تعلن بحروف ضخمة : « مكتشفة الراديوم تتلقى من أصدقائها

(١) فى خريف سنة ١٩٢٠ ذهب الى ولاية كولورادو الامريكية جيش من العمال ، وقصدوا الى منطقة قاحلة فى جنوبها ، لينقبوا فيها عن تبر معين ، كانوا قد بحثوا فى مختلف الولايات الامريكية ، عن هذا التبر النفيس ، ولم يظفروا به ، لذلك اضطر زعيمهم الى الاكتفاء بنوع من الرمل ، يكثر فى صحارى كولورادو القاحلة ، يدعى « كارنوتيت » . فأخذ رجاله ، وكانوا اكثر من ثلاثمائة ، يشتغلون ليل نهار فى جمع أطنان منه ، ثم نقلوها فى صحارى لاتخترقها طرق ما ، مسافة ١٨ ميلا الى أقرب مكان فيه ماء ، حيث عنوا بتشييد معمل خاص لغسل هذا الرمل وتنقيته . هنا عولجت خمسمائة طن منه معالجة كيميائية حتى بقى منها مائة طن فقط . وما بقى سحق حتى صار مسحوقا دقيقا ، ثم وضع فى اكياس نقلت بسكة الحديد الى بلدة تدعى بلاسرفل . ثم شحنت الاكياس فى مركبات خاصة مسافة ٢٥٠٠ ميل الى بلدة تدعى كانونزبرج ، بولاية بنسلفانيا فى الشمال الشرقى المتوسط من الولايات المتحدة الامريكية . وفى كانونزبرج عهد الى مائتى رجل فى تحويل هذه الاطنان من المسحوق الناعم الى بضع مئات من الارطال فقط ، مستعملين مقادير كبيرة من الماء فى غسل المسحوق ، ثم معالجته بمواد كيميائية وأحماض ، لاستخراج كنز ثمين منه . لم يضيع الرجال ذرة واحدة منه ، على رغم تعدد عمليات الغلى والتصفية والتبلر . وانقضت اشهر ، فاذا الباقى من ٥٠٠ طن ، من رمل كولورادو ، هو مقدار يسير جدا ، أرسل الى معامل البحث فى شركة بنسبرج الكيمائية بحراسة حرس

الأمريكان كنزا لا يقدر بمال » . وما كان يكون أشد دهشة الصحفيين لو علموا بأن مارى كورى ، عندما قرات عشية الحفلة وثيقة الهبة ، رفضت بندا يقول بأن الهبة لها :

ـ لابد من تغيير هذا البند . فالراديوم الذى تقدمه لى امريكا انما يجب أن يكون دائما ملكا للعلم ، لا أستخدمه ماعشت الا فى الشئون العلمية ، وذلك لأنى اذا مت ، فان الراديوم بهذا البند الواجب تغييره ، ينتقل الى ابنتى .. وهـذا مستحيل . فانى اريد ان اهبـه الى معمـلى . فاستدعوا لنا محاميا ! .

فاستمهلتها مسز ميلونى ، وهى مبغـوتة شيئا ما ، لتأجيل هذه الشكليات للأسبوع القادم . فقالت مارى :

ـ لا الاسبوع القادم ، ولا غدا ، بل هذا المساء . فان

خاص . هنا فى المعامل الكيمائية أجريت العمليات الاخيرة فى استخراج بضع بلورات من ملح معين . فلما تم استخراجه ، كانت سنة كاملة قد انقضت على جمع الرمل من صحارى كولورادو ، وانفق عشرون الف جنيه ، فكانت تلك البلورات اثمن مادة معروفة على سـطح الارض ، أثمن من الذهب مائة الف ضعف !.. ثم وضعت هذه المادة فى انابيب صغيرة من الرصاص ، والانابيب حفظت فى صندوق فولاذى كثيف الجدران ، مبطن بألواح كثيفة من الرصاص ، ثم وضع الصندوق الفولاذى فى صندوق آخر من خشب المغنة المصقول ، وهذا حفظ فى خزانة متينة ، انتظارا لقدوم زائر كريم من فرنسا ... وفى ٢٠ مايو سنة ١٩٢١ وقف رئيس الولايات المتحدة الامريكية ، فى ردهة الاستقبال فى البيت الابيض ، يحف به سفير فرنسا ، ووزير بولونيا المفوض ، وأعضاء وزارته ، ورجال القضاء ، واكبر المشتغلين بالعلم . ووقفت أمامه سيدة نحيفة البنية ، وديعة المنظر ، مرتدية ثوبا أسود . ثم خاطبها الرئيس فقال : « كان من حظك أنك قمت بخدمة خالدة للانسانية . ولقد عهد الى أن أقدم لك هـذا القدر الضئيل من الراديوم . فنحن مدينون لك بمعرفتنا له ، وملكنا اياه . لذلك نرفعه اليك واثقين انه ، وهو فى حيازتك ، لابد من ان يكون وسيلة لتوسيع نطاق العلم ، ولتخفيف آلام الناس » ..

تلك السيدة كانت مدام كورى . « أساطين العلم الحديث »

وثيقة الهبة ستصبح نافذة ، وقد اموت فى بضع ساعات ! ..

فبحثوا حتى وجدوا بصعوبة ، فى تلك الساعة المتأخرة ، احد رجال القانون . ووضعوا البند الاضافى الذى أرادته مارى . فوقعته فى الحال !

وتوالت ضروب الآلاء والتكريم والألقاب الجامعية الفخرية ، وتبودلت الهدايا العلمية .. غير أن الصحفيين الأمريكان ، لم يلبثوا أن اتهموا بلادهم بأنها ضربت على امراة مسنة رقيقة ضريبة من التجارب والمتاعب ، فوق ما تحتمله قواها . فأعلنت جريدة بحروف هائلة: اسراف فى الضيافة : « ان النساء الأمريكيات قد دللن على فطنة فائقة بمساعدتهن للعالمة ، ولكن قد يوجه الينا النقد المر لأننا قد جعلنا مدام كورى تدفع ثمن هديتنا من ذات لحمها وعظمها لمجرد ارضاء كبريائنا » . وفى صحيفة اخرى ترى هذا الرأى الجرىء : « ان اى مدير «سيرك» أو « موزيك هول » ، كان يقدم لمدام كورى مبلغا أكبر بكثير من ثمن جرام الراديوم ، فى نظير نصف هذا الجهد » ! .. أو : « لقد قتلنا ، أو كدنا نقتل يوما ما ، المارشال جوفر من فرط حماستنا .. فهل ترانا سنقتل مدام كورى ؟! »

فألغيت الحفلات كلها ، اللهم الا التى لا غنى عنها مطلقا لأهميتها ، وكانت مع ذلك كفيلة بأن تضنى أشد الرياضيين قوة وجبروتا ! .. وفى ٢٨ مايو ، بنيويورك ، اصبحت مدام كورى دكتورا فخريا لجامعة كولومبيا الشهيرة . وفى شيكاغو أعلنت عضويتها الشرفية بالجامعة ، وتلقت القابا فخرية عديدة فى ثلاثة استقبالات: الأول وضع فيه ، حولها وحول كريمتيها ، حبل يفرق بينهن وبين الجماهير التى تمر فى صفوف أمامهن .

والثانى رتلت فيه الأناشيد الوطنية : الفرنسى ، ثم الأمريكى ، ثم البولونى .. واختفت مارى تقريبا وراء تلال الزهور التى راكمها المعجبون بها عند قدميها .. وكان آخر استقبال يفوق فى حرارته كل ما سبقه : فقد جرى فى الحى البولونى بشيكاغو لجمهور بولونى كله . ولم تكن العالمة هى التى يهتف لها أولئك المهاجرون ، وانما كان رمز الوطن البعيد .. رجال ونساء يذرفون الدموع ، يحاولون تقبيل يدى مارى ، أو لمس طرف ثوبها

وفى ١٧ يونيه ، اعترفت مدام كورى للمرة الثانية بقلبها ، فقطعت شوط مجدها . فان ضغط دمها قد هبط هبوطا مروعا ، مما أقلق الأطباء . فاستراحت حتى استردت قواها ، وذهبت الى بوسطون ، ونيوهافن ، وجامعات ولسلى ، وييل ، وهارفارد ، وسيمونز ، ورادكليف . وفى ٢٨ يونيه أبحرت على « الأوليمبيك » حيث وجدت غرفتها غاصة بالبرقيات ، مختنقة بسلال الزهر

وحل محل اسمها ، فى صدر الصحف ، اسم « نجم » آخر جاء من فرنسا . فالملاكم جورج كاربنتييه Carpentier ، الذى سبقته شهرة مستفيضة ، قد وصل الى الولايات المتحدة . وما أشد خيبة أمل الصحفيين الذين لم يستطيعوا ان ينالوا من مدام كورى أقل نبوءة عمن تتوقع له الغلبة فى ملاكمته مع دمبسى !..

مارى متعبة جدا ، ومسرورة جدا ، فى وقت معا . فها هو ذا الراديوم يغادر امريكا معها على الباخرة ، وراء خزانات ضخمة من الفولاذ تجعله فى مأمن الى الشاطىء .. وهذا الجرام يحمل على التأمل فى مهمة مارى كورى. فقد اضطرت للحصول على هذا القدر الضئيل ، الى ان تعبر المحيطات ، وان تتسول فى طول قارة وعرضها ... كيف لا يمر بفكر الانسان أنها لو كانت قد وضعت توقيعا

بسيطا فيما مضى ، على شهادة تسجيل الاكتشاف ، لتبدل الحال ؟ .. كيف لا يخطر بالذهن أن مارى كورى (الفنية) كان يمكنهـا أن تهب بلادها المعامل ، والمستشفيات ؟! أو لم تكن عشرون سنة كفاح ، ومتاعب ومشقات ، خليقة بأن تحمل مارى على الأسف بله الندم ؟! أو لم تكن كافية لاقناعها بأنها ، اذ احتقرت الثراء يوما ما ، قد ضحت بنفسها وبتقدم عملها وازدهار علمها ، من اجل هواجس واوهام ، واضغاث احلام ؟!

فى المذكرات القصيرة التى كتبتها مدام كورى لدى عودتها من امريكا عرضت لهذه الاسئلة، ودونت عليها الجواب:

« .. ان عددا كبيرا من اصدقائى يؤكدون ، بأسباب وجيهة ، أنه : لو اننى ، انا وبيير كورى ، قد ضمنا حقوقنا ،لأمكننا الحصول على الوسائل المالية اللازمة لتشييد معهد للراديوم ، دون أن نتعثر فى العقبات التى عطلتنا نحن الاثنين ، والتى لا تزال تعطلنى وتعرقلنى . بيد اننى لا ازال مقتنعة بأننا كنا على حق . فالانسانية ، يقينا ، فى حاجة الى رجال عمليين ، يبتزون من عملهم اقصى مافى وسعهم ، وهم ، دون أن ينسوا المصلحة العامة ، يصونون مصالحهم الشخصية . ولكن الانسانية ايضا فى حاجة الى ذوى الخيالات والأحلام ، الذين يعدون تقدم عمل لهم تقدما خاليا من المصلحة ، له من القوة الجاذبة ما لا يستطيعون له دفعا ، فيستحيل عليهم أن يقفوا عنايتهم على فائدتهم المادية الذاتية » .

وما من شك مطلقا ، فى أن أهم الحلم والخيال هؤلاء لا يستحقون الثراء ، لأنهم لا يرغبون فيه . ولكن ينبغى ، على أى حال ، للمجتمع المنظم تنظيما طيبا ، أن يكفل لهؤلاء العاملين الوسائل الناجمة لاتمام مهمتهم ، فى حياة خالصة من المشغوليات المادية ، موقوفة على الدرس ...

ازدهار

تعلمت « التلميذة الخالدة » من رحلة أمريكا أشياء غابت عنها ، ولم تكن تعلمها . فقد اظهرتها على أن العزلة المختارة التى قيدت نفسها بها لم تكن أمرا مألوفا . ان طالبة تستطيع أن تحبس نفسها مع كتبها فى غرفة سطح ... وان باحثا خاملا يستطيع أن يقطع مابينه وبين عصره ، ويعكف بكليته على أعماله الشخصية .. بل قد يكون هذا واجبا عليه . أما مدام كورى ، فى سن الخامسة والخمسين ، فهى شىء آخر : غير طالبة ، وغير باحثة . ان مارى كانت مسئولة عن علم جديد ، وعن علاج جديد . وسلطان اسمها كان من العظمة بحيث انها باشارة بسيطة ، او بمجرد حضورها ، تكفل نجاح مشروع يهم الصالح العام ويكون عزيزا عليها . وسنراها، من الآن فصاعدا ، تحتفظ بمكان فى حياتها لهذهالمبادلات، وهذه المهام والبعثات .

وليس هنا مجال الافاضة فى وصف رحلاتها . فهى تتشابه : من مؤتمرات علمية ، الى محاضرات ، الى حفلات جامعية ، الى زيارات للمعامل ، كلها تدعو مدام كورى الى عدد كبير من عواصم البلدان حيث يحتفى بها ويحتفل . وستحاول أن تخدم وتنفع ، وذلك ، غالبا ، وهى تناضل ضعف صحتها وخورها .

وعندما أتمت فروضها الرسمية ، كانت خير مكافاة

لها أن تكتشف الأصقاع الجديدة ، والمشاهد الخلوية ، وأن ترضى شغفها بالطبيعة . ان ثلاثين سنة فى جهاد مضن ، لم تؤثر عندها الا فى زيادة تعلقها بجمال الكون . وفى رحلتها الى ريو دى جانيرو ، عاصمة البرازيل ، مع كريمتها ايرين عبر الاوقيانوس ، تفرح كالاطفال برؤية السمك الطيار وسمت الشمس ، وبالكواكب تغيب وتبدو ، فتتساءل عن ماهية هذه النجوم الساطعة ، وأسمائها فى سمائها هذه ! ..

واستقبلتها ايطاليا وهولندا وانجلترا مرارا . وفى ١٩٣١ قامت مع ايف برحلة ساحرة لا تنسى خلال أسبانيا . ودعاها الرئيس مزاريك فى بيته الريفى بتشيكوسلوفاكيا . وترددت على مؤتمرات بلجيكا حيث حلت أهلا وسهلا ، وكانت تتعشى عند الملك البرت والملكة أليزابيث ، اللذين قابلا مارى فى ساحة بلجيكا الدامية ، وحملاها صداقة نادرة . ولم يعد ثمة فى الدنيا من يجهل اسمها . ألسنا نجد ، فى بلدة قديمة بربوع الصين . فى « معبد كونفوشيوس » بتاريوان ـ فو ، صورة مدام كورى ؟ لقد أحلها حكماء البلاد بين « المحسنين الى الانسانية » ، الى جنب ديكارت ، ونيوتن ، وبوذا ، وكبار اباطرة الصين ...

وفى ١٥ مايو ١٩٢٢ ، اجمع مجلس عصبة الأمم على انتخاب « مدام كورى سكلودوفسكى » عضوا فى اللجنة الدولية للتعاون الفكرى . فقبلت مدام كورى سكلودوفسكى ! .. لتصبح نائبة الرئيس فى هيئة تضم الشخصيات البارزة فى عالم الفكر : برجسون ، جلبرت مورى ، جول دستريه .. وغيرهم وغيرهم ..

Bergson, Gilbert Murray, Jules Destrée

كانت طول حياتها تلازمها فكرة : هذه المواهب الفكرية

التى تظل مجهولة ، عاطلة ، فى الطبقات المحرومة من المال . فقد يكون مختفيا وراء هذا الفلاح ، أو ذاك العامل : كاتب ، أو عالم ، أو مصور ، أو موسيقار .. فبذلت جهدها لزيادة الأموال الموقوفة على الدراسات العلمية الدولية . ففى أكواخ الفقراء كنوز نادرة خفية ، يعد من الاجرام نبذها واحتقارها وضياعها ...

وقامت برحلتين ، بثلاث رحلات ، بأربع رحلات ، الى بولونيا . وهى مذ صارت بلادها حرة ، يراودها أمل عظيم : هو تأسيس معهد للراديوم فى فارسوفيا ، يكون مركزا للبحوث العلمية ومعالجة السرطان . ولم يكن عنادها كافيالتذليل الصعاب . فان بولونيا الناقهة من استعباد طويل ، كانت فقيرة ، فقيرة فى المال ، وفى الفنيين . ولكن مارى نادت حليفتها القديمة وشقيقتها برونيا ، فانبرت هذه ، رغم تقدم سنها ، تطلب المال ، أو بالأحرى تدعو الى شراء الطوب : « اشتر طوبة لبناء معهد مارى سكلودوفسكى كورى ! .. » . هكذا راحت الدعوة فى الوف البطاقات « الكارت بوستال » ، وعليها نداء العالمة: « ان أحر أمانى تشييد معهد للراديوم فى فارسوفيا » .

واشترت بولونيا ، من أقصاها الى أقصاها ، الطوب والحجارة . وحرموا أفواههم لقمة العيش ، ليشيدوا رمزا عاليا لحب الأوطان. وعندما وقف رئيس الجمهورية يضع الطوبة الأولى ، وتضع مدام كورى الطوبة الثانية ، ورئيس بلدية فارسوفيا الطوبة الثالثة ، نوه رئيس الدولة باعجابه بأن مارى ما زالت حافظة لسانها القومى ، تجيد لغتها ، رغم النفى الطويل .. أو لم يكن هو نفسه فى باريس رفيقا لمدموازيل سكلودوفسكى ، فى الحى اللاتينى ؟! .. وفى هذا الحفل الحاشد ، يحاورها ويداعبها :

ــ أتذكرين الوسادة الصغيرة التى أعرتنى اياها منذ ثلاثة وثلاثين عاما ، عندما عدت الى بولونيا فى مهمة سياسية سرية ؟!.. لشد ما نفعتنى فى القطار وسادتك !
وتجيبه مارى ضاحكة :
ــ اذكر .. وأذكر ايضا أنك نسيت ردها الى ! ..

ومرت الأيام ، وأصبح الطوب جدرانا . ومع ذلك ماذا تصنع ماريا وبرونيا ، ولا يزال ينقص البناء ، رغم ما جمعتاه وما دفعتاه من مالهما ، مال طائل لشراء الراديوم الذى سيقوم عليه علاج المرضى ؟

ان مارى لا تثبط لها عزيمة . فهى تنفض الأفق بنظرها الثاقب ثم تتجه نحو الغرب .. نحو الولايات المتحدة . نحو مسز ميلونى ، هذه الأمريكية الكريمة التى تعرف معزة معهد فارسوفيا عند مارى .. فتقوم بمعجزة جديدة ، وتجمع المال اللازم لشراء جرام من الراديوم ، الجرام الثانى الذى تقدمه امريكا لمدام كورى ! . فيعود كل شىء على بدء ! .. وكما حدث فى ١٩٢١ ، تبحر مارى فى أكتوبر ١٩٢٩ الى نيويورك لتشكر الولايات المتحدة باسم بولونيا .. وكما حدث فى ١٩٢١ تستقبلها الأفراح والأمجاد ، رغم ما كانت فيه أمريكا من ضائقة اقتصادية ... وهى ، خلال هذه الرحلة ، تحل ضيفا على الرئيس هوفر فى البيت الأبيض ..

وفى ٢٩ مايو ١٩٣٢ يتوج العمل المشترك لمارى كورى وبرونيا داوسكى . فيفتتح رئيس الجمهورية البولونية معهد الراديوم .. وترى مارى بولونيا لآخر مرة .. تجوس خلال الشوارع القديمة فى مسقط رأسها ، وتزور نهر الفستول الزيارة المقدسة عندها كالحج ، تتأمله بحنين ، وتأسى على فراقه ، وتصف هذا الماء ، وهذه

الأرض ، وهذه الحجارة التى يتعلق بها كل كيانها ، فى رسائل الى ايف :

... خرجت هذا الصباح فى نزهة منفردة على شاطىء الفستول ... وكان النهر الثعبان يرفد باسترخاء فى فراشه الرملى الكبير .. وعلى الجانبين خضرة ، وفى السماء زرقة .. فتذكرت أغنيتنا التى تقول عن الفستول : « ان هذه المياه البولونية لها من السحر بحيث يظل الذين ينهلون منها عاشقين لها حتى فى اعماق القبور » ... وهو ما يبدو لى حقا وصدقا .. فان لهذا النهر جاذبيته العميقة لى ، من حيث أدرى ولا أدرى ..

الى اللقاء يا حبيبتى . قبلى عنى أختك ايرين . انى أقبلكما معا من كل قلبى ، الذى هو لكما ..

أمك ..

وفى فرنسا ...

فى ١٩٢٢ ، قدم خمسة وثلاثون عضوا فى أكاديمية الطب بباريس الى زملائهم الطلب الآتى :

الاعضاء الموقعون يرون أن الاكاديمية تتشرف بانتخابها مدام كورى عضوا حرا ، اعترافا بنصيبها فى اكتشاف الراديوم ، وفى علاج جديد فى الطب هو : الكوريترابى .

وكان هذا النص ثوريا . فالاكاديميون لا يرون أن ينتخبوا امرأة فحسب ، ولكن أن يخرجوا على العادة والعرف بانتخابها من تلقاء أنفسهم ، دون أن ترشح نفسها للعضوية . فوقع أربعة وستون عضوا من أعضاء هذا المجمع العظيم هذا المنشور ، وبذلك أعطوا درسا لزملائهم أعضاء أكاديمية العلوم . وتنازل جميع المرشحين عن المقعد الخالى اكراما لمدام كورى .

وفى ٧ فبراير ١٩٢٢ . كان الانتخاب لامعا . فوقف

المسيو شوفار ، رئيس الاكاديمية ، فخاطب مارى من أعلى المنصة بقوله :

« اننا نحيى فيك عالمة عظيمة ، وامرأة ذات قلب كريم ، لم تعش الا من أجل التفانى فى العمل ، وانكار الذات فى سبيل العلم . نحيى وطنية قامت دائما فى الحرب ، كما قامت فى السلم ، بأكثر من واجبها . وحضورك هنا يجلب لنا المعنويات الطيبة للامثال التى ضربتها للناس ، كمايحمل الينا مجد اسمك .. فنحن من أجل هذا نشكرك . ونحن نفخر بوجودك بيننا . فأنت أول امرأة فى فرنسا تدخل أكاديمية ، ولكن أية امرأة أخرى كانت خليقة بذلك مثلك ؟ ... »

وفى ١٩٢٣ قررت « مؤسسة كورى » التى قامت على هبات البارون هنرى دى روتشيلد فى ١٩٢٠ ، أن تحتفل احتفالا مشهودا بمضى خمس وعشرين سنة على اكتشاف الراديوم . وتشترك الحكومة فى هذا التكريم وتنال موافقة المجلسين التشريعيين : (النواب والشيوخ) بالاجماع على قانون بمنح مدام كورى معاشا سنويا قدره أربعون ألف فرنك « مكافأة وطنية » ، مع توريثه من بعدها لكريمتيها ايرين وايف كورى .

وبعد مضى خمس وعشرين سنة أيضا على يوم ٢٦ ديسمبر ١٨٩٨ ، الذى قدم فيه بيير كورى ومدام كورى و ج بيمون ، مذكرتهم التاريخية عن وجود « مادة جديدة ذات نشاط اشعاعى قوى فى البتشبلند » ، أقيمت مظاهرة كبرى فى قاعة الاحتفالات بالسوربون ، حيث احتشد جمهور لايحصى . وكانت الجامعات الفرنسية والاجنبية ، وجمعيات العلماء ، والسلطات المدنية والعسكرية ، والبرلمان والمدارس العليا ، وجمعيات الطلبة ، والصحافة : كلها ممثلة بوفود . وجلس على المنصة المسيو الكسندرميليران

رئيس الجمهورية ، والمسيو ليون بيرار وزير المعارف العمومية ، وبول آبل مدير أكاديمية باريس ورئيس « مؤسسة كورى » ، والبروفسور لورنتز الذى كان سيتكلم باسم العلماء الاجانب ، فى حين يتكلم البروفسور جان بيران باسم كلية العلوم ، والدكتور أنطوان بكلير باسم اكاديمية الطب . وشوهد بين هذه « الشخصيات » رجل وقور ، أبيض الشعر ، وامرأتان كبيرتان فى السن تكفكفان دموعهما : هيلا وبرونيا ومعهما ، جوزيف ، وكانوا قد جاءوا من فارسوفيا ليحضروا انتصار « مانيا » المبين . فالمجد الذى عقد اكليله على جبين صغرى أبناء سكلودوفسكى لم يزيف شيئا ، ولم يضيع من المحبة الاخوية شيئا . ولم يحدث أن التأثر والكبرياء قد جملا وجها الى الحد الرائع ، الذى تجلى على هذه الوجوه الثلاثة .

وقدم رئيس الجمهورية الى مارى كورى المعاش الوطنى : « كدليل ضعيف مخلص على مشاعر الاعجاب العالمى ، والتقدير ، والعرفان بالجميل ». ونوه وزير المعارف ، فى ظرف ، تعليقا على ذلك : « ان اقتراح هذا القانون واقراره ، وهو يحمل امضاءات ممثلى فرنسا جميعا من حكومة وبرلمان ، يعد بمثابة التصميم على تجاهل تواضع مدام كورى وعدم الاعتراف non avenus – كما يقال فى لغة القانون – بوجوب زهدها فى المادة » ! ..

وربما لم يكن هناك من بين جميع الخلائق التى احتفل بها وكرمت ، من أبدى مثلما أبدت « التلميذة الخالدة » من وجه مغلق موصد ، وهيئة ابتعاد وشرود .. وفى عاصفة الهتاف باسمها والتهليل لها ، لم يبد أحد اشد منها وحدة ووحشة ..

جزيرة سان لويس

كانت مارى تعود من أسفارها ، وقد حطمها التعب ، وامتلأت حقيبة يدها الضخمة ، المهداة اليها من جمعية النساء البولونيات ، بركام من الاوراق ، وعلب النظارات .. وتراها قد احتضنت ، فوق هذا الحمل الثقيل ، طاقة زهر تافهة ذابلة ، قدمها اليها بعض الناس فى الطريق ، تزحمها ولا تجسر أبدا على القائها والتخلص منها !..

فتصعد ، بدون مصعد ، الطبقات الثلاث العالية ، لبيتها بجزيرة سان لويس ، فى قلب باريس .

وكان ذلك المسكن العائلى ، على رصفة « بتون » ، غريبا : شقة كبيرة جدا ، قليلة أسباب الراحة ، كلها دهاليز وسلالم داخلية ، سلخت فيها مدام كورى ، مع ذلك ، من عمرها اثنين وعشرين عاما !.. وكانت غرفها الفسيحة فى بيت من طراز القرن السابع عشر ، تنتظر عبثا الكراسى ذات المساند ، والكنبات الفخمة ، التى تطابق أركانها الفسيحة وطرازها العريق .. فقد احتشد ، كيفما كان ، الاثاث المصنوع من خشب المغنة ، الموروث من الدكتور كورى الشيخ ، فى البهو الهائل الذى يتسع لخمسين شخصا ، وقلما يجتمع فيه أكثر من أربعة ، على أرض من خشب مصقولة بالشمع ، تنوء وتئن تحت الاقدام .. فلا بسط ، ولا ستائر . مارى لاتفلق المصاريع

الخارجية ، لانها تحب الزجاج المجرد الذى لايسلبها اى شعاع من الشمس !.. فهى تريد نهر السين ، ورصفاته ، ونوتردام : هذا المشهد الذى يخلب العقول ، تريده كاملا غير منقوص ...

عاشت طويلا فى فقر مدقع لا يمكنها من أن يكون لها مسكن جميل . أما الآن فلم تعد راغبة فيه ، ولم يعد لديها من الوقت ماتضيعه فى تغيير اطار عيشها الذى سيظل دائما متواضعا .

هذا المسكن ، الذى اختارته من بين جميع المساكن ، لهدوئه ، كان أشد المساكن ضجيجا : ايف تعزف على البيانو ، والتليفون العتيق يدق ، والقط يقفز فى دهاليز البيت كالفارس المغوار ، وجرس الشقة القوى يرن ، ويتجاوب صداه .. ثم الصفير المتوالى من السفن والزوارق البخارية الجارية فى السين ...

وتبدأ حركة الخادم قبل الساعة الثامنة صباحا ، وهى وخطوات مدام كورى الخفيفة المتعجلة ، توقظ البيت ... وقبيل التاسعة بربع الساعة تقف سيارة متواضعة امام البيت ، ويضرب السائق الكلاكسون ثلاث مرات ، فتهرول مارى الى قبعتها ومعطفها وتنزل السلم مسرعة . فالمعمل فى انتظارها !

وبفضل المعاش الحكومى الوطنى ، ودخل يعزى الى الكرم الامريكى الحاتمى ، اختفت المشاغل المادية . ولكن مدام كورى ما عرفت قط كيف تنتفع بمالها . فليست لديها خادمة مصقولة ، وهى لم تدع مرة واحدة سائق سيارتها ينتظر أكثر من بضع دقائق والا شعرت بأنها مذنبة . واذا دخلت بصحبة ايف ، الى متجر ، فهى لاتنظر الى الاسعار ، ومع ذلك لا تقع يداها العصبيتان الا على ابسط ثوب ، وارخص قبعة ، وما كان يعجبها سوى ذلك

ولم تكن تستبيح الانفاق الا على الاشجار والاحجار . تحب البيوت الريفية والساحلية . بنت بيتين : احدهما فى لاركويست Larcouest حيث كان أكثر صحبها من العلماء وأسرهم يقضون الصيف بصحبة عميد اساتذة التاريخ فى السوربون المرحوم شارل سينيبوس ، والثانى على شاطىء البحر الابيض المتوسط . فقد جاءت السن التى تتطلب شمس الجنوب الاشد حرارة ، ومياه البحر الأدفأ من مياه ساحل « بريتانى » . وكانت تحلم بهجر باريس وقضاء الشتاء فى ضاحية « صو » كما كانت تفعل فى الزمن الخالى ... فاشترت قطعة أرض ، وفكرت فى بناء بيت ، ومرت السنون دون أن تفعل . وكانت كل يوم ، فى ساعة الفداء ، ترى وهى عائدة على القدمين من المعمل ، تجتاز جسر « لاتورنل » ، بخطى مسرعة تقرب من خطى الشباب ، وتصعد ، وهى متقطعة الانفاس قليلا، الادوار الثلاثة لبيت جزيرة سان لويس القديم ...

وفى ذات صباح ، من ١٩٢٦ ، أعلنت ايرين ، الهادئة الطبع ، اهلها بخطبتها لفردريك جوليو ، خير العاملين فى معهد الراديوم واذكاهم والمعهم . فانقلب نظام البيت بدخول هذا الشاب الى بيت النساء الثلاث ، الذى لايدخله أكثر من اربعة أو خمسة من الاهل أو المقربين . ولم يحل سرور مارى بخطبة بنتها الكبرى دون تأثرها من انها لن تستطيع بعد أن تعيش ساعة بساعة مع رفيقتها فى العمل . ولكنها لا تلبث ان تتخذ منها ومن خطيبها معا مساعدين بدلا من واحد ، وتعتاد اشتراكهما معها فى مشاغلها ومباحثها وامانيها .

ـ أفلا تذهبين الى المعمل يامه ؟

فتلقى العينان الرماديتان على ايف نظرة تبرق حنانا :

ـ بلى ، ساذهب الساعة .. ولكنى قبل ذلك سامر

على اكاديمية الطب ... ولما كانت الجلسة لاتبدأ الا فى الثالثة ، فأظن ان لدى من الوقت مايسمح بالمرور على سوق الزهور .. وربما ذهبت لحظة الى حديقة اللكسمبورج .

وهي فى سوق الزهور لا تشترى زهرا ، ولكن نباتات لحديقة معهد الراديوم !.. فلعل تعودها الفاقة قد صار غريزة تصرفها عن الزهور الجميلة الغالية .. فاذا حملها اليها الاصدقاء كعادتهم تتأملها بدهشة وشيءمنالاستحياء!

وفى منتصف الثالثة تترك ماری السيارة الفوردعلىباب اللكسمبورج وتسرع الى موعدها ، « القريب من السبع الذى الى اليسار » ! .. ومن بين مئات الاطفال ،الذين يلعبون فى حديقة الحى اللاتينى ، تهب طفلة اذا مارات العالمة الكبيرة ، وتجرى نحوها بكل السرعة التى تمكنها منها ساقاها الضئيلتان : هى « هيلين جوليو كورى » بنت ايرين . فتتحدث الجدة بضع دقائق مع الطفلة المرتدية ثوبا أحمر صارخا ، وتسألها هذه : « الى اين انت ذاهبة ، يامه ؟... لماذا لاتبقين معى ، يامه ؟.. »

وتشير ساعة مجلس الشيوخ المشرفة على الحديقة الى ان الساعة الثالثة الا عشر دقائق .. فلابد لماری من مغادرة هيلين وفطائرها الرملية ...

ثم تقصد القاعة الكالحة لجلسات عمداء الطب فى فرنسا بشارع بونابرت . وتأخذ مكانها المعتاد الى جوار صديقها القديم الدكتور « رو » . وتأخذ نصيبها من أعمال اكاديمية الطب ، المرأة الوحيدة بين ستين زميلا موقرا ..

ــ آه لشد ما انا متعبة !..

لعلها كانت تهمس ، كل مساء تقريبا ، بهذه العبارة وهى منهوكة القوى .. ولم يفن شيئا قول ابنتها لها : « انك تعملين فوق الطاقة . لا يحق لامرأة فى الخامسة

والستين ، وليس فى مقدورها ، ان تعمل — كما تعملين — اثنتى عشرة ساعة أو اربع عشرة ساعة فى اليوم .. »
وكانت ايف واثقة من أن نصيحتها لا تجدى فى أمها نفعا ، فهى لا تستطيع أن تعمل دون ذلك ، والا عدت هذا التقاعد علامة مروعة على الانحلال .

ومنذ خرجت ايرين من البيت ، لتستقل بحياتها الزوجية ، كانت مدام كورى تتعشى كل مساء مع ابنتها ايف ، وحدهما . فتتحدث معها عن المعمل ، الذى هى ملك له روحا وجسدا ، ومن يقصده من شباب العلماء من كافة بقاع الارض .. تقول ، وقد انتهت من تناول الحساء :

— تصورى .. اننى ذهبت لالقى تلميذى الصينى «mon chinois» فى قاعة الطبيعة ، فتحدثنا بالانجليزية ، وبدا ان محادثتنا لاتنتهى .. ففى الصين تعد المعارضة أو المناقضة من قلة الادب . فكنت اذا فرضت فرضا دلت هذا الشاب تجاربه على عدم صحته ، يمضى فى موافقتى ومجاملتى .. وكان على انا ان احزر مايكون عنده من اعتراض !.. وانى ازاء تلاميذى ، من اهل الشرق الاقصى ، أحس بالعار من طباعى السيئة !.. فما أعظم حضارتهم بالقياس الى حضارتنا !.. « ثم تتناول بعض الفاكهة المطبوخة » .. ايفيت !.. لابد من أن ندعو ذات مساء تلميذى البولونى لانى أخشى أن يكون تائها فى باريس ...

ففى برج بابل ، الذى هو معهد الراديوم ، يتوالى العاملون من مختلف الجنسيات . وكان دائما بينهم بولونى على نفقتها الخاصة ، من حيث لايحتسب ، ولا يعلم ابدا ، زعما منه أنه « على حساب مؤسسة كورى » !..

ثم تكف فجاة عن الكلام ، وتنحنى نحو بنتها وتقـول بصوت آخر :

ـ والآن ياحبيبتى !.. قولى لى شيئا .. حدثينى عن انباء هذا العالم !..

فهى تعرف كيف تعالج السياسة دون مرارة. واذا اشاد بعض الفرنسيين امامها بالديكتاتورية ، ردت عليهم فى لطف : « اننى عشت فى عهد الاستبداد ، وأما أنتم فلا .. فلن تدركوا معنى هناء العيش فى بلاد الحرية .. » . وكان دعاة الثورة والعنف يلقون منها نفس المعارضة : « انكم لن تقنعونى أبدا بأنه كان من الخير قطع رقبـة لافوازييه (١) ... » .

ولم تكن مدام كورى تنصح النساء بأن يسلكن فى الحياة مسلكها : « ليس من الضرورى أن تعشن عيشة ضـد الطبيعة كعيشتى » .. تقول ذلك للمعجبات المتحمسات . « انى وهبت العلم جل وقتى ، وذلك كان لاستعدادى ، وميلى الى البحث ... وما أتمناه للنساء ، للفتيات ، هو حياة عائلية بسيطة ، والعمل الذى يطيب لهن » .

ويحدث فى تلك الامسيات الهادئة ، على العشاء ، ان تتحدث مدام كورى وايف عن الحب . فهذه المرأة ، المعذبة عذابا فاجعا مضنيا ، لم تكن تقدر هذه العاطفة تقـديرا كبيرا . وما كانت لتتحرج من ان تتخذ رايا لها ما قاله كاتب فرنسى كبير : « ليس الغرام عاطفة مكرمة » .

وكتبت ذات مرة الى ايف :

اعتقد ان علينا أن نبحث عن قوى معنوية فى مثال اعلى، يمكننا ، دون كبرياء منا ، من أن نرتفع بمطامحنا ونسمو

---

(١) Lavoisier عالم كيميائى فرنسى شهير (١٧٤٣ ـ ١٧٩٤) قطع عنقه على المقصلة أثناء الثورة وقال قتلته : « ليست فرنسا فى حاجة الى علماء ! . »

باحلامنا . وكذلك ارى من المؤلم المؤنس تعليق كل شأن الحياة على عواطف عاصفة هوجاء كالحب ..

واذ كانت ايف ستخرج بعد العشاء الى حفلةموسيقية جاءت مدام كورى الى غرفتها ، فاضطجعت على الديوان ، تنظر الى بنتها وهى تلبس ... وكانت آراؤهما ، فى زينة النساء وجمالهن ، علىطرفى نقيض تماما .وكانتايف هى التى ترغم امها على تجديد ثيابها السوداء قبل أن تصبح رثة بالية ، وكانت الام تستسلم ، بل تمزح وهى تبدى لبنتها ملاحظاتها :

ـ آه !.. ياحبيبتى المسكينة !.. ما ابشع كعب حذائك !. لا .. انك لن تجعلينى ابدا اصدق أن النساء خلقن للمشى على عكازين !.. ثم ، ماهذه « الموضة » الجديدة ؟. « ديكولتيه » الظهر فى فساتين السهرة ؟ لقد كان الكشف عن بعض الصدر محتملا ، اما هذهالكيلومترات والكيلومترات من الظهور العارية ! .. فاللهم حوالينا ولا علينا ! .. فهذا أولا : غير لائق . وثانيا : تعرضين نفسك للالتهاب الرئوى . وثالثا : هذا بشع !.. وانى أعلم أن السبب الثالث ينال منك مالا يناله السببان الاولان !.. فاعلمى ، بعد هذا كله ، ان ثوبك جميل !.. ولكنك غالبا تلبسين السواد . ان اللون الاسود ليس لمثل سنك ...

وكانت زينة الوجه تطول ، وتعذب ، فبعد جهد جهيد ، ترضى ايف عن النتيجة ، فتلتفت الى نداء امها الساخر : « أديرى وجهك ، حتى أعجب بك !.. » . وتفحصها مدام كورى فحصا علميا ، أمينا .. واخيرا تفزع :

ـ بالطبع ، ليس لدى اعتراض فى الجوهر على هذا النوع من التنكر بالدهان وتلطيخ الالوان !.. فانى اعلم أن هذا كان يعمل دائما . وفى مصر القديمة ، كان النساء

يبتكرن ماهو ادهى وأمر !.. ولا يسعنى الا أن أقول لك شيئا واحدا : اننى أرى هذا شنيعا !.. فأنت تعذبين اهدابك ، وتصبغين شفتيك دون أية فائدة ...

ـ ولكن يامه ! .. اؤكد لك أنه هكذا حسن ! ...

ـ أحسن !! .. اسمعى ، انى لاعزي نفسى . سأجىء غدا صباحا ، لاقبلك فى فراشك ، قبل أن يكون لديك وقت لوضع هذه الشناعات على محياك !.. انى أحبك ، حين لاتكونين زائفة. والآن أسرعى يابنتى الصغيرة.. مساءالخير

وتترك لها ايف بعض كتبها ، فهما برغم اختلاف ذوقهما الادبى ، تحبان معا كبلنغ وكوليت ... فلا تمل مارى كورى مطالعة « كتب الغاب » و « مولد النهار » و « سيدو » و « كيم » : الانعكاسات الحية لهذه الطبيعة الخلوية التى تجد فيها راحتها ومزاجها ...

وكان المشهد يتكرر كل مساء . فتعود ايف فتجد النور فى غرفة والدتها ، فتدفع الباب ، وتدخل .. واذا بمارى كعادتها ، محوطة بأوراقها وجداولها وارقامها ونشراتها ، جالسة على الارض ، على الخشب ... لم تتعود أبدا ان تجلس على كرسى كبير الى مكتب ، كما هى تقـــاليد « المفكرين » !.. كان لابد لها من مكان غير محدود تبسط فيه وثائقها وجداولها !..

وتكون مستغرقة فى احصائيات معقدة ، فمع انهاتلحظ عودة بنتها ، الا أنها لاترفع رأسها .. فحواجبها مقطبة ، ووجهها مهموم .. وعلى ركبتيها كراسة : وبيـدها قلم رصاص تعلم به وترسم ..وتخرج من شفتيها تمتمة وهمهمة

مارى كورى تعد وتحصى .. وكما كانت منذ ستين عاما، فى فصل الحساب ، بمدرسة مدموازيل سيكورســكا الابتدائية ، كانت هذه « البروفسور » فى السوربون ، تحسب باللغة البولونية !..

معهد المستقبل

ـ هل مدام كورى هنا ؟
ـ انى ابحث عن مدام كورى فهل جاءت ؟
ـ هل رايت مدام كورى ؟

شبان ، وشابات ، فى معاطف المعمل البيضاء ، يسائل بعضهم بعضا ، فى الدهليز الذى لابد للعالمة من اجتيازه عند وصولها الى معهد الراديوم .

ولن يطول انتظارهم . ان هؤلاء الخمسة ، العشرة ، المجتمعين فى الصباح ، فى طريقها ، ليسألها كل منهم نصيحة أو تشجيعا أو تفسيرا أو توجيها ، سيسمعون السيارة العتيقة تجتاز شارع بيير كورى ، وتفتح بوابة « معهد المستقبل » ، وتبدو مدام كورى ، فتتزاحم عليها الاصوات تسأل ، وتستفهم ، وتستفسر ، أو تعلن نتيجة طيبة ، أو تعلن عونا وغوثا ...

وهى سعيدة بهذا التزاحم الباكر ، فتترك عملها الخاص وتروح وتجىء ، هناوهناك ، بين مساعديها : تشير وتنصح ، وتعجب ، وتنقد ، وتهنىء .. وتراجع الرسائل ، وتنظمها ، وتقدمها .. وتتشدد فى المرفوع منها الى الاكاديمية ، تقراه ، مرتجفة اليدين من التأثر والذكرى .. وتصحح الاخطاء الفنية ، بله الجمل والعبارات ..
وهى تزيد فى غنى معملها عاما بعد عام . فتدور مع

جان بيير فى الوزارات ،تطلب الاعانات ، والبعثات العلمية لمعهدها . وكان أولياء الامور يلبون طلبها ، لانها « مدام كورى » ، فحصلت فى ١٩٣٠ على اعتماد للبحوث ، فوق العادة ، بخمسمائة ألف فرنك . وكان فى الطرف الاخر ، من حديقة شارع بيير كورى ، البناء الثانى من المؤسسة ، حيث يعمل البروفسور ريجو ومساعدوه ، الذين تسميهم مارى « الجمـــاعة اللى فى الوش «Les gens d'en face يقيمون حربا عوانا على السرطان . وبلغ عدد المرضى الذين عولجوا من ١٩١٩ الى ١٩٣٥ : تسعة عشر وثلاثمائةوثمانية آلاف مريض فى معهد الراديوم !.. وكان لابد لذلك من أسلحة هائلة للحصول على الشفاء والنتائج المعجلة، فبلغ مااستعاروه من « اتحاد المناجم » وحده عشرة جرامات!. ووجهوا النداء للحكومة ، وطلبوا التبرعات . وكان فى مقدمة المحسنين البارون هنرى دى روتشيلد Rothschild والاخوان لازار Lazard Frères ، وكذلك « فاعل خير » مدهش ، رقيق متواضع ، بذل كل مايمكن من الاحتياطات لاخفاء شخصيته ، وقد منح مؤسسة كورى ٣٫٤٠٠٫٠٠٠ فرنك .. ثلاثة ملايين وأربعمائة الف فرنك

وكان البروفسور ريجو ، القائم على العلاج بالراديوم ، من أنقى الناس ذمة ، وأشدهم انفة . كان مثل مارى يمقت دوى المجد . فنبذ كل نفع مادى .. ولو أنه كان قــد « عمل زبائن » لكسب ثروة طائلة ، غير أن هذه الفكرة المجردة نفسها لم تخطر له فى بال !.

هذه السنوات اللامعة المثمرة هى أيضا سنوات النضال الفاجع ، فمدام كورى مهددة بالعمى . اخبرها الطبيب فى ١٩٢٠ أن « كتركته » مزدوجة « اظلام عدسة العين » ستصيبها فى الليل قليلا قليلا ، فلم تدع مارى يأسها يبدو فأعلنت ، بلا جزع ، ابنتيها بهذه المحنة ، ثم تحدثت للحال

عن العلاج : عملية محتملة خلال سنتين أو ثلاث سنوات ... ومن الآن الى ذلك الحين ، خلال الانتظار القاضي عليها ، يزداد بلور النظارات سمكا ، ويضع بين العالم وبينها سحابا ثقالا ، وبين عملها وبينها ضبابا كثيفا مقيما ...

من ماری الی برونیا ــ ١٠ نوفمبر ١٩٢٠ :

ان أشد متاعبي يصدر عن عيني واذني . لقد ضعف بصري كل الضعف ولا يحتمل ان يكون له دواء ناجع . أما أذناي ، فان دويا يكاد يكون متواصلا ، واحيانا قويا جدا ، يضطهدني ... واني من هذا لفي قلق عظيم . فقد يتعرقل منه عملي ، وقد يستحيل .. وربما كان للراديوم دخل في هذه المتاعب ، ولكن لا يمكن الجزم بهذا قطعا .

هذه هي آلامي. فلا تحدثي أحدا عنهاحتيلاتشيعوتذيع والآن فلنتحدث عن شيء آخر ..

« لا تحدثي أحدا عن هذا ... » .. هذا هو مااستقر عليه الرأي بين ماري وابنتيها ، واخواتها ، وأخيها ، الذين كانوا وحدهم موضع سرها . وكانت فكرتها الثابتة ان تحول دون اذاعة هذا الخبر حتى لاتنشر يوما احدى الصحف : « مدام كوري عاجزة »

وأصبح أطباؤها شركاء لها في هذا التواطؤ . وكانت نظاراتها تصنع باسم « مدام كاريه » .

وكانت ماري تضرب في تيه من الظلمات ، لا تستطيع له قطعا ، اذا ارادت أن تعبر طريقا او تصعد درجا ، فتأخذ احدى ابنتيها بذراعها ، وبضغطة خفيفة باليد ، تدلها على ما امامها من اخطار او عقبات . وعلى المائدة ، تمد اليها ما تريد ، كالملاحة التي تبحث عنها بحركات الثقة الكاذبة ، الداعية الى الاشفاق .

واصرت على الا يعلم أحد فى المعمل بعجز عينيها ، ولكن كيف السبيل الى المضى فى هذه الكوميديا الشنيعة الباسلة؟ وبرغم كل محاولاتها ، واحتياطاتها ، وحزر المعمل المأساة لزم المعمل الصمت ، متظاهرا بعدم الفهم ، لاعبا الدور بمهارة مثل مارى !..

من مارى كورى الى ايف ــ ١٣ يوليه ١٩٢٣ :

حبيبتى ــ اظن أنه ستعمل لى العملية صباح الاربعاء ١٨ الجارى . يكفى حضورك الى هنا فى العشية. فالحر لا يطاق ، وأخشى عليك التعب .

عليك أن تقولى لاصدقائنا فى لاركويست « المصيف » ، ان ورائى تحريرات بدأناها معا ، وانى بحاجة اليك لانها طلبت منى على عجل . انى أقبلك . « مه »

ملحوظة ــ قولى لهم أقل مايمكن قوله ، ياحبيبتى !

تلك الايام فى المستشفى كانت شواظا من نار ، حيث تغذى ايف بالملعقة الصغيرة « مدام كاريه » الجامدة ، العمياء ، ذات الوجه الجريح المحجب بالاربطة .

وكان القلق ، من مضاعفات غير منتظرة ، من النزيف ، قد تبع ذلك ، وأضاع ، لعدة أسابيع ، كل أمل فى الشفاء، وعملت عمليتان أخريان فى مارس ١٩٢٤ . وعملية رابعة فى ١٩٣٠ ... ولم تكد تخلص من الضمادات والاربطة ، حتى راحت تستخدم عينيها الجريحتين ، وان كانت لا تستطيع بعد تركيز بصرها .

وكتبت من « كافالير » بعد أشهر من العملية الاولى الى ايف :

انى أمشى وأتنزه فى الطرق الجبلية على حصباء حادة ، وأسير بسرعة فى أمان .. وأما مايضايقنى فهو الرؤية المزدوجة التى تحول بينى وبين معرفة الاشخاص الذين

يقتربون منى . أتمرن كل يوم على القراءة والكتابة . ولكن ذلك كان حتى الآن أصعب من المشى !.. فلابد اذن من ان تساعدينى على تحرير مقال الموسوعة « الانسكلوبيديا » البريطانية ...

وانتصرت ، قليلا قليلا ، على حظها السيء . واتخذت نظارات غليظة ، فاستعادت نظرها الطبيعي أو كادت .. فتخرج وحدها ، بل وتسوق سيارتها . وفى المعمل تتمكن، من جديد ، من عمل أدق المقاييس والمكاييل .. آخر معجزة فى حياة معجزة مارى تبعث مرة أخرى من الظلمات لتجد من النور مايكفيها لتعمل ، وتعمل حتى النهاية .. ولعل السر فى ذلك البعث ، يبدو فى خطاب الى أختها برونيا ، فى سبتمبر ١٩٢٧ :

انى أحيانا تنقصنى الشجاعة ، وأقول لنفسى بضرورة الكف عن العمل ، والذهاب لسكنى الريف ، والانقطاع لفلاحة البساتين .

ولكن ألوف الصلات تستبقينى ، ولا أدرى متى أستطيع تنظيم الامور على هذا النحو .. وكذلك لست أدرى ، حتى ولو شغلت بوضع الكتب العلمية ، هل أستطيع الاستغناء عن المعمل ؟..

ومن يراها ، جالسة على كرسى ، مشتبكة الذراعين ، محنية الظهر ، زائغة البصر ، أمام تجربة فى المعمل ، لم توفق الى النتيجة التى تتوقعها ، يلقاها أشبه ماتكون بامرأة فلاحة عجوز ... عجوز جدا ، خرساء ، آسية ، فى حداد أو حزن عظيم ...

أما النجاح فيلهبها بالحماس والخفة والشباب ، ويعطيها أجنحة تحلق ... فتروح تجوس خلال الحديقة

مستبشرة مبتهجة ، كأنما كانت تريد أن تخبر شجيرات الورد ، وأشجار الزيزفون ، وأشعة الشمس ، بمبلـغ سعادتها ! ...

لقد اصطلحت مع العلم ، وصارا من جديد على وفاق ، فهي على استعداد للضحك من كل كيانها ، والافتتان ..

خاتمة الرسالة

كثيرا ماكان يحدث أن تتكلم مدام كورى عن موتها ، فتعلق ، بهدوء ظاهر ، على الحدث المحتوم ، وتستعرض عواقبه العمليــة ، وتنطق ، دون تأثر ، مثــل هــذه العبارات : « ... من البديهى أننى لن أعيش بعد سنين عدة .. » . أو : « انى ليشغلنى مصير معهد الراديوم حين لا أكون من أهل هذا العالم . »

هذا ، فى حين أن فطرتها تأبى عليها قبول فكرة العدم ، وتدفعها عنها . وأولئك الذين يعجبون بها عن بعد يظنون أن وراءها حياة لا نظير لها . وهذه الحياة فى عينى مارى لاتستحق الذكر ، لا نسبة بينها وبين المهمة الملقاة على عاتقها .

فمنذ ثلاثين عاما مضت ، وبيير كورى يتطير من موت تكون المصادفة وسيلته ، فدفن نفسه فى العمل بحرارة فاجعة ... وهاهى ذى مارى ، بدورها ، قد قبلت التحدى المبهم ، وخفت للنزال ..

ولكى تدفع عن نفسها اعتداء تتوقعه وتخشــــاه ، اندفعت بقوة تبنى حولها أســـوارا واستحكامات من المشاريع والواجبات . تزدرى تعبا يزداد كل يوم شدة والحاحا ، وهذه الاوجاع المقيمة التى ترهقها : بصرها المكفهر ، وروماتيزم فى الكتف ، وطنين فى الاذنين ..

فما هذا كله ؟ .. هناك أشياء أهم وأعظم . فقد شيدت مارى ، فى أركاى Arcueil (من ضواحى باريس) ، مصنعا خاصا بتحضير المعادن الاشعاعية بكميات هائلة . وكانت شديدة الرغبة فى اقامة هذا المصنع من زمن ، ونظمت فيه التجارب الاولى بلهفة وتحمس . وهى مشغولة من قبل بوضع كتابها ، الذى هو تمثال منيف للعلم ، لايستطيع أحد ، اذا اختفت مدام كورى ، أن يكتبه ويقيمه . وبحوث « الاكتينيوم Actinium لاتتقدم بالسرعة الكافية ! .. ثم أليس عليها أن تتولى بعد ذلك دراسة دقائق أشعة « ألفا Alpha » ؟

***

تنهض مارى فى ساعة مبكرة ، وتجرى الى المعمل ، وتعود اليه مساء ، بعد العشاء ...

انها تشتغل بسرعة غريبة ، وكذلك بعدم تبصر غريب ، هو من خصائصها . فقد احتقرت دائما الاحتياطات التى تفرضها بصرامة على تلاميذها : ألا يتناولوا انابيب العناصر الاشعاعية الا بالكماشات الدقيقة Pinces ، وألا يلمسوا الانابيب المجردة ، وأن يستخدموا الدرقة الواقية ، لتدرأ عنهم وتحميهم من الاشعاعات الكهربائية المؤذية .

وأخيرا سلمت مارى بتحليل الدم ، فوجده الفحص غير طبيعى . فماذا فيه ؟ .. ان مدام كورى ، لخمس وثلاثين سنة مضت ، تمسك بالراديوم ، وتستنشق انبثاقات الراديوم وما يفوح منه ... وقد ظلت خلال سنوات الحرب الاربع معرضة نفسها للاشعة الاخطر من ذلك أيضا، الاشعة السينية X الصادرة عن أجهزة

رونتجن . فالتحول الخفيف فى الدم ، وحروق اليدين المزعجة المؤلمة ، التى تجف تارة والتى تتقيح تارة أخرى ، ليست هذه ، بعد ذلك كله ، الا عقوبات غير صارمة لكل هذه الاخطار التى عرضت نفسها لها ! ..

وفى ديسمبر ١٩٣٣ ، تأثرت مدام كورى بمرض قصير ، ودل كشف الاشعة على حصاة كبيرة فى المرارة . وهو نفس المرض الذى أودى بحياة أبيها مسيو سكلودوفسكى ! .. فلكى تتجنب مارى عملية تخيفها ، اتخذت نظاما للطعام وخضعت للعلاج .

***

وفجأة ، رأينا هذه العالمة ، التى ظلت دهرا طويلا تهمل راحتها وصحتها ، وتؤجل مشروعاتها الشخصية المتواضعة التى تمس شغاف قلبها ، مثل بناء بيت فى ضاحية « صو » ، وتغيير مسكنها فى باريس ، رأيناها تندفع الى هذه الاعمال اندفاعا ، فتراجع رسومات فيلا « صو » ، وتدفع نفقات طائلة لبنائها حالا ، وتستأجر شقة جميلة فى بناء حديث بالمدينة الجامعية La Cité Universitaire ، القريبة من الحى اللاتينى ، حيث معهدها ومعملها .. وملعبها ! ..

لقد أحست الضنى والكلال ، وحرصت على أن تبرهن لنفسها على انها بخير وعافية . فتذهب لرياضتها المحبوبة : الانزلاق على الثلج بفرساى ، وتلحق بايرين لذلك فى السافوى Savoie ، وتحس السعادة لانها مازالت محتفظة بلين عضلاتها ورشاقتها . ثم تجىء أختها برونيا الى باريس ، بعد اذ فقدت زوجها الدكتور كازيمير دلوسكى ، وفقدت ولديها . فتنتهز مارى الفرصة لتسلية أختها ورياضة نفسها برحلة بالسيارة الى جنوب فرنسا .

وكانت الرحلة نكبة . فقد ارادت مارى أن تقوم بجولات طويلة لتظهر أختها على جمال الطبيعة ، فلما وصلت بعد مراحل عدة الى « فيلا كافالير » كانت منهوكة القوى ، مصابة بالبرد . وكان بيتها عند وصولها مثلجا ، ولم تنفع النار ، التى أشعلت على عجل ، فى تدفئته بسرعة . فارتجفت مارى من القشعريرة ، وارتمت فى أحضان برونيا تزفر وتنتحب كطفلة مريضة . فهى مهمومة بكتابها ، وتخشى من نزلة شعبية تحول بينها وبين اتمامه . فتعنى بها برونيا . وتعالجها ، وتهدئها ، وتطيب خاطرها . وفى اليوم التالى ، تنتصر مارى على خور عزيمتها ، فلا ينال بعد منها .

أيام فى الشمس الساطعة ، تستجم فيها ، وترد اليها قواها ، وتشد من أزرها . فاذا آبت الى باريس كانت خيرا منها فى ذهابها عنها . وقال الطبيب : مصابة بالانفلونزا ، وقال ــ كما قال جميع الاطباء منذ اربعين عاما ــ : من شدة الاجهاد . ولم تلق مارى بالا الى الحمى الخفيفة التى لاتتركها .. وعادت برونيا الى بولونيا وهى شاعرة بقلق غامض . وامام قطار فارسوفيا ، على الرصيف الذى طالما وطأته أقدامهما ، تتعانق الشقيقتان لآخر مرة .

مارى تروح وتجىء بين المرض والصحة . وفى أيام انتعاشها تذهب الى المعمل ، وعندما تحس الدوار والضعف تبقى فى بيتها ، تؤلف كتابها .

ولكن عدوها المتربص كان يتعجل الظفر بها . فزاد الحاح الحمى عليها ، واشتدت رعشتها ، وعصفت بها رجفتها . وكان لابد لايف من صبر أيوب ، حتى ترضى امها باستقبال الطبيب من جديد ، فلم يكن لها طبيب

مداو . فهذه العالمة ، هذه الرفيقة للتقدم والارتقاء ، كانت فى تمردها على العلاج كالفلاحة ! فأبت الاستماع الى النصح بملازمة الفراش . وظلت تنزل وتصعد طبقات بيتها المتعبة ، وتعمل كل يوم تقريبا ، فى معهد الراديوم .

***

وفى عصرية ضاحية من شهر مايو ١٩٣٤ ظلت الى منتصف الساعة الرابعة فى قاعة الطبيعة ، تلمس اجهزتها : رفقاءها المخلصين ! .. وتبادل مساعديها بضع كلمات ، ثم تتمتم : « أشعر بالحمى ... سأعود الى البيت » .

ثم تدور بعد ذلك فى الحديقة كعادتها ، حيث كانت الازهار تتنضر وتزهو بأوراقها البهيجة الالوان .. فتقف بغتة ، أمام شجيرة ورد ذابلة ، فتنادى :

— جورج ! .. اعتنوا بهذه الشجيرة فى الحال ! ..

وتتقدم طالبة تتوسل اليها ألا تبقى فى تيارات الهواء ، وأن تعود الى دارها . تطيع ، ولكنها قبل أن تصعد الى سيارتها ، تلتفت وتصيح بالبستانى ، لكيلا ينسى شجيرة الورد ! ..

هذه النظرة القلقة ، نحو نبتة يابسة ، هى وداعها الاخير للمعمل والمعهد .. والمعبد ...

لم تعد تغادر سريرها . وبدأ نضال موئس ضد داء غير محدد ، يوصف تارة بأنه أنفلونزا ، وتارة نزلة شعبية ، مما هد حولها . تحملته بوداعة مدهشة . وقبلت أن تنقل الى عيادة للتشخيص الكامل . وعملت صورتان للاشعة ، وخمسة او ستة تحاليل حيرت الاخصائيين الذين دعوا ليكونوا الى جانبها . فما من

شوء ظاهر المساس بعضو من أعضاء بدنها ، وما من داء يبدو بجلاء . ففرضوا عليها كاسات الهواء ، فلم يخفف ذلك من المرض ولم يزده . فعادت الى بيتها وبدأت تسمع حولها الهمس بكلمة : « مصحة Sanatorium » . وعرضت عليها ايف ، وهى مشفقة ، فكرة هذا المنفى . وهنا أيضا أطاعت مارى ، وتقبلت الرحيل . فقد وضعت آمالها فى هواء أنقى من هواء باريس ، وتخيلت أن ضجيج المدينة وغبارها حالا دون شفائها . وتوالى على خدمتها ايف ، وايرين ، وزوجها فردريك جوليو ، وكانوا أحيانا يشغلونها عن حالها بذكر مايطيب لها من فيلا ضاحية « صو » والشقة الجديدة ، فتضحك منهم وهى تتلمس نظرة ابنتها ، لتفسرها :

ـ ربما كنا نتعب أنفسنا سدى ونمنيها بالمحال ...

وزادت ضعفا على ضعف . وقبل أن تنقل الى المصحة ، جمعت ايف ، فى استشارة أخيرة ، أربعة من أعظم أساتذة الطب فى فرنسا . ففحصوها نصف ساعة ، وقالوا بتنبه داء الصدر ، وأن اقامتها فى الجبل تتغلب على الحمى . وكانوا من المخطئين .

***

وبرغم المضاعفات الخطيرة ، نصح الاطباء بالسفر حالا . وكانت الرحلة عذابا مطبقا . وعند وصول القطار الى سان جرفيه Saint Gervais سقطت مارى مغشيا عليها فى أذرع ايف والممرضة . وعند ماحلت آخر الامر فى أجمل غرفة بمصحة Sancellemoz ، عملت أشعة جديدة ، فلم يظهر أن الرئتين مصابتان ، وكانت الرحلة بلا جدوى !

وزادت الحمى على أربعين درجة ، ولم يمكن اخفاء

هذا الرقم عن ماری التی کانت تراجع الترمومتر بيقظه العالمة . ولم تكد تنطق بشيء ، غير ان عينيها الشاحبتين قد عكستا جزعها وهلعها ..

ودعی البروفسور روش Roch من جنيف ، على عجل ، فقارن فحص الدم فی الایام الاخیرة ، حيث كان عدد الكريات البيضاء والكريات الحمراء جميعا قد هبط هبوطا سريعا . فروح عن ماری ، وطمأنها ، وكان يلازمها التفكير فی حصاة المرارة ، واكد انه ما من حاجة اطلاقا الى عملية ، وان العلاج سياخذ مجراه .. بيد أن الحياة كانت تفر من هذا الجسد المضنى ...

وعندئذ بدأ الكفاح المتلاحق المروع الذی یأبی فيه الجسم الفناء ، فيناضل العدم بقوة غشـــوم وعزيمة وحشية .. وكانت « ايف » تناضل نضالا آخر . لابد من احتفاظ امها بصفاء الذهن الذی لم تتغلغل فيه فكرة الموت ، ولابد من التمسك بهذه المعجزة ، لتجنب ماری الما نفسيا هائلا ، وينبغی ، خاصـــة ، تخفيف الالم البدنی ، بحيث يطمئن الجسم والروح فی وقت معا . فلا عجلة فی نقل دم لايجدی ، الآن ، غير الفزع .. ولا جمع لافراد الاسرة جمعـا مبـاغتا الى جانب فراش المحتضرة ، فانها لاتكاد ترى اهلها محتشدين ، حتى يقع من فوره ، فی فؤادها ، ذلك اليقين البشع ..

***

سيمجد الدهر ابدا أسماء اولئك الذين اعانوا هذه المراة العظيمة وهذه الام الكريمة ، فی أيامها الفاجعة ، ومن بينهم : الدكتـــور توبيــــه Dr. Tobé مــــدير السناتوريوم ، والدكتور بيير لوئس Dr. Pierre Lowys اللذان لم يسعفا ماريا بعلمهما وحـده ... بل .. كان

حياة المصحة كلها توقفت وجمدت ، للنبـــا الذى يمزق القلوب : مدام كورى تموت ..

فلم تعد الدار الا وقارا ، وتفانيا ، وصمتا ، ورحمه .. وكان الطبيبان يتبـادلان المكث فى غرفة مارى ، يسندانها ، ويروحان عنها . وكذلك يعالجان ايف ، ويعينانها على المقاومة ، وعلى الكذب ، ويعدانها بان يخففا عن أمها بالمخدر والحقن ، فتنــام ، لكى لا تحس شنيع الآلام ..

وفى صباح ٣ يولية ، استطاعت مدام كورى ، للمره الاخيرة ، أن تقرأ الترمومتر ، وهو فى يدها المرتعشة ، فتلاحظ هبوط الحرارة الفجائى ، الذى يسبق النهاية ، فتبتسم فرحا . ولما أكدت لهـا ايف أن هـذه علامة الشفاء ، وانها الآن سوف تتعافى ، قالت ، ناظرة الى النافذة المفتوحة ، متجهة فى أمل ، فى شغف حار بالحياة ، نحو الشمس ، نحو الجبال الثابتة : « انه ليس الدواء الذى نفعنى .. انه الهواء النقى الخالص .. وهـذا العلو الشاهق ... »

وكانت ، أثناء احتضارها ، تئن أنينا وتشـــكو فى دهشة حالمة : « .. لا أستطيع أن أعبر عما فى نفسى ... اننى غائبة ... » . ولم تنطق باسم أحد من أهلها .. بل كانت مشاغل عملها ، الصغيرة والكبيرة ، هى التى تدور اعتسافا فى ذهنها العجيب الصافى صـــفاء عجيبا .. فتذكر : « الجمل .. الفصول .. النشر .. الكتاب » ..

وتحدق طويلا فى فنجان شاى حاولت ان تقلبه بالملعقة .. كلا ... ليست ملعقة ... انها عصا بلورية ، اداة دقيقة من ادوات المعمل :

ـ هل هو مصنوع بالراديوم او الميزوتوريوم ؟ ..

لقد ابتعدت عن بنى الانسان ، ولحقت ، الى الابد ، بهذه « الاشياء » الحبيبة اليها ، والتى وقفت حياتها عليها ..

ولم تعد تنطق الا بأقوال مبهمة .. ثم توجه فجأة ، الى الطبيب الذى جاء يحقنها ، هذه الصيحة الضعيفة الضجرة :

ـ لا أريد . أريد أن تدعونى وما بى ..

كشفت لحظاتها الاخيرة عن الحيوية ، والمقاومة الجبارة فى مخلوق لم تكن هشاشته الا ظاهرا ، وعن قلب متين سجن فى بدن تهرب منه الحرارة ، فيظل يخفق ، ولا يتعب ، ولا يخمد . بينما يمسك كل من الدكتور بيير لوئس وايف ، مدى ست عشرة ساعة بعد ذلك ، بيد من هاتين اليدين المثلجتين ، يدى المراة التى لاتريد الحياة ولا تريد الفناء .

وفى الفجر ، عندما تكون شمس الجبال بلون الورد ، وتبدأ شوطها فى سماء نقية نقاء بديعا .. عندما يشرق الضوء الساطعلصباح رائع ، فيغمر الحجرة ، والفراش ، ويبلغ الوجنتين الضامرتين ، والعينين الرماديتين ، اللتين أحالهما الموت الى مثل الزجاج .. عندئذ يقف القلب ، أخيرا ، ويكف عن الخفقان .

وامام هذه الجثة ، كانت ماتزال لدى العلم كلمته . فالعوارض غير الطبيعية ، وتحليلات الدم ، تختلف عن انواع الانيميا الخبيثة المعروفة ، وتشى بالمجرمالحقيقى ، وهو : الراديوم .

كتب البروفسور ريجو :

« ان مدام كورى يمكن ان تحسب بين الضحايا ، على طول المدى ، للعناصر ذات النشاط الاشعاعى الكهربائى ، التى اكتشفتها هى وزوجها ... »

وفى المصحة ، كتب الدكتور توبيه هـــذه النشرة الرسمية :

« ماتت مدام كورى فى مصحة Sancellemoz ، يوم ٤ يولية ١٩٣٤ والداء : أنيميا خبيثة مصـحوبة بحمى سريعة . والنخاع العظمى لم يعمل عمله ، فيحتمل انه قد أصيب من تراكم الاشعاعات الطويل »

انتشر النبأ من المصـــحة الهادئة ، فى العالم كله ، انتشار النار فى الهشيم ، ليمس ، هنا وهناك ، قلوبا حساسة ، بالالم والحزن . فى فارسوفيا : هيلا ، وفى برلين ، فى قطار مسرع نحو فرنسا : جوزيف سكلودوفسكى وبرونيا ، برونيا التى حاولت عبثا أن تصل فى الوقت المناسب الى المصـــحة ، لتلمح الوجه الحبيب ، وفى مونبلييه : جاك كورى ، وفى لندن : مسز ميلونى ، وفى باريس : أصدقاء مخلصين ...

وفى معهد الراديوم ، وقف الشباب العلماء ، أمام الاجهزة الهامدة : ينتحبون ... وكتب جورج فورنييه ، وهو من تلاميذ مارى المقربين : « لقد خسرنا كل شىء »

لقد استراحت مدام كورى فى نجوة من هذه الآلام ، وفى نجوة من الاضطرابات ، ومن التحيات ، على مرقدها فى المصحة ، حيث لم يسمحوا لاى أحد أن يعكر صفو راحتها ، ولا بنظـرة ... ولن يرى أى متطفل ذلك اللطف العلوى ، الذى اتخذته مارى قباء لها ، لهـذا الرحيل ... كانت فى ثياب بيضاء شاملة يجلل شعرها الابيض جبينها العظيم . والوجه صفو فى سلام ، وقور ،

باسل ، كفارس فى سلاح ... انها ، فى هذه اللحظة ، اجمل وانبل ما على ظهر الارض ...

وكانت يداها الخشنتان ، المتحجرتان ، المشوهتان من الراديوم بحروق بعيدة الغور ، قد فقدتا حركتهما العصبية المألوفة ... فهما ممدودتان على الملاءة الناصعة ، جامدتان ، بلا حراك ..

***

وفى يوم الجمعة ٦ يولية ، ١٩٣٤ ، عند الظهر ، شيعت مدام كورى ، بلا خطب ، ولا مواكب ، ولا رجال سياسة ، ولا شخصيات حكومية ، لتأخذ فى تواضع ، مكانها فى محلة الاموات . فدفنت فى مقبرة « صو » ، على مشهد من الاقرباء ، والاصدقاء ، والمساعدين ، والمريدين ، الذين أحبوها . ووضع تابوتها فوق تابوت بيير كورى . والقت برونيا وجوزيف سكلودوفسكى فى الحفرة المفتوحة قبضة من تراب بولونيا ..

وزاد على شاهد القبر سطر جديد :

مارى سكلودوفسكى كورى

١٨٦٧ – ١٩٣٤

***

وبعد مرور عام ، ظهر كتاب مارى الذى أتمته قبل اختفائها ، حاملا الى الشباب « عشاق الطبيعة » رسالة اخيرة .

وفى معهد الراديوم ، حيث استؤنف العمل ، جاء المجلد الضخم ، الى المكتبة المنيرة ، لينضم الى المؤلفات

العلمية الاخرى . وعلى غلافه الرمادى ، اسم المؤلف

مدام بيير كورى

استاذ فى السوربون

جائزة نوبل فى الطبيعة

جائزة نوبل فى الكيمياء

وعنوانه ، مكون من كلمة واحدة ، صارمة ، **ساطعة :**

Radioactivité

فهرس

	صفحة
للذكرى	٥
مقدمة	٨

الجزء الاول

مانيا	١٢
أيام كئيبة	١٩
مراهقة	٣١
مواهب	٣٥
مربية	٤٤
صبر جميل	٤٨
الفرار	٥٥

الجزء الثانى

باريس	٦٢
أربعون روبلا فى الشهر	٧٢
بيير كورى	٨٦
زوجان شابان	١٠٦
اكتشاف الراديوم	١١٦
أربع سنوات فى سقيفة	١٢٥

صفحة

الحياة الشاقة	١٣٥
رسالة الدكتوراه	١٤٢
العدو	١٥٢
على مدى الايام	١٦٢
١٩ أبريل ١٩٠٦	١٦٧

الجزء الثالث

وحــدها	١٨٧
انتصارات ومحن	١٩٤
الحرب	٢٠٢
الســــــلام	٢١٢
أمريكا	٢١٥
ازدهار	٢٢٨
جزيرة سان لويس	٢٣٥
معبد المستقبل	٢٤٣
خاتمة الرسالة	٢٤٩

هذا الكتاب

تعتبر مدام كورى نموذجا فذا ورائعا للانسان المعاصر .. لقد عاشت من أجل العلم ، واعطت حياتها كلها للمعرفة الانسانية حتى وصلت الى اعلى درجات هذه المعرفة ، فكانت نموذجا للعبقرية الانسانية ، عندما تجند نفسها فى سبيل الخير والارتقاء والتقدم وفى سبيل التغلب على مصاعب الحياة البشرية ..

وقصة مدام كورى يجب ان تكون فى يد شبابنا واجيالنا الجديدة . ان حياتها هى القصة المثالية النبيلة التى تضىء لكل شاب وفتاة طريق الخير والنبوغ والتقدم ، واذا كنا نعيش فى مجتمع يحلم بأن تنتشر فيه الكهرباء فى كل قرية وتنتشر المصانع على طول الوادى وعرضه ، ويستطيع الانسان فيه ان يتخلص من الامراض المتوطنة وان يعيش الاطفال سعداء اصحاء يبتسمون للمستقبل باستمرار .. ان كنا نريد مجتمعنا من هذا النوع فنحن بحاجة الى مثل عليا جديدة ، بحيث تكون هذه المثل العليا مصباحا يضىء طريق كل فتى وفتاة فى بلادنا التى تبحث عن السعادة والتقدم والحب والخير ..

وهذا الكتاب الذى ترجمه الى العربية الكاتب الكبير احمد الصاوى محمد كتبته ايف كورى ابنة مدام كورى ، وقد كتبته الابنة الوفية بأسلوب ساحر ممتع جميل كأنه سيمفونية رائعة من سيمفونيات موسيقى حساس .. وقد حافظ الصاوى على مافى الكتاب الاصلى من جمال وجاذبية وعذوبة فجاء الكتاب فى النهاية قصة ممتعة ولامعة من قصص الكفاح والخلق الرفيع والعلم النبيل والسعادة العائلية القائمة على الحب والاخلاص والتفاهم .. وهى قصة يجب ان يعيش معها شبابنا وفتياتنا طويلا .. ففيها كنز من العواطف الدافئة والقيم النبيلة والطموح العالى المحب للانسان وخير الانسان .

هذا الكتاب

تعتبر مدام كوري نموذجا فذا ورائعا للانسان المعاصر. لقد عاشت من أجل العلم، واعطت حياتها كلها للمعرفة الانسانية حتى وصلت الى اعلى درجات هذه المعرفة ، فكانت نموذجا للعبقرية الانسانية ، عندما تجند نفسها في سبيل الخير والارتقاء والتقدم وفي سبيل التغلب على مصاعب الحياة البشرية ..

وهذا الكتاب الذي ترجمه الى العربية الكاتب الكبير احمد الصاوي محمد كتبته ايف كوري ابنة مدام كوري ، وقد كتبته الابنة الوفية بأسلوب ساحر ممتع جميل كأنه سيمفونية رائعة من سيمفونيات موسيقار حساس ..

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية صمدي وصالحة ، ص.ب ٥٤٦٠/١١
بناية برج شهاب ، تلة الخياط ، ص.ب ١٩٥١١٩
برقيا : موكيالي ، بيروت

الثمن : ٥ ل.ل.
او ما يعادلها